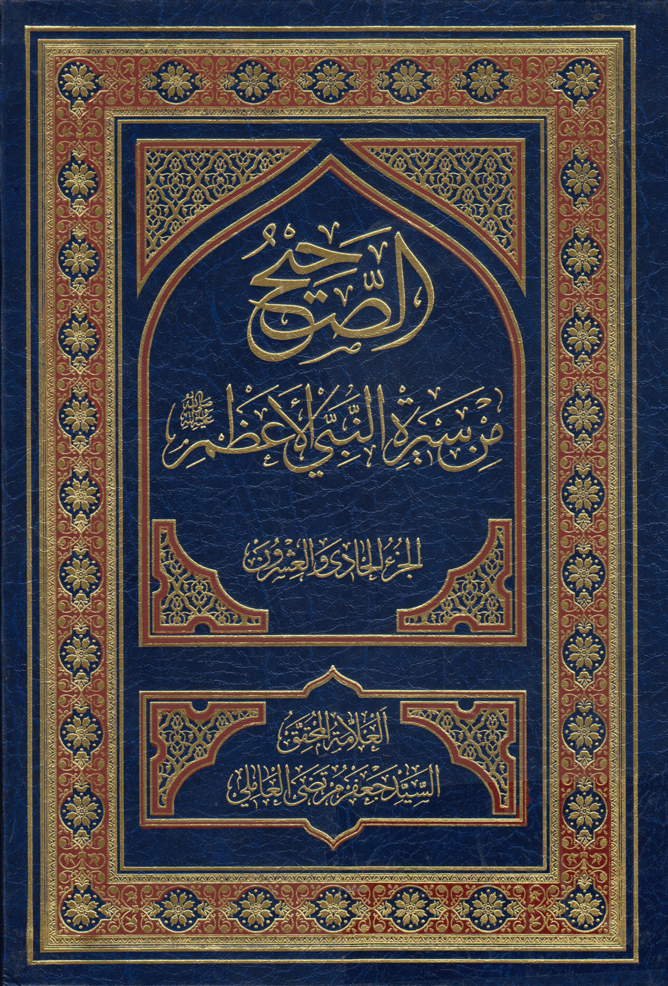


الصحيح
من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله
الجزء الحادي والعشرون
العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي


بسم الله الرحمن الرحيم







العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء الحادي والعشرون

الصحيح من سيرة النبي الاعظم ﷺ

(الجزء الحادي و العشرون)

للعلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي

الناشر: دارالحديث للطباعة والنشر

المطبعه: دارالحديث

الطبعة: الثانية / ١٤٢٨ هـ ق ـ ٢٠٠٧ م ـ ١٣٨٦ هـ ش

عدد المطبوع: ١٠٠٠ دورة



قم، شارع معلم، قرب الساحة الشهداء، الرقم ١٢٥

الهاتف: ٧٧٤٠٥٤٥ـ٧٧٤٠٥٢٣ـ ٠٢٥١ / فاكس: ٧٧٤٠٥٧١ ٠٢٥١ / ص.ب ٤٤٦٨ / ٣٧١٨٥

لبنان ـ بيروت ـ حارة حريك ـ خلف الضمان الاجتماعي ـ بناية فروزان. تلفاكس: ٢٧٢٦٦٤ ـ ١ ـ ٠٠٩٦١

BEIRUT - LEBANON Haret Herik Behind Center Forozan Bldg TeleFax: + 961 1 272664

http://www.hadith.net

hadith@hadith.net

ISBN (SET): 978 - 964 - 493 - 171 - 0

ISBN: 978 - 964 - 493 - 193 - 2



القسم التاسع

فتح مكة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب الأول

إلـــى مــــكــــة

الفصل الأول: المجزرة
الفصل الثاني: إلى المدينة: خبر وشكوى
الفصل الثالث: أبو سفيان في المدينة: تدليس وخداع
الفصل الرابع : جيوش تجتمع.. والهدف مجهول
الفصل الخامس: ابن أبي بلعته.. يتجسس ويفتضح
الفصل السادس: على طريق مكة
الفصل السابع: هجرة العباس.. وإسلام ابن الحارث وابن أبي سلمة
الفصل الثامن: أبو سفيان في أيدي المسلمين

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

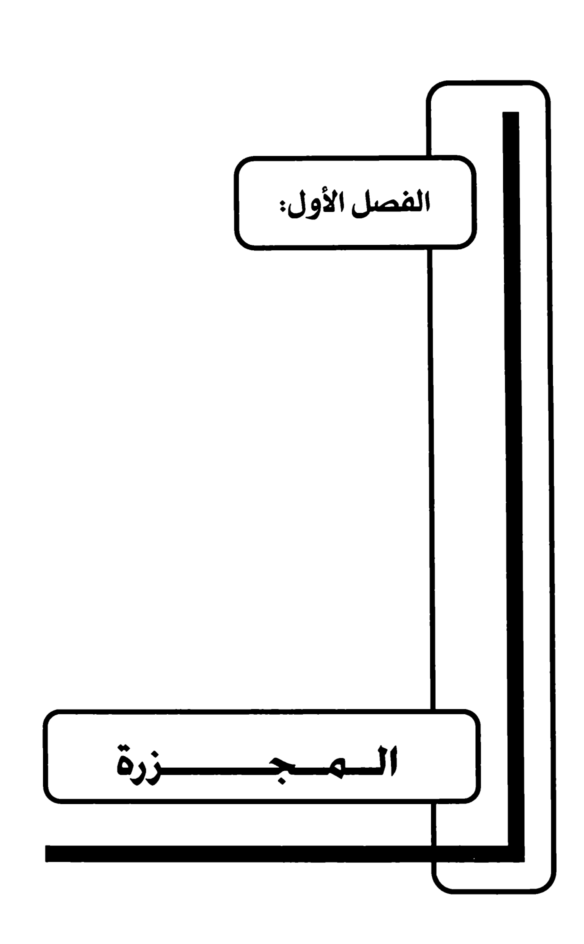
[illegible]

[illegible]

[illegible]

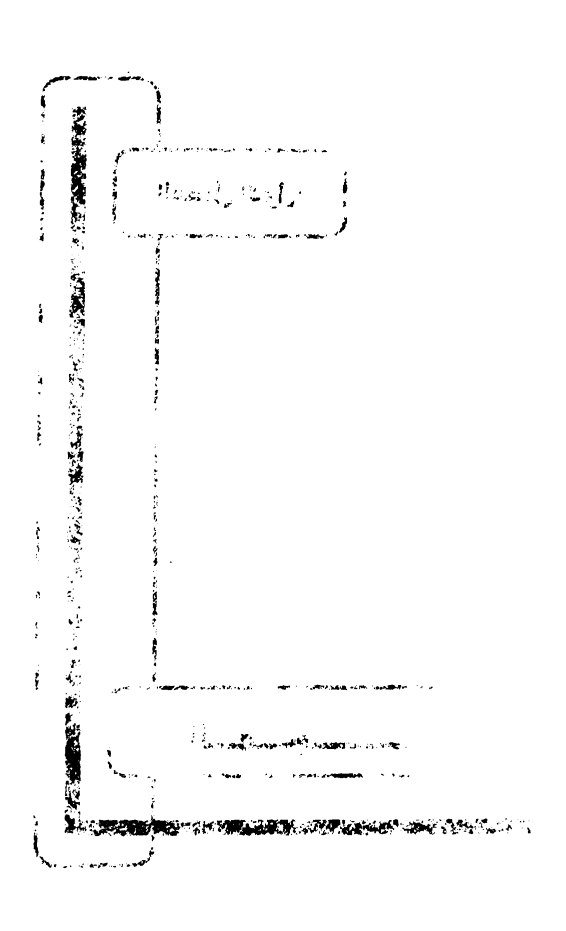
[illegible]

[illegible]



الفصل الأول:

الـــمـــجـــــــــــزرة



بداية:

إن فتح مكة كان نقطة تحول في تاريخ الإسلام، وفي الأوضاع العامة في الجزيرة العربية بأسرها.. حيث لم يعد أحد يجد أي عقدة أو حرج من أية جهة كانت في الإقبال على هذا الدين، والإنضواء تحت لواء الإسلام، بل أصبح ذلك موضع تنافس، وتسابق، لأنهم وجدوا فيه فرصة لتعزيز موقعهم، وتأكيد وجودهم ودورهم في صنع المستقبل، ورسم مسار الأمة بأسرها إلى مصيرها..

وأصبح أعداء الأمس وصناع الحروب ضد هذا الدين وأهله أتباعاً بل أذناباً، أكثر ما يهتمون له هو: أن يجدوا وسيلة لتأكيد صدق ولائهم، وصحة إيمانهم، وسلامة اعتقادهم.. أو أن يظهروا المزيد من الحرص على كسر شوكة أعداء دين الله، والنكاية فيهم، وصدقهم في مناهضتهم وردِّ عاديتهم..

وأصبحت لا تسمع منهم إلا المدح والثناء، وإلا العبارات الطافحة بالرضا، والمعبرة عن مشاعر العرفان بالجميل، وعن الشعور بالإمتنان، وبالشكر الجزيل لمن كان بنظرهم قاطعاً للرحم، وسبباً في الخلاف وفي الاختلاف، ومن وصفوه بالكاهن والساحر والمجنون، وبالشاعر الذي يتربصون به ريب المنون..

فكيف كان هذا الفتح، وما هي تفاصيل أحداثه؟

هذا ما سوف نجيب عليه في الفصول الآتية.

تاريخ فتح مكة:

روي عن الإمام الرضا، عن آبائه «عليهم السلام»: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» سافر إلى بدر في شهر رمضان، وافتتح مكة في شهر رمضان(١).

وفي الروايات التاريخية أيضاً: إن الفتح كان في يوم الجمعة(٢).

والقول: بأنه كان في شهر رمضان سنة ثمان مروي عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وأبي سعيد الخدري وغيرهم، بل لا خلاف في أن هذه

---

(١) البحار ج١٩ ص٢٧٣ وج٢١ ص١١٦ وراجع ج٩٧ ص١٦٨ وأمالي ابن الشيخ ص٢١٨. وراجع: الأمالي للطوسي ص٣٤٢ ومسند الإمام الرضا ج٢ ٤٧٩ وميزان الحكمة ج٣ ص٢٢٤٩ وتفسير الميزان ج٩ ص٢٩ ومشارق الشموس للخوانساري ج٢ ص٣٧٠ والحدائق الناضرة ج٣ ص١٨٨ والإستبصار ج٢ ص١٠٢ وتهذيب الأحكام ج٤ ص١٢٦ والوسائل (ط مؤسسة آل البيت) ج١٠ ص٢٠١ و (ط دار الإسلامية) ج٧ ص٢٤٣ ومنتهى الجمان ج٢ ص٥٢٠.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٧. وراجع: البحار ج٢١ ص١٤٣ والطبقات الكبرى (ط دار صادر) ج٢ ص١٣٧ و (ط دار الكتب العلمية) ج١ ص٣٩١ والبداية والنهاية (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٣٢٢ وزاد المعاد (ط مؤسسة الرسالة) ج١ ص١٠٩٦ وتاريخ مدينة دمشق ج١٦ ص٧٧ و ٢٣٢ ونيل الأوطار ج٢ ص١٩٥ وأحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية (ط دار الكتب العلمية) ج٢ ص٦٤٠.

الغزوة كانت في شهر رمضان[1]، فلا حاجة إلى تفصيل القول في ذلك.

ولكن الخلاف هنا هو في ثلاثة أمور، هي:

١ ـ يوم الخروج من المدينة.

٢ ـ يوم دخول مكة.

٣ ـ مدة الإقامة في مكة.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٠ و ٢٦٥ و ٢٦٦ عن البخاري، والبيهقي، وأحمد، والواقدي، وابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، ومسلم، وتاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ و ٧٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ والبحار ج٢١ ص١٠٢ و ١١١ و ١٢٤ و ١٢٧ و ١٣٣ و ١٤٣ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ وعن البخاري ج٧ ص٥٩٥.
وراجع: السنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص٣٤١ وج٦ ص٥٥ ومقدمة فتح الباري ص٣٧١ وفتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ والتبيان ج٥ ص١٩٨ وتفسير القرطبي ج٦ ص٦٠ ومكاتيب الرسول ج١ ص١١٩ وسبل السلام ج٢ ص١٦١ وج٣ ص٥ والطبقات الكبرى (ط دار صادر) ج٢ ص١٣٤ و ١٣٧ و (ط دار الكتب العلمية) ج١ ص٣٩١ والبداية والنهاية (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٣٢٢ والتاريخ الصغير للبخاري ج١ ص٥٨ وفتوح البلدان ج١ ص٤٦ وزاد المعاد (ط مؤسسة الرسالة) ج١ ص١٠٩٦ وتاريخ مدينة دمشق ج١٦ ص٧٧ و ٢٣٢ ونيل الأوطار ج٢ ص١٩٥ وأحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية (ط دار الكتب العلمية) ج٢ ص٦٤٠ وإعلام الورى ج١ ص٢١٥ وقصص الأنبياء للراوندي ص٣٤٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٣٥٤ و ٥٣٩ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ وتاريخ خليفة بن خياط ص٥٢. وغير ذلك من المصادر الكثيرة جداً.

ونحن نذكر هنا موجزاً عن هذه الأمور الثلاثة كما يلي:

يوم خروج النبي ﷺ من المدينة:

روي عن الزهري أنه قال: لا أدري أخرج في شعبان فاستقبل رمضان، أو خرج في رمضان بعدما دخل[1].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: خرجنا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» عام الفتح لليلتين خلتا من شهر رمضان[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٥ عن البيهقي، وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٩ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢٦ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٥ و ٢٦٦ عن أحمد بإسناد صحيح، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ و (ط دار المعرفة) ج٣ ص٣ والبحار ج٢١ ص١٢٧ وإعلام الورى ج١ ص٢١٨ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢٧ و (ط دار المعارف) ج٢ ص٢٨٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤١ و ٥٤٢ صحيح ابن حبان (ط مؤسسة الرسالة) ج١١ ص٤٦ و (ط دار الفكر) ج٥ ص٨٤ وشرح معاني الآثار ج٢ ص٦٦ ومسند أبي حنيفة ج١ ص٢٥٠ وصحيح ابن خزيمة ج٣ ص٢٦٤ وراجع: المبسوط للسرخسي ج٣ ص٩١ وعن عون المعبود ج٧ ص٣٠ و (ط دار الفكر) ص٣٩ والتمهيد للقرطبي ج٢ ص١٦٩ وج٢٢ ص٤٧ ومرقاة المفاتيح ج٤ ص٥٢٥ والسير الكبير للشيباني ج١ ص٦٦ والمناقب لابن شهرآشوب ج١ ص١٧٧ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣.

وقال آخرون: أنه خرج لعشر خلون من شهر رمضان[1].

يوم دخول مكة:

واختلفت أقوالهم في يوم دخول مكة، فعن الزهري: فصبح رسول الله «صلى الله عليه وآله» مكة لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٦ عن الواقدي، وابن إسحاق، وعن إسحاق بن راهويه بسند صحيح عن ابن عباس، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ وتاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ والبحار ج٢١ ص١٠٢ وراجع: شرح مسلم للنووي ج٥ ص٢٣٤ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣ والديباج على مسلم ج٣ ص٢١٦ وعن عون المعبود ج٧ ص٣٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ وتاريخ خليفة بن خياط ص٥٢ ومرقاة المفاتيح ج٤ ص٥٢٥.

(٢) البحار ج٢١ ص١٣٣ عن إعلام الورى وغيره، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٥ عن البيهقي بسند صحيح، وإعلام الورى ج١ ص٢٢٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤١ وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج٣ ص١٤١ و (ط دار الكتب العلمية) ج٧ ص١٩٠ والعلل لابن حنبل ص٢٣١ والسنن الكبرى للبيهقي (ط دار الفكر) ج٤ ص٢٤١ و (ط أخرى) ج٦ ص٢٧٣ شرح مسلم للنووي (ط دار الكتاب العربي) ج٥ ص٢٣٣ و (ط دار الفكر) ج٧ ص١٨٩ والدر منثور ج٦ ص٤٠٨ ومسند أحمد (ط دار صادر) ج١ ص٢٧٦ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص١٠٧ والمستدرك للحاكم ج٣ ص٤٣ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٧٤ ونصب الراية (ط دار الحديث) ج٣ ص٢٨ ومنتخب مسند عبد بن حميد (ط مكتبة النهضة) ص٢١٧ و (ط دار عالم الكتاب) ج١ =

وقيل: لاثنتي عشرة[1].

وقيل: إنه دخل لست عشرة[2].

وقيل: لسبع عشرة[3].

وقيل: لتسع عشرة[4].

وقيل: لعشرين من شهر رمضان[5].

= ص٢١٦ وغرر الفوائد المجموعة ليحي بن علي القرشي ص٣١٠ ومجمع الزوائد ج٦ ص١٧٧ ونصب الراية ج٣ ص٢٨ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث) ج٤ ص٣٢٧ و (ط دار المعارف) ج٢ ص٢٨٣.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٥ و ٢٦٦ عن أحمد، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٥ و ٢٦٦ عن مسلم، وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣.

(٣) الدر المنثور ج٦ ص٤٠٨ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث) ج٤ ص٣٢٦ و (ط دار المعارف) ج٢ ص٢٨٢ والسيرة النبوية لابن كثر ج٣ ص٥٤١.

(٤) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٥ و ٢٦٦ عن أحمد، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ وشرح مسلم للنووي (ط دار الكتاب العربي) ج٧ ص٣٣٤ و (ط دار الفكر) ج٧ ص١٨٩ ونيل الأوطار (ط دار الفكر) ج٢ ص٢٩٥ و (ط دار الجيل) ج٤ ص٣١١ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٤ ص١٥٨ وج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٤ ص٦٩٠ وج٨ ص٣١٣ وعمدة القاري ج١١ ص٤٥ والديباج على مسلم ج٣ ص٢١٦.

(٥) البحار ج٩٤ ص١٦٨ ج٢١ ص١٤٣ عن الكازروني، وتاريخ خليفة بن خياط ص٥٣ وتاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٣٤٣ والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٤ ص٨٨٩ و (دار المعرفة) =

وقيل: لاثنين وعشرين من شهر رمضان[١].

ورواية أخرى رددت: بين تسع عشرة، أو سبع عشرة[٢].

مدة الإقامة في مكة:

وأما بالنسبة لمدة بقائه «صلى الله عليه وآله» في مكة، فهو موضع خلاف أيضاً.

فقيل: عشر ليال[٣].

وقيل: خمس عشرة ليلة[٤].

= ج٤ ص٦٠ عن ابن إسحاق، ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص١٠٧ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣ والديباج على مسلم ج٣ ص٢١٦ ونيل الأوطار (ط دار الفكر) ج٢ ص٢٩٥ و (ط دار الجيل) ج٤ ص٣١١ و ٣١٢ وإعلام الورى ج١ ص٢٢٦ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٤ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث) ج٤ ص٣٢٧ و ٣٦٩ و (ط دار المعارف) ج٢ ص٢٨٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤٢ وتفسير أبي السعود ج٩ ص٢٠٨ وراجع: تفسير الثعالبي، وتفسير البغوي.

(١) فتح القدير ج٢ ص١٠ وتفسير القرطبي ج٦ ص٦٠ عن الضحاك.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ والبحار ج٢١ ص١١١عن كتاب العدد، وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٦ وتاريخ بغداد ج١٢ ص١٠٨ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٨ ص٢ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣ وشرح معاني الآثار ج٢ ص٦٨.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦١ وعن البخاري ج١ ص٣٦٧ ح١٠٣١ وج٤ ص١٠٦٤ ح١٠٤٦ وعن مسلم ج٢ ص١٤١ ح١٥ والمحلى ج٥ ص٢٧ والمجموع للنووي ج٤ ص٣٦٣ والسنن الكبرى للبيهقي ج٣ ص١٤٨.

(٤) تاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ عن البخاري، والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٧١ =

وقيل: سبع عشرة[1].

وقيل: ثماني عشرة[2].

= وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦١ وج٨ ص٢٣١ عن أبي داود، وعن ابن إسحاق، والنسائي. وراجع: مسالك الأفهام ج٧ ص٤٢٨ عن صحيح مسلم ج٢ ص١٠٢٤ ح٢٠ ونيل الأوطار ج٩ ص٢٦٩ وعن صحيح مسلم (ط دار الفكر) ج٤ ص١٣٢ وتحفة الأحوذي ج٣ ص٩٣ وج٤ ص٢٢٥ وتفسير كنز الدقائق ج٢ ص٤١٥ والبحار ج٢١ ص١٤٣ عن الكازروني، والطبقات الكبرى (ط دار صادر) ج٢ ص١٤٣ و ١٤٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٦٣ والسيرة النبوية ج٣ ص٦٠٠ والسنن الكبرى للبيهقي ج٣ ص١٥١ والمصنف لابن أبي شيبة ج٢ ص٣٤٠ وج٨ ص٥٤٠ وتاريخ خليفة بن خياط ص٥٢ وتفسير مجمع البيان ج٥ ص٣٤ وتفسير الميزان ج٩ ص٢٣٠.

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦١ وتاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ عن أبي داود، وراجع: الطبقات الكبرى (ط دار صادر) ج٢ ص١٤٣ وكنز العمال ج٨ ص٢٣٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦١ وج٨ ص٢٣١ عن أبي داود، وتاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ عن الترمذي، وراجع: الطبقات الكبرى (ط دار صادر) ج٢ ص١٤٣ و ١٤٤ والمصنف لابن أبي شيبة ج١ ص٤١٩ وكنز العمال ج٧ ص٥٤٥ وج٨ ص٢٣٧ وعن فتح الباري ج٢ ص٤٦٣ وتحفة الأحوذي ج٣ ص٩٣ وتلخيص الحبير ج٤ ص٤٤٩ وج٧ ص٣٥٥ وسبل السلام ج٢ ص٤٠ ونيل الأوطار ج٣ ص٢٥٦ ومسند أحمد ج٣ ص٤٣١ و ٤٣٢ وسنن أبي داود ج١ ص٢٧٥ والسنن الكبرى للبيهقي ج٣ ص١٥٧ والمصنف لابن أبي شيبة ج٢ ص٣٣٨ و ٣٤٠ و ٤١٩ ونصب الراية ج٢ ص٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٦٣ والسيرة النبوية ج٣ ص٥٩٩.

وقيل: تسع عشرة[1].

ولعل التصحيف ـ بين سبع وتسع ـ هو الذي جعلهما قولين.

وقيل: عشرين[2].

وقيل: بضع عشرة[3].

وهذا قد لا يكون قولاً جديداً، فإنه قد يكون موافقاً لأحد الأقوال السابقة.

وهكذا يقال بالنسبة لقولهم: إنه بقي بقية شهر رمضان، وستة أيام من شوال[4]، فإنه قد يكون متوافقاً مع أحد الأقوال المتقدمة.

خطأ في البخاري:

روي عن ابن عباس: أن فتح مكة كان «على رأس ثماني سنين ونصف من مقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» المدينة»[5].

---

(١) تاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦١ وج٨ ص٢٣٠ عن البخاري وأبي داود، والسيرة الحلبية ج٣ ص١٠٤ وتحفة الأحوذي ج٣ ص٩٣ ونصب الراية ج٢ ص٢٢١.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٨٧١ وتحفة الأحوذي ج٣ ص٩٤ ومنتخب مسند عبد بن حميد ص٢٠١ وتلخيص الحبير ج٤ ص٤٤٩.

(٣) تاريخ الخميس ج٢ ص٩٠ عن الإكليل، وراجع: عون المعبود ج١٤ ص٣٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) صحيح البخاري (ط دار إحياء التراث العربي) ج٨ ص٣١٣ و (ط دار الفكر) ج٥ ص٩٠ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٦ عنه، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ وعوالي اللآلي ج١ ص٢٠٣ ومسند أحمد (ط دار صادر) ج١ =

قال العسقلاني وغيره: «وهو وهم. والصواب: على رأس سبع سنين ونصف»[1].

وفي خلاصة السيرة: لسبع سنين وثمانية أشهر، وأحد عشر يوماً[2].

ونقول:

إن هذا التحديد ليس دقيقاً، ولأن الصحيح هو: أنه «صلى الله عليه وآله» قد قدم المدينة في الثامن من شهر ربيع الأول[3]، فيكون فتح مكة بعد مقدمه «صلى الله عليه وآله» المدينة بسبع سنين وستة أشهر وأحد عشر يوماً إذا كان فتحها في التاسع من شهر رمضان المبارك.. وتقل الأيام وتزيد بحسب الاختلاف في اليوم الذي دخل فيه «صلى الله عليه وآله» مكة،

= ص٣٣٤ و (ط دار إحياء التراث العربي) ص٥٤٩ والسنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص٢٤١ وعن فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٤ ص١٥٤ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٧٣ والدر المنثور (ط دار المعرفة) ج٦ ص٤٠٧ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٦٥٩ ونيل الأوطار (ط دار الفكر) ج٢ ص٢٨٨ و (ط دار الجليل) ج٤ ص٣٠٣ والطرائف لابن طاووس ص٥٢٨ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤١.

(١) فتح البارى (ط دار المعرفة) ج٨ ص٣ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٣١٣ وعمدة القاري ج١٧ ص٢٧٥ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٦ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٦.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٧.

(٣) راجع: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤١ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٦١ والدر المنثور (ط دار المعرفة) ج٤ ص١٠٨ و (ط دار الفكر) ج٥ ص٩٧ والعلل في معرفة الرجال لابن حنبل ج٣ ص٤٢٦.

حسبما أسلفناه في الصفحات السابقة.

شهر رمضان لماذا؟!:

١ ـ لقد كانت سياسة رسول الله «صلى الله عليه وآله» في كثير من حروبه مع أعدائه، وخصوصاً في غزوة الفتح، هي اعتماد عنصر المباغته. وقد توفر هذا العنصر أيضاً في اختيار شهر رمضان المبارك، وهو شهر الصوم والعبادة، للقيام بحملة واسعة وكبيرة، لأن ذلك كان من الأمور التي يقلّ احتمالها في حسابات الناس عادة، حيث يتوقعون إخلاد الناس للراحة في هذا الشهر، وعكوفهم على العبادة، وعزوفهم عن الأسفار، حتى لا يضطروا لقضاء الصوم في أيام فطر الناس.

وبذلك يصح اعتبار هذا التوقيت من العناصر التي ساعدت على مباغتة القوم، ومفاجأتهم كما هو ظاهر..

٢ ـ ثم إن لشهر رمضان أثره الإيحائي في نفوس أهل الإيمان، من حيث أنه يهيئهم للعيش في كنف الله، والشعور بحضوره، ويؤكد علاقتهم به تبارك وتعالى. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن حركتهم هذه إنما هي باتجاه بيت الله، وحرمه، وأقدس البقاع وأشرفها؟ ويقودهم ويرعاهم أفضل الأنبياء وأكرمهم وأشرفهم؟!.

ولعل أهم ما في الأمر: أن ذلك يحقق درجة كبيرة من التمازج العملي فيما بين المعاني والقيم الإيمانية، وبين حركة الإنسان في الحياة، ويعطي هذه الحركة معناها الروحي، ويتجلى ذلك فيها بعمق، وبوضوح، ويمنح الإنسان قدرة أكبر على الشعور بهذا التمازج، وتتفاعل مشاعره وأحاسيسه معه، وتحت وطأته.

الأحلاف في الجاهلية والإسلام:

قالوا: كانت خزاعة في الجاهلية أصابت رجلاً من بني الحضرمي، واسمه مالك بن عباد ـ وحلف الحضرمي يومئذٍ إلى الأسود بن رزن ـ وكان هذا الحضرمي قد خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله.

فمر رجل من خزاعة على بني الديل بعد ذلك فقتلوه، فوقعت الحرب بينهم، فمر بنو الأسود بن رزن، وهم: ذؤيب، وسلمى، وكلثوم على خزاعة، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم.

وكان قوم الأسود منخر بني كنانة يُودَونَ في الجاهلية ديتين لفضلهم في بني بكر، ونودى دية.

فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» فحُجز بالاسلام بينهم، وتشاغل الناس به، وهم على ما هم عليه من العداوة في أنفسهم.

فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله «صلى الله عليه وآله» وبين قريش، ووقع الشرط: «ومن أحب أن يدخل في عقد رسول الله «صلى الله عليه وآله» فليدخل، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش فليدخل»، دخلت خزاعة في عقد رسول الله «صلى الله عليه وآله».

حلف خزاعة:

وقالوا أيضاً: وكانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» بذلك عارفاً، ولقد جاءته خزاعة يومئذٍ

بكتاب عبد المطلب فقرأه عليه أُبي بن كعب وهو:

«باسمك اللهم. هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة، إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي، غائبهم مقر بما قاضى عليه شاهدهم، إن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده، وما لا ينسى أبداً، اليد واحدة، والنصر واحد ما أشرف ثبير، وثبت حراء مكانه، وما بل بحر صوفة. ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبد الدهر سرمداً».

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «ما أعرفني بخلقكم على ما أسلمتم عليه من الحلف! فكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة. ولا حلف في الإسلام»[1].

وفي الإمتاع: أن نسخة كتاب الحلف هي:

«باسمك اللهم. هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة، تحالفوا على التناصر والمواساة ما بلّ بحر صوفة، حلفاً جامعاً غير مفرق، الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث، ما أشرقت شمس على ثبير، وحنّ بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان، وعمر بمكة إنسان، حلف أبد، لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شدّاً، وظلام الليل مداً..

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٠ عن فتح الباري ج٧ ص٥٩٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٠ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨١ و ٧٨٢ وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ج٢ ص٣٤٥ ومكاتيب الرسول ج٣ ص١٣٠ و ٢٣٤ و ٢٣٥ .

وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون، متظاهرون متعاونون، فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب، في شرق أو غرب، أو حزن أو سهل. وجعلوا الله على ذلك كفيلاً، وكفى بالله جميلاً».

فجاؤوا بعهدهم هذا إلى النبي «صلى الله عليه وآله» في الحديبية، فقرأه له أُبي بن كعب، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ما أعرفني بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف(١).

سبب حلف خزاعة:

وذكروا عن سبب عقد هذا الحلف:

أنه لما مات المطلب بن عبد مناف، وثب أخوه نوفل على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب، واغتصبه إياها، فاضطرب عبد المطلب لذلك، واستنهض قومه، فلم ينهض معه أحد منهم، وقالوا له: لا ندخل بينك وبين عمك.

فكتب إلى أخواله بني النجار، فجاءه منهم سبعون راكباً، فأتوا نوفلاً، وقالوا له: ورب هذه البنية، لتردنّ على ابن أختنا ما أخذت، وإلا ملأنا منك السيف، فرده.

ثم حالف خزاعة بعد أن حالف نوفل بني أخيه عبد شمس(٢).

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص ٧٠ و ٧١.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٠ وراجع: تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٩ و١٠.

ونقول:

إن لنا مع النصوص المتقدمة وقفات عديدة، نقتصر منها على ما يلي:

حلف أهل الباطل:

قد اتضح مما تقدم: أن نوفلاً كان متعدياً على عبد المطلب غاصباً لحقه، وأن عبد المطلب حين لم ينهض معه أحد من قومه اضطر إلى الاستعانة بأخواله من بني النجار، ثم حالف خزاعة، ليمتنع بهم إن تعرض له احد بظلم، لكي يدفع عن نفسه، ويعيش مرهوب الجانب عزيزاً مكرماً..

ولكن نوفلاً الذي ظلم عبد المطلب، ولم يتراجع عن موقفه إلا تحت وطأة التهديد باستعمال السيف، قد حالف بني أخيه عبد شمس، ليتقوى بهم على مواصلة سيرته ونهجه، وهم لم يجدوا في التحالف معه على ذلك أي حرج أو مانع..

وشتان بين من يحالف جماعة ليتقوى بهم على إحقاق الحق، وبين من يحالف الآخرين ليتقوى بهم على إشاعة نهجه الإنحرافي والظالم..

لا حلف في الإسلام:

ومن خلال المعادلة المشار إليها آنفاً ندرك صحة ما يرمي إليه قوله «صلى الله عليه وآله»: «كل حلف في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة. ولا حلف في الإسلام».

فإن المقصود بالحلف الذي في الجاهلية، ويزيده الإسلام شدة، هو الحلف الهادف إلى نصرة الحق، والمتضمن للتعاون، والتناصر، والمواساة، ودفع الظلم.. فإن الإسلام يشدد على الاستمرار في هذا الاتجاه، ويؤكد على

الالتزام بمضمون كل حلف فيه هذه المزايا، ويدعو إلى دخول جميع الناس في هذا الالتزام..

ولكن الإسلام لا يرضى بنشوء حلف فيما بين المسلمين ضد أي فريق آخر منهم أنفسهم، لأن معنى هذا هو: إقرار الإسلام حالة الإنقسام فيما بين أهل الصف الواحد، وأتباع النهج والدين الواحد، في حين أن دعوة الإسلام تقوم على اعتبار المسلمين يداً واحدة على من سواهم(١)، ويريد لهم: أن يكونوا بمثابة أُسرة واحدة متكاملة العناصر، لهم قيِّم واحد، وهو النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام»، وقد روي عنه «صلى الله عليه وآله» قوله: أنا وعلي أبوا هذه الأمة(٢).

---

(١) راجع: كتاب الأم للشافعي ج٤ ص٢٣٩ و ٣٠٢ وج٧ ص٣٦٧ و ٣٧٠ ومختصر المزني ص٢٥٨ و ٢٧٢ والمجموع للنووي ج١٩ ص٣٦٤ و ٣٦٥ والمبسوط للسرخسي ج١٠ ص٢٥ ونيل الأوطار ج٨ ص١٨٠ والأمالي للشيخ الطوسي ص٢٦٣ والبحار ج٩٣ ص٨١ وج٩٧ ص٣٢ والغدير ج٨ ص١٧١ وميزان الحكمة ج٢ ص١٣٤٠ و ١٣٤١ وسنن ابن ماجة ج٢ ص٨٩٥ ومجمع الزوائد ج٦ ص٢٩٢ والمصنف للصنعاني ج١٠ ص٩٩ وصحيح ابن خزيمة ج٤ ص٢٦ وشرح معاني الآثار ج٣ ص١٩٣ والمعجم الأوسط ج٦ ص٣٠٥ والمعجم الكبير ج٢٠ ص٢٠٦ وكنز العمال ج١ ص٩٩ والسير الكبير للشيباني ج٢ ص٤٨٢.

(٢) راجع: معاني الأخبار ص٥٢ و ١١٨ وعيون أخبار الرضا ج٢ ص٨٥ و (ط أخرى) ج١ ص٩١ والبرهان (تفسير) ج١ ص٣٦٩ عن الفائق للزمخشري، وعن ابن شهرآشوب. والميزان (تفسير) ج٤ ص٣٥٧ عنه وعن العياشي. ومن لا يحضره الفقيه ج٤ ص٢٣٥ وعلل الشرائع ج١ ص١٢٧ والأمالي للصدوق =

وتتشارك سائر العناصر في بناء الحياة في أخوة مسؤولة، متعاونة، ومتكافلة،

= ص٦٥ و ٤١١ و ٧٥٥ وكمال الدين وتمام النعمة ص٢٦١ وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ص٣٢٢ وخاتمة المستدرك للنوري ج٥ ص١٤ والغارات للثقفي ج٢ ص٧١٧ و ٧٤٥ ومائة منقبة لمحمد بن أحمد القمي ص٤٦ و ٤٧ وكنز الفوائد ص١٨٦ والمناقب لابن شهرآشوب ج٢ ص٣٠٠ والعمدة لابن البطريق ص٣٤٥ وسعد السعود للسيد ابن طاووس ص٢٧٥ والصراط المستقيم ج١ ص٢٤٢ و ٢٤٣ والمحتضر لحسن بن سليمان الحلي ص٣٥ وكتاب الأربعين للشيرازي ص٤٧ والبحار ج١٦ ص٩٥ و ٣٦٤ وج٢٣ ص١٢٨ و ٢٥٩ وج٢٦ ص٢٦٤ و٣٤٢ وج٣٦ ص٦ و ٩ و ١١ و ١٤ و ٢٥٥ وج٣٨ ص٩٢ و ١٥٢ وج٣٩ ص٩٣ وج٤٠ ص٤٥ و ٥٣ وج٦٦ ص٣٤٣ وج٧١ ص١١٦ وج١٠٨ ص٣٢٠ و ٣٧٦ وج١٠٩ ص١٠ وج١١٠ ص٣٦ وكتاب الأربعين للماحوزي ص٢٣٨ وشرح الزيارة الجامعة للسيد عبد الله شبر ص٤٣ والمراجعات ص٢٨٦ ومستدرك سفينة البحار ج١ ص٤٠ و ٤١ وج٢ ص٣٩٣ وج٩ ص٢٦٤ وج١٠ ص٤٤٥ ونهج السعادة ج٧ ص١٥٦ و ١٥٨ والإمام علي «عليه السلام» لأحمد الرحماني ص٧٦ و ٧٨٧ ومسند الإمام الرضا «عليه السلام» ج١ ص٨٠ و ٢٢١ ودرر الأخبار ص٢٤٤ و ٢٧٢ وتفسير أبي حمزة الثمالي ص١٥٩ و٢٠٠ و ٤١٣ وتفسير الإمام العسكري «عليه السلام» ص٣٣٠ و ٣٣١ و ٦٤٥ والتفسير الصافي ج١ ص١٥٠ وج٤ ص ١٦٥ و١٦٦ وج٥ ص٥٢ والتفسير الأصفى ج٢ ص٩٨٤ وتفسير نور الثقلين ج٤ ص٢٣٧ و ٢٣٨ وتفسير كنز الدقائق ج١ ص٢٨٦ وج٤ ص٣٥٧ ومفردات غريب القرآن ص٧ وإختيار معرفة الرجال ج١ ص٢٣٣ وبشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري ص٩٧ و ٢٥٤ ونهج الإيمان لابن جبر ص٦٢٥ و ٦٢٩ وتأويل الآيات لشرف الدين الحسيني ج١ ص٧٤ و ١٢٨ وينابيع المودة ج١ ص٣٧٠.

ومنسجمة على قاعدة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[١]، تقوم على أساسين اثنين هما: الحق والمواساة، كما اتضح من مؤاخاته «صلى الله عليه وآله» بين المسلمين. وقد ذكرنا ذلك في جزء سابق من هذا الكتاب.

مرتكزات حلف عبد المطلب وخزاعة:

وإذا تأملنا في مضمون حلف عبد المطلب مع خزاعة، فإننا نجده قائماً على نفس المرتكزات التي قامت عليها المؤاخاة فيما بين المسلمين حسبما قدمناه في هذا الكتاب..

فإن كانت المؤاخاة قد قامت على دعامتين هما: الحق والمواساة. فإن حلف عبد المطلب وخزاعة أيضاً قد قام على نفس هاتين الدعامتين، لأنه جاء لحماية الحق، وتأكيد الالتزام به، والانتصار له، والتناصر فيه، والتعاون على حفظه، والالتزام بالمواساة فيه.

كما أنه صرح أو أشار إلى حيثيات تؤكد على هذا المسار، وتبين معالمه، وتوضح آفاقه.

فهو ـ كما صرحت الروايات ـ:

١ ـ حلف جامع غير مفرق.

وهو يقوم على:

٢ ـ التكافؤ فيما بين أفراده وشرائحه، فالكل متكافئون..

٣ ـ والتناصر.. إلى حد يكون فيه النصر واحداً، لا تمييز فيه بين كبير وصغير.

---

(١) الآية ١٠ من سورة الحجرات.

٤ ـ والتعاون حتى إن اليد واحدة.

٥ ـ والمواساة.

٦ ـ وأساس هذا الحلف عهود الله وعقوده..

٧ ـ وهو يخضع لرعاية الله تبارك وتعالى، فهو سبحانه الكفيل والضامن وغير ذلك من لمحات وإشارات يجدها فيه المتأمل الخبير، والناقد البصير.

قريش تنقض العهد:

وقد نقضت قريش عهدها الذي عقدته مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الحديبية.

وقالوا: إن سبب ذلك هو: أنه لما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية، كلمت بنو نفاثة وبنو بكر أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على عدوهم من خزاعة، وذكروهم القتلى الذين أصابت خزاعة منهم.

وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأر أولئك النفر الذين أصابوا منهم في بني الأسود بن رزن، وناشدوهم بأرحامهم، وأخبروهم بدخولهم في عقدهم، وعدم الإسلام، ودخول خزاعة في عقد محمد وعهده.

فوجدوا القوم إلى ذلك سراعاً، إلا أن أبا سفيان بن حرب لم يشاور في ذلك ولم يعلم[1].

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٣ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٥ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٥٣ والبحار ج٢١ ص١٠٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٠ و ٢٧١ .

ويقال: إنهم ذاكروه فأبى ذلك[1].

فأعانوا بالسلاح والكراع والرجال، ودسوا ذلك سرًّا لئلا تحذر خزاعة، وخزاعة آمنون غارون لحال الموادعة، ولما حجز الإسلام بينهم.

ثم اتعدت قريش وبنو بكر وبنو نفاثة أن يأتوا إلى (الوتير)، وهو موضع أسفل مكة، وهو منازل خزاعة، فوافوا للميعاد فيهم رجال من قريش، من كبارهم، متنكرون منتقبون؛ منهم: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وحويطب بن عبد العزى، وشيبة بن عثمان ـ وأسلموا بعد ذلك ـ ومكرز بن حفص، وأجلبوا معهم أرقاءهم.

ورأس بني بكر نوفل بن معاوية الديلي ـ وأسلم بعد ذلك ـ.

فبيتوا خزاعة ليلاً، وهم غارون آمنون ـ وعامتهم صبيان، ونساء، وضعفاء الرجال ـ فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا إلى أنصاب الحرم.

فقال أصحاب نوفل بن معاوية له: يا نوفل، إلهك، إلهك. قد دخلت الحرم!

فقال كلمة عظيمة: لا إله لي اليوم، يا بني بكر، لعمري إنكم لتسرقون الحاج في الحرم ، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم، ولا يتأخر أحد منكم بعد يومه عن ثاره؟!

فلما انتهت خزاعة إلى الحرم دخلت دار بديل بن ورقاء، ودار مولى لهم يقال له: رافع الخزاعيين، وانتهوا بهم في عماية الصبح.

ودخلت رؤساء قريش منازلهم، وهو يظنون أنهم لا يعرفون، وأنه لا

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٧.

يبلغ هذا رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وأصبحت خزاعة مقتَّلين على باب بديل ورافع.

وقال سهيل بن عمرو لنوفل بن الحرث: قد رأيت الذي صنعنا بك وبأصحابك، ومن قتلت من القوم، وأنت قد حصدتهم تريد قتل من بقي، وهذا ما لا نطاوعك عليه، فاتركهم.

فتركهم، فخرجوا.

وندمت قريش، وندموا على ما صنعوا، وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وجاء الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان بن أمية، وإلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلاموهم بما صنعوا من عونهم بني بكر على خزاعة، وقالوا: إن بينكم وبين محمد مدة، وهذا نقض لها[1].

وقيل: إنهم قتلوا منهم عشرين رجلاً[2].

وقيل: إن سبب نقض العهد ليس هو سعي بني نفاثة لأخذ ثأرهم القديم من خزاعة، بل السبب هو: أن شخصاً من بني بكر، وهو أنس بن زنيم الديلي، هجا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وصار يتغنى به، فسمعه غلام من

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠١ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ والبحار ج٢١ ص١٠٠ و ١٠١ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٤ و ٥٥٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٢ و ٧٨٣ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٧ وزاد المسير ج٣ ص٢٧٢ والطبقات الكبرى ج٢ ص١٣٤.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٨ وزاد المسير ج٣ ص٢٧٢ والطبقات الكبرى ج٢ ص١٣٤.

خزاعة، فضربه فشجه، فثار الشر بين الحيين، مما كان بينهم من العداوة.

فطلب بنو نفاثة من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة، فأمدوهم بذلك، فبيتوا خزاعة وهم غارون آمنون.. وقاتل معهم جمع من قريش الخ..»[1].

واعتزلت بنو مدلج، فلم ينقضوا العهد[2].

كما أن أبا سفيان لم يشاوَر في ذلك ولم يعلَم[3].

وقال الطبرسي: «لما مضت سنتان من القضية (يعني عمرة القضاء) قعد رجل من كنانة يروي هجاء رسول الله، فقال له رجل من خزاعة: لا تذكر هذا.

قال: وما أنت وذاك؟!

فقال: لإن أعدت لأكسرن فاك!

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ عن الإمتاع، والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٢ و ٧٨٣ وراجع: فتوح البلدان ج١ ص٤١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٧ والجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٨٧.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ عن الإمتاع، والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٢ و ٧٨٣ وراجع: تفسير الميزان ج٥ ص٣٧ وتفسير العياشي ج١ ص٢٦٣ والكافي ج٨ ص٣٢٧ وشرح أصول الكافي ج١٢ ص٤٥٥ والبحار ج١٩ ص١٧٢ والتفسير الصافي ج١ ص٤٨٠ والتفسير الأصفى ج١ ص٢٢٨ وتفسير نور الثقلين ج١ ص٥٢٩ وتفسير كنز الدقائق ج٢ ص٥٦٤.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٣ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٥ وتاريخ مدينة دمشق (ط دار الفكر) ج٢٣ ص٤٥٣ و (ط دار الكتب العلمية) ج٢٥ ص٢٨٤ وكنز العمال ج١٠ ص٥١١ والبحار ج٢١ ص١٠٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٠ و ٢٧١ وجامع الأحاديث والمراسيل ج٢٠ ص١٧١.

فأعادها، فرفع الخزاعي يده، فضرب بها فاه.

فاستنصر الكناني قومه، والخزاعي قومه. وكانت كنانة أكثر، فضربوهم حتى أدخلوهم الحرم، وقتلوا منهم. وأعانتهم قريش بالكراع والسلاح.

فركب عمرو بن سالم إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فخبره الخبر»[1].

وستأتي قصة عمرو بن سالم.

ولكننا قبل ذلك نشير: إلى بعض الأمور التي ترتبط بما تقدم، فنقول:

سبب نقض العهد واحد:

قد يبدو للوهلة الأولى من ملاحظة النصوص المتقدمة أن ثمة اختلافاً حول سبب إقدام قريش على نقض العهد.

ولكن الحقيقة هي: أن مجموع تلك النصوص يشير إلى أمر واحد مترابط ومنسجم، وهو: أن أحد بني كنانة، ولعله من بني نفاثة، صار يروي هجاء رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأنذره الخزاعي، فلم يرتدع، فضربه الخزاعي، فاستنصر الكناني قومه، فطلبوا النصر من قريش، فنصروهم وجرت الأمور بعد ذلك وفق ما فصّلته الرواية الأولى.

إستغلال الضغائن:

وقد لوحظ: أن بني نفاثة حين انتصروا لصاحبهم، إنما حركهم إلى ذلك أحقادهم على خزاعة، وتربصهم بها، لِتِرَاتٍ لهم عندها في حوادث

---

(١) البحار ج٢١ ص١٢٤ و ١٢٥ عن إعلام الورى ج١ ص٢١٥ .

جرت قبل البعثة النبوية الشريفة حسبما تقدم بيانه..

ولكنهم حين يطلبون المساعدة من قريش تراهم يلجأون إلى تذكيرها بما تعتبره ميزة وفضلاً، وهو: أن بني نفاثة لم يسلموا، وأنهم دخلوا في عقد قريش ضد رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

ثم يحتجون لهم على استحقاق خزاعة للعقوبة: بأنها قد دخلت في عقد محمد وعهده.. فكان هذا وذاك من موجبات مسارعة قريش للمشاركة في توجيه تلك الضربة القاسية لخزاعة..

فحقد قريش على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعلى الإسلام وأهله قد دعاها إلى المشاركة في جريمة قتل الصبيان، والنساء، والضعفاء.. ونقض العهد والغدر بالآمنين، واجتياحهم، وأخذهم على حين غرة.

واللافت هنا: أن الذين يستجيبون لهذه المحركات، لا لنداء الضمير والوجدان والعقل والشرف والشهامة والرجولة هم ـ على حد تعبير الرواية ـ «رجال من قريش، من كبارهم»!!..

مع أن هؤلاء هم الذين يفترض فيهم أن يكونوا أبعد الناس عن التصرفات الرعناء، وعن الانقياد للنزوات الطائشة. ويتوقع منهم أن يَزِنوا الأمور بموازين فيها شيء من بعد النظر والاتزان، وحساب العواقب.

ولكن الأمور قد جرت في غير هذا الاتجاه، كما رأينا..

الغدر بالضعفاء، وبالصبيان والنساء:

وإن الغدر قبيح من كل أحد، لأنه ينافي الرجولة، وميثاق الشرف، والشهامة، وأعظم منه قبحاً: أن يغدر القوي بالضعيف، فكيف إذا كان هذا

الضعيف هو الصبيان، والنساء، والضعفاء من الرجال؟!

وكيف إذا كان الغادر هم كبار القوم، والمدَّعون للشرف، بل لمقام الأشرفية والرئاسة فيهم؟!

وكيف إذا كان هؤلاء الكبار المشاركون هم أنفسهم الذين أعطوا العهود والمواثيق وتعهدوا بالوفاء؟!.

بل إن بعضهم كان هو المفاوض في تلك العهود، والمتولي لإبرامها، والمشرف على نصوصها، والموقع عليها وأعني به سهيل بن عمرو!!

إنه غدر بالآمنين الذين يستندون في أمنهم إلى عهد وعقد وميثاق، معقود مع نفس هؤلاء الغادرين بأشخاصهم وأعيانهم، فليس هو أمن الغفلة والتقصير في الاحتياط، ولم يكن الغادر ممن يحسن الاحتياط معه ومنه..

القسوة.. لماذا ؟!:

ولا نجد تفسيراً معقولاً لهذه القسوة من قريش، ومن كبارها على النساء والصبيان، وضعفاء الرجال، فهم يبيحون لأنفسهم قتلهم، لا على سبيل الصدفة والاتفاق، بل عن سابق تخطيط وتدبير، وسعي للإستفراد بهم واستئصالهم قبل أن يتنبه الآخرون لما يحدث..

بل نحن نستغرب: أن يقدم حتى بنو نفاثه على أمر كهذا. وهم الذين يدَّعون أن قتل النساء كان عيباً في الجاهلية.. فكيف بالضعفاء، والصبيان؟!. فضلاً عن أن يمعنوا في ملاحقتهم حتى ألجأوهم إلى الحرم!! ثم لاحقوهم حتى في الحرم نفسه، إلى دار بديل بن ورقاء، ورافع الخزاعي!!

حرمة الحرم لدى قريش:

وإذا كانت قريش ترى: أن عزها ومجدها وفخرها هو في رعايتها لحرمة الكعبة والحرم، فما بال الكبار فيها قد رضوا بهتك حرمة الحرم، وشاركوا هم في ذلك، ولم نسمع من أحد منهم كلمة ملامة لأحد من أولئك المعتدين على الأرواح، وعلى قدس المقدسات؟! حتى بعد أن حصل ما حصل..

وكيف يمكننا تفسير موقف قريش من قضية القتال في يوم يشك في أن يكون هو أول الشهر الحرام وهو شهر رجب، أو آخر الشهر الذي قبله، حيث شنعت على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأثارت عاصفة من الشكوى والتظلم من أجل ذلك، رغم أن هذا القتال قد كان مع الظالمين والمعتدين، والذين يصدون عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ.

قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

ثم إنها وعلى أعلى المستويات فيها يعتدي كبارها على قوم بينها وبينهم عهد وميثاق. فيغدرون بهم، ويختارون قتل خصوص النساء والصبيان والضعفاء منهم، حتى في حرم الله تبارك وتعالى..

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

بل إن هذا التعدي لا ينحصر بهتك حرمة الحرم، بل يتجاوزه إلى التصريح بالإلحاد، وإنكار أصل الألوهية، وذلك حين يقول أصحاب نوفل: إلهك إلهك!! قد دخلت الحرم.

فيقول: لا إله لي اليوم.

هل ندموا حقاً؟!

وبعد.. فإننا لم نستطع فهم ما يرمي إليه قولهم: ندمت قريش وندموا على ما صنعوا، وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

وذلك لأن قرائن الأحوال تشهد بعدم صحة هذا الكلام:

أولاً: لأن رجال قريش قد تنكروا وتنقبوا حين جاؤوا لمساعدة بني بكر، مع أن بني بكر كانوا حلفاءهم، وقد دخلوا في عقدهم، فعليهم نصرهم علناً، ولا ضرورة للتنكر والتنقب إن لم يكونوا يريدون تعمية الأمور، لكي لا يظهر للناس أنهم قد نقضوا عهدهم مع النبي «صلى الله عليه وآله»..

ثانياً: إن بني نفاثة حين كلموا قريشاً في نصرهم على خزاعة قد ذكروا لها أنهم داخلون في حلفهم ضدّ محمد «صلى الله عليه وآله»، وخزاعة داخلة مع النبي في الحلف والعقد ضدهم.

فهم إذاً ملتفتون إلى هذا العقد والعهد، مدركون أن المهاجم متحالف مع قريش، وأن المقصود بالهجوم متحالف مع المسلمين في عهد الحديبية.

فما معنى ادِّعاء الروايات ورواتها أن قريشاً بعد أن ارتكبت جريمتها

في حق خزاعة «عرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله «صلى الله عليه وآله»..»؟.

ثالثاً: إن هناك روايات تقول: إنهم كلموا أبا سفيان، فأبى ذلك[1].

فلماذا لا يرضى أبو سفيان بنصر حلفائه؟! وهو الحاقد على خزاعة بسبب ميلها إلى رسول الله وتحالفها معه «صلى الله عليه وآله».

ألا يدل امتناعه هذا على أنه يرى في ذلك ضرراً بالغاً، ودخولاً في أمر خطير، من حيث أنه نقض للعقد والعهد القائم بينهم وبين المسلمين؟!

رابعاً: ما معنى قول هؤلاء الرواة أنفسهم: إنه بعد انتهاء الهجوم وحصول المجزرة «دخلت رؤساء قريش منازلهم، وهم يظنون: أنهم لا يُعْرَفون، وأنه لا يبلغ هذا رسول الله «صلى الله عليه وآله»..»؟!

أليس ظنهم هذا يؤدي بهم إلى إدراك أن بلوغ هذا الأمر لرسول الله «صلى الله عليه وآله» سوف يؤدي إلى نشوء مشكلة خطيرة لهم معه؟!

ولا مبرر لاعتبار ذلك مشكلة إلا لأنهم يدركون أن ما فعلوه له مساس مباشر بالعقود التي تحكم فيما بينهم وبينه «صلى الله عليه وآله»..

بنو نفاثة يسرقون الحاج:

واللافت هنا: هذا المنطق الخسيس الذي اعتمده نوفل بن معاوية لتحريض بني بكر على الإمعان في قتل النساء والصبيان والضعفاء، وتوقعه ذلك منهم حتى في داخل الحرم.. فإنه قال لهم: «إنكم لتسرقون الحاج في

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٧ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠١.

الحرم، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم»؟!

فإذا كان هؤلاء يسرقون الحجاج وهم في حرم الله تبارك وتعالى، فهل يتوقع منهم احترام المقدسات، والوقوف عند حدود الله سبحانه، والالتزام بأمره ونهيه؟!

وإذا كان هذا هو منطق رئيس بني بكر، وتلك هي أوامره لمن هم تحت إمرته، وهذه هي توقعاته منهم!!

وإذا كان يدفعهم بهذا المنطق إلى متابعة جرائمهم لاستئصال الأبرياء، من النساء والصبيان والضعفاء!!

وإذا كان يصور لهم: أن هؤلاء الصبيان الذين قد لا يعرفون شيئاً مما يدور حولهم، بل إنهم غير قادرين على إدراك معنى الشر، بالإضافة إلى النساء، والضعفاء ـ يصورهم على أنهم هم أعداؤهم الذين يريد منهم أن يعملوا فيهم سيوفهم إلى حد الاستئصال.

وإذا كان نفس هذا الرئيس ينكر وجود الإله لمجرد تبرير اندفاعه للتنفيس عن حقده على هذا النوع من الناس.

وإذا كان الرئيس هو الذي يفترض فيه أن يكون الأكثر وعياً وإحساساً بالمسؤولية..

فما الذي نتوقعه من همج رعاع، وجهلة أغبياء، وأشرار أشقياء، يمتهنون سرقة الحاج في حرم الله تعالى، وعند بيته المحرم؟!

وهذا يدلنا على مدى معاناة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، الذي جاءهم من عند الله بأصفى وأفضل التعاليم، التي هي محض الخير، وكل العطاء، وحقيقة البر والرحمة، والنور الأنور، والطهر الأصفى، والنبل

والوفاء، والتضحية والفداء، وسائر المعاني الإنسانية في أرقى الدرجات، وأفضل الحالات.

بديل بن ورقاء وما جرى:

وقد قرأنا في النصوص المتقدمة: أن خزاعة أصبحت مقتَّلة على باب بديل بن ورقاء ورافع الخزاعيين..

وسنقرأ فيما يلي: أن بديلاً قد عاش هذه المحنة، وتجرع غصتها، ولمس بشاعتها في بيته وعلى باب داره، أكثر من أي إنسان آخر..

فما بالنا نرى هذا الرجل بالذات رفيقاً لأبي سفيان حين خرج من مكة يترقب الأخبار، ليعرف حقيقة تحركات رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيما يرتبط بهذا الحدث؟ فلماذا لا يكون لبديل موقف سلبي وغاضب من قريش ورموزها؟

ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال بما يلي:

أولاً: إن أبا سفيان ـ كما تدَّعيه بعض الروايات ـ أبى أن يستجيب لطلب بني بكر فيما يرتبط في توجيه الضربة لخزاعة[1].

أو أنه لم يشاور في هذا الأمر، ولم يعلم، ولكنه حين علم لم يرض، ولم يغضب كما تقدم وسيأتي[2].

---

(١) تقدمت مصادر ذلك في النص المتقدم.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٣ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٥ وتاريخ مدينة دمشق (ط دار الفكر) ج٢٣ ص٤٥٣ و (ط دار الكتب العلمية) ج٢٥ ص٢٨٤ وكنز العمال ج١٠ ص٥١١ والبحار ج٢١ ص١٠٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٠ و ٢٧١ .

أو أنه كان في الشام ولم يكن في مكة حين الإعتداء على الخزاعيين[1].

وهذا معناه: أن لا يجد بديل بن ورقاء أي مانع من الإبقاء على علاقته به، ويكون همزة وصل، لو حصل في المستقبل ما يحتاج إلى تفاوض، أو تدخل لمنع حدوث الأسوأ..

ثانياً: إنه إذا كانت خزاعة تعيش في دائرة الخطر، ولم يكن يمكنها الحصول على الأمن المطلوب إلا عن طريق المداراة والمصانعة، بانتظار الوقت الذي تتمكن فيه من تجاوز المحنة، أو كان هذا الأمر يختص ببديل بن ورقاء فقط، فإن هذه المداراة تصبح مقبولة إذا بقيت في حدود المعقول، وليس في ذلك أية غضاضة أو وهن على بديل ولا على خزاعة، وذلك ظاهر لا يخفى.

بين الثأر.. والقصاص:

وقد تقدم: أن نوفل بن معاوية صار يقرِّع بني بكر ويقول لهم: «تسرقون الحاج في الحرم، ولا تدركون ثاركم»!!

ومعلوم: أن مفهوم الثأر يعتمد على تبلور حالة من الحنق الشخصي في اندفاع ساحق ومدمر، مع إغفال أي حساب آخر سوى إرضاء نزعة الحقد الأسود بهذا البطش الأرعن وغير المسؤول، الذي لا يبالي بالضحية التي تكون في موقع البراءة والطهر في أكثر الأحيان..

وخير شاهد على هذه الرعونة هو: انتقام بني بكر حتى من الصبيان والنساء، والضعفاء، وذلك ثأراً لأناس قتلوا قبل عشرات السنين. أي قبل

---

(١) راجع: البحار ج٢١ ص١٢٦ عن مناقب آل أبي طالب ج١ ص١٧٧ وعن إعلام الورى ج١ ص٢١٧ والأنوار العلوية للنقدي ص١٩٩.

ولادة كثير من هؤلاء الضحايا بسنوات كثيرة بلا ريب..

فالثأر يهدف إلى التدمير والإبادة والاستئصال حتى للبريء..

وقد قال سهيل بن عمرو لنوفل بن الحرث بن معاوية: «وأنت قد حصدتهم، تريد قتل من بقي»؟

وإذا كان الحاكم هو منطق الأحقاد والضغائن، لا الأخلاق والقيم والمبادئ والشرع، أو العقل، فلا بد من أن ينتج هذا السلوك حرصاً على مقابلة الإساءة بالإساءة، والتدمير والاستئصال حتى للأبرياء بمثله، ويحول الوحدة إلى تشتت وتفرق، والجماعة والعصبة إلى تمزق، ويتحول اهتمام المجتمع من العمل على لم الشعث، والتعاون على البر والتقوى، ليصبح تعاوناً على الإثم والعدوان وعلى معصية الله ورسوله.

وهذا هو الفرق بين الثأر والقصاص.

فإن القصاص إجراء تربوي إصلاحي، يهدف إلى إرساء قواعد القسط والعدل، وإلى جعل الحياة أكثر صفاء ونقاء، بل أكثر حيوية وقوة واندفاعاً، على قاعدة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ﴾[1].

وفي القصاص حفاظ على النفوس، ومحاصرة للجريمة، وخنق لها في مهدها، وقطع دابرها، وإعفاء آثارها..

والقصاص معناه: حصر الجريمة في مصدرها وهو المجرم نفسه، ثم استئصاله واستئصالها به، وتطهير المحيط منه ومنها.

والقصاص يرسي قواعد الأمن المجتمعي، ويبعد الناس عن العيش في

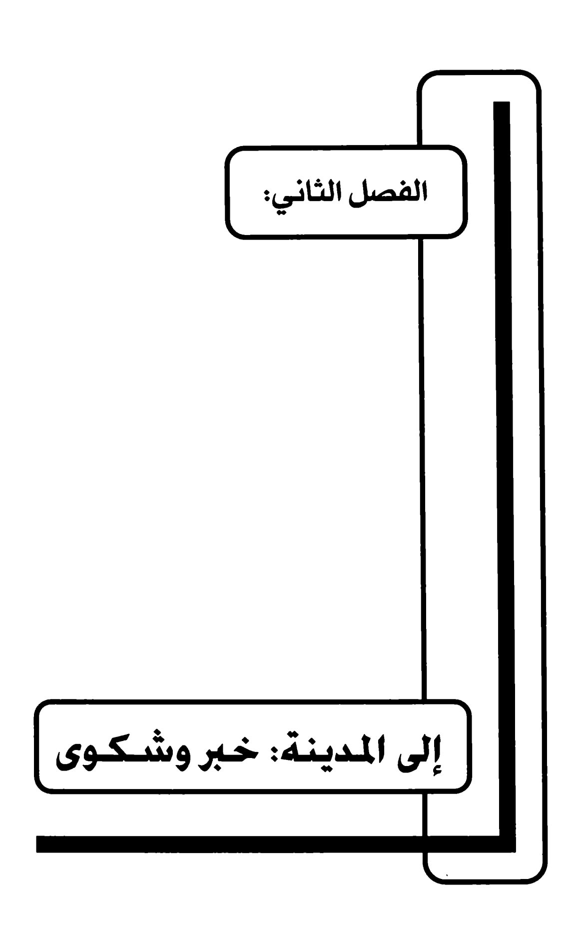
---

(١) الآية ١٧٩ من سورة البقرة.

أجواء التآمر، والكيد والتربص شراً بالآخرين وينمي حالة الثقة والتعاون فيما بين الناس.

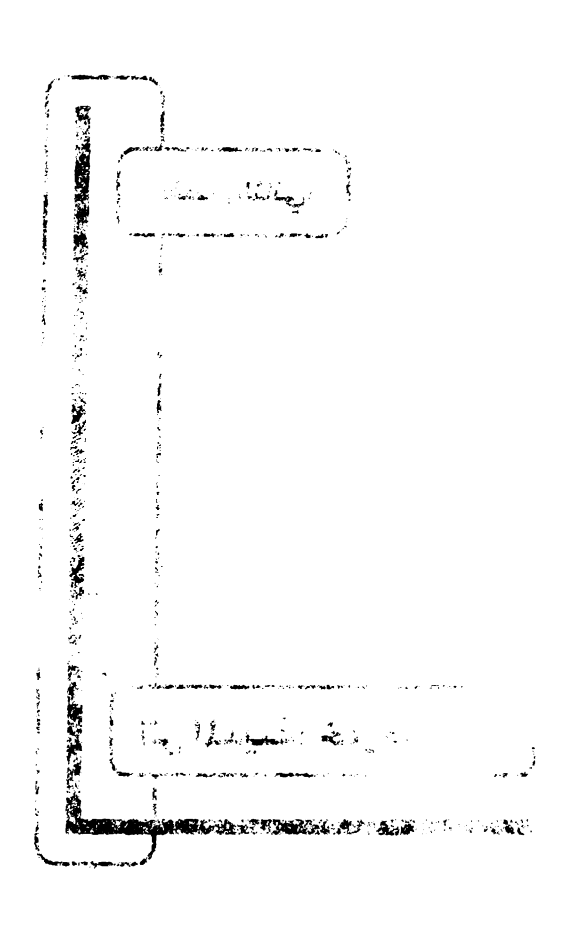
والقصاص يهيئ الأجواء لإشاعة مفهوم الكرامة للإنسان، ويؤكد قيمته، ويحدُّ من الطموح للتعدي عليه وهتك حرمته..

وبالقصاص يعطي العدل قيمته ومعناه، وينصب أمام أعين الناس مثلاً وقيماً ومعاني إنسانية لتكون موضع طموحهم، وغاية ومنتهى آمالهم.



الفصل الثاني:

إلى المدينة: خبر وشكوى



النبي ﷺ يخبر بالغيب عن نقض العهد:

روي: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال لعائشة صبيحة كانت وقعة بني نفاثة وخزاعة بالوتير: «يا عائشة، لقد حدث في خزاعة أمر».

(**أو قال:** لقد حرت في أمر خزاعة)[1].

فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم، وقد أفناهم السيف؟

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى».

فقالت: يا رسول الله، خير؟

قال: «خير»[2].

وعن ميمونة بنت الحارث: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بات عندها ليلة، فقام ليتوضأ إلى الصلاة، فسمعته يقول في متوضئه: «لبيك، لبيك، لبيك ـ ثلاثاً ـ نصرت، نصرت، نصرت ـ ثلاثاً ـ».

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠١ و ٢٠٢ والمغازي للواقدي ج٢ ص٢٨٨ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦١.

قالت: فلما خرج قلت: يا رسول الله، سمعتك تقول في متوضئك: «لبيك، لبيك ـ ثلاثاً ـ نصرت، نصرت ـ ثلاثاً» كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟

قال: «هذا راجز بني كعب يستصرخني، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بكر بن وائل».

قالت ميمونة: فأقمنا ثلاثاً ثم صلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الصبح بالناس، فسمعت الراجز ينشد:

يا رب إني ناشد محمدا　　　حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فذكرت الرجز الآتي(1).

لماذا عائشة دون سواها؟!:

إننا لا نريد أن نثير أي سؤال ذا طابع تشاؤمي حول سبب مبادرة النبي «صلى الله عليه وآله» إلى إخبار عائشة دون سواها بهذا الأمر الغيبي الخطير، الذي سوف يظهر صدقه، وتتجلى دلائله وبراهينه في وقت قصير..

وقد كان بإمكانه «صلى الله عليه وآله» أن يذكر هذا الغيب في ملأ من الناس، ليصبح أكثر شيوعاً، وليسهم ـ من ثم ـ في تثبيت إيمان الناس،

---

(1) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٢ عن الطبراني في المعجم الكبير، وفي المعجم الصغير، ومجمع الزوائد ج٦ ص١٦٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧١ و ٧٢ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ وراجع: فتح الباري (ط دار المعرفة) ج٧ ص٤٠٠ والمعجم الصغير ج٢ ص٧٣ والمعجم الكبير ج٢٣ ص٤٣٤ ودلائل النبوة للأصبهاني ص٧٣ والإصابة ج٤ ص٥٢٢.

والربط على قلوبهم..

وإنما نريد هنا أن نشير فقط: إلى أن تخصيص عائشة بهذا الخبر الغيبي الخطير، من شأنه أن يجعلها أكثر حرصاً على رواية هذا الحدث، وإشاعته، ما دام أنها ترى فيه تأكيداً على دورها المميز، وحضورها الفاعل.

ثم هو يوحي بأنها كانت بحاجة لمزيد من الدلائل والشواهد على رعاية الغيب لمسيرة الرسالة والرسول، ليحيا من حيي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة..

وغني عن القول: أن هذا التبرير أو ذاك يبقى في دائرة التظني أو الاحتمال، ولا يجد ما يلغيه أو ما يؤكده بصورة قاطعة ويقينية، فما علينا إذا أوكلنا أمر ذلك إلى المزيد من التأمل والتدبر أي جناح..

حرت في أمر خزاعة:

وأما بالنسبة لما زعمه الواقدي: من أنه «صلى الله عليه وآله» قال: «لقد حرت في أمر خزاعة»[1]، فهو مرفوض جملة وتفصيلاً لأسباب عديدة، نذكر منها:

أولاً: إن النبي «صلى الله عليه وآله» لا يتحير في هذا الأمر ولا في سواه، فإن التكليف الإلهي واضح لديه، وهو واضح هنا أيضاً لكل أحد، إذ لا بد له من التعاطي مع ناكثي العهود بما يوجبه الشرع والدين.. وهو «صلى الله عليه وآله» مسدد بالوحي، عارف بأمر الله، وهو عقل الكل، وإمام الكل، ومدبر الكل، فلم يكن ليخفى عليه وجه الصلاح، ولا حكم

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٨.

الله في هذا الأمر.

ثانياً: إذا كان لا بد من الحيرة، فلا بد من أن تكون حيرة في أمر قريش، وبكر بن وائل، لا في أمر خزاعة. فإن خزاعة قد نُكبت وظلمت، فلا بد من التفكير في طريقة كف الظالم عن ظلمه، وردع الباغي عن بغيه بعد أن لم ينتفعوا بالآيات والنذر، ولم يستجيبوا لنداء العقل، ولم يلتزموا بما يوجبه عليهم معنى الرجولة والشهامة، وغير ذلك من معاني كانوا يزعمون أن لها دوراً وموقعاً في حياتهم، وفي قراراتهم، وحركتهم، وإقدامهم، وإحجامهم.

سلب الألطاف الإلهية:

إن الشرك والكفر من أعظم الذنوب التي لا يبقى معها أيّ أهلية للطف الإلهي، ولكن عدم الأهلية هذا لا يفرض حجب الألطاف بصورة قاطعة ونهائية.. فقد تكون هناك عوامل أخرى توجب التفضل الإلهي على فاقد الأهلية، بسبب ابتلائه بالشرك.. فمن كان سخياً، أو حليماً، أو باراً بوالديه، أو بغيرهما من ذوي رحمه، ربما يتفضل الله تعالى عليه ببعض العنايات والتوفيقات، حفظاً لتلك الخصال، أو مكافأة على بعض الأفعال، أو لطفاً بغيره من أهل الحاجة والاستحقاق..

وقد ورد: أن بعض خصال الخير التي تكون في غير المؤمنين إنما جعلها الله فيهم لأجل حفظ أهل الإيمان.

فقد روي عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: إن الله تبارك وتعالى أعار أعداءه أخلاقاً من أخلاق أوليائه، ليعيش أولياؤه مع أعدائه في دولاتهم.

وفي رواية أخرى: ولولا ذلك لما تركوا ولياً لله إلا قتلوه[1].

وقد أتي «صلى الله عليه وآله» بأسارى، فأمر بقتلهم باستثناء رجل منهم، فقال الرجل: بأبي أنت وأمي يا محمد، كيف أطلقت عني من بينهم؟!

فقال: أخبرني جبرئيل عن الله عز وجل أن فيك خمس خصال يحبها الله ورسوله: الغيرة الشديدة على حرمك، والسخاء، وحسن الخلق، وصدق اللسان، والشجاعة.

فلما سمعها الرجل أسلم الخ..[2].

وهناك قضية أخرى تدخل في هذا السياق، وقد تكون نفس هذه القضية، وقد تكون غيرها فراجعها[3].

وفي المقابل، ربما يكون لبعض الموبقات، التي يرتكبها المشرك أو

---

(١) راجع: البحار ج٦٨ ص٣٧٨ عن الكافي ج٢ ص١٠١ وشرح أصول الكافي ج٢ ص٢٩٢ ومجمع البحرين ج٣ ص٢٧٧ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٩١.

(٢) البحار ج٦٦ ص٣٨٣ وج ٦٨ ص٣٨٤ و ٣٨٥ عن الأمالي للصدوق ص١٦٣ و (ط مؤسسة البعثة) ص٣٤٥ والخصال للصدوق ص٢٨٢ وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ص٣٧٧ و ٣٨٤ والوسائل (ط مؤسسة آل البيت) ج٢٠ ص١٥٥ و (ط دار الإسلامية) ج١٤ ص١٠٩ ومشكاة الأنوار لأبي الفضل علي الطبرسي ص٤١٧.

(٣) البحار ج٦٨ ص٣٩٠ وج٤١ ص٧٣ و ٧٥ والأمالي للصدوق ص٩٣ و ٩٤ و (ط مؤسسة البعثة) ١٦٧ و ١٦٨ ومستدرك الوسائل ج٨ ص٤٤٢ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٧٦ والخصال ج١ ص٩٦ ومشكاة الأنوار لأبي الفضل علي الطبرسي ص٤٠٩ والجواهر السنية للحر العاملي ص١٣٥ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص٤١٩.

الكافر، أثر في تأكيد حجب جميع أشكال ودرجات التوفيق، وإيكال هذا المجرم إلى نفسه بصورة تامة ونهائية، لينتهي به الأمر إلى أن يؤثر ذلك حتى على مستوى إدراكه، أو على سلامة هذا الإدراك، أو يوقع هذا المجرم في بحر من الغفلة، والجهل، والجهالة التي قد تصل إلى حد الغواية التامة عن طريق الرشد، في أبسط مراتبه، وأدنى حالاته..

وهذا هو ما حصل لقريش بالفعل، كما ربما يفيده قول رسول الله «صلى الله عليه وآله» لعائشة: «ينقضون العهد لأمر يريده الله» حيث كان لا بد من حسم أمر الطغيان القرشي، لينتعش الشعور بالعزة لأهل الإيمان، ويتأكد سقوط عنفوان الشرك، ويعيش رموزه حالة الذل والخزي الأمر الذي من شأنه أن يفسح المجال أمام دعوة الحق والإيمان لتأخذ طريقها إلى قلوب المستضعفين، الذين كانوا بأمس الحاجة إليها.

وكان الطريق إلى ذلك هو ترك قريش لتتمادى في ممارسة دورها وفق ما يحلو لها، وترتكب حماقاتها، وتظهر على حقيقتها، ويتجلى خزيها لكل أحد، لتنال جزاء أعمالها بعيداً عن أي لبس أو شبهة، أو تأويل خادع.

النبي ﷺ.. ونصر بني كعب:

وقالوا: إن عمرو بن سالم الخزاعي خرج في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله «صلى الله عليه وآله» ويخبرونه بالذي أصابهم، وما ظاهرت عليهم قريش، ومعاونتها لهم بالرجال، والسلاح، والكراع، وحضور صفوان بن أمية، وعكرمة، ومن حضر من قريش. وأخبروه بالخبر، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» جالس في المسجد بين أظهر

الناس، ورأس خزاعة عمرو بن سالم، فلما فرغوا من قصتهم، قام عمرو بن سالم، فقال:

يا رب إني ناشد محمدا	حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم بيّتونا بالوتير هجدا	وقتلونا ركعا وسجدا
وجعلوا لي في كداء رصدا	فانصر رسول الله نصرا أيدا
وادعُ عباد الله يأتوا مددا	فيهم رسول الله قد تجردا
أن سيم خسفاً وجهه تربدا	في فيلق كالبحر يجري مزبدا

قرم لقرم من قروم أصيدا

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «حسبك يا عمرو، أي: ودمعت عيناه».

أو قال: «نصرت يا عمرو بن سالم».

فما برح حتى مرت عنانة (أي سحابة) من السماء فرعدت، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٢ و ٢٠٣ والسنن الكبرى للبيهقي ج٩ ص٢٣٤ ودلائل النبوة ج٥ ص٧ وعن: الطبراني في الكبير والصغير، عن ميمونة بنت الحارث، والبزار بسند جيد عن أبي هريرة، وابن أبي شيبة في المصنف عن =

وفي المنتقى: أنه «صلى الله عليه وآله» لما كان بالروحاء نظر إلى سحاب منصب، فقال: إن هذه السحابة لتستهل (لينتصب) الخ..[1].

وروي بسند جيد عن عائشة قالت: لقد رأيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» غضب مما كان من شأن بني كعب غضباً لم أره غضبه منذ زمان. وقال: «لا نصرني الله ـ تعالى ـ إن لم أنصر بني كعب»[2].

= عكرمة، والبيهقي عن ابن إسحاق، ومحمد بن عمر عن شيوخه، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧١ وراجع السيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٤ ص٨٥٥ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٢٧ وكنز العمال ج١٠ ص٥٠٢ وتاريخ مدينة دمشق ج٤٣ ص٥٢٠ وأسد الغابة ج٤ ص١٠٥ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٥ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣١٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ والبحار ج٢١ ص١٢٥ عن إعلام الورى، وراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٤.

(١) راجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ ومجمع الزوائد ج٦ ص١٦٤ والمعجم الصغير ج٢ ص٧٤ والمعجم الكبير ج٢٣ ص٤٣٤ ودلائل النبوة للأصبهاني ص٧٤.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩١ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٣ وفي هامشه عن: مسند أبي يعلى ج٧ ص٣٤٣ (٢٤/ ٤٣٨٠)، وذكره الهيثمي في المجمع ج٦ ص١٦٤ وعزاه لأبي يعلى عن حزام بن هشام بن حبيش عن أبيه عنها. وقد وثقهما ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤٣٥٦) وراجع: مجمع الزوائد (ط دار الكتب العلمية) ص١٦١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٢.

وعن ابن عباس: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لما سمع ما أصاب خزاعة، قام ـ وهو يجر رداءه ـ وهو يقول: «لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي»[1].

وفي نص آخر: أنه «صلى الله عليه وآله» قال: «والذي نفسي بيده، لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، وأهلي، وبيتي»[2].

ويتابع المؤرخون، فيقولون: فلما فرغ الركب قالوا: يا رسول الله، إن أنس بن زنيم الديلي قد هجاك، فهدر رسول الله «صلى الله عليه وآله» دمه[3].

فبلغ أنس بن زنيم ذلك، فقدم على رسول الله «صلى الله عليه وآله» معتذراً عما بلغه فقال قصيدة منها:

أأنت الذي تهدى معد بأمره ... بل الله يهديهم وقال لك اشهد

فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

إلى آخر القصيدة..

وبلغت رسول الله «صلى الله عليه وآله» قصيدته واعتذاره. وكلمه

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٤ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٣ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٨ و ٢٦١ .

(٢) المصنف للصنعاني ج٥ ص٣٧٤ (٩٧٣٩) وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٣ عنه وعن الواقدي، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧١ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩١.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٩ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٨٢ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٠ ص٢٣ وأسد الغابة ج١ ص٩٠ و ١٢٠ وج٤ ص١٠٥ والإصابة ج١ ص٢٧١ والأعلام ج٢ ص٢٤.

نوفل بن معاوية الديلي فيه، وقال له:

أنت أولى الناس بالعفو، ومن منا لم يعادك ولم يؤذك؟ ونحن في جاهلية، لا ندري ما نأخذ وما ندع، حتى هدانا الله بك من الهلكة، وقد كذب عليه الركب، وكثَّروا عندك.

فقال: دع الركب، فإنَّا لم نجد بتهامة أحداً من ذي رحم ولا بعيداً كان أبر بنا من خزاعة.

فأسكت نوفل بن معاوية.

فلما سكت قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: قد عفوت عنه.

فقال نوفل: فداك أبي وأمي[1].

نوفل يضيع الحق:

ونقول:

إن كلام نوفل لم يكن منصفاً ولا دقيقاً، فلاحظ ما يلي:

١ ـ إنه يبدو: أن كلام نوفل بن معاوية كان يهدف إلى تصغير ذنب أنس من جهة، وإلى تضييع الحق من جهة أخرى.

فما قاله يؤدي إلى أن يصبح عفو رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن مرتكب هذا الجرم العظيم، الذي يرمي إلى إلحاق الوهن بالإسلام، من خلال الجرأة على نبيه، يصبح عفوه عن جرم كهذا غير ذي أهمية، بل هو سيجعل ذلك واجباً إنسانياً إلى حد يكون معه النبي «صلى الله عليه وآله»

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٩ و ٧٩٠ و ٧٩١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٨٣ وراجع: الإصابة ج١ ص٢٧٢ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٠ ص٢٣.

نفسه في موقع الاتهام في نبله، وفي أخلاقه الحميدة، وفي سجاياه الكريمة، وحقيقة التزامه بالقيم، ورعايته للمثل العليا، وللمعاني الإنسانية.

فإذا كان «صلى الله عليه وآله» فاقداً لمثل هذه الفضيلة ـ والعياذ بالله ـ فإن تحلّيه بما هو أسمى منها يصير موضع شك وريب، ويدعو إلى تفسير بعض ما يصدر عنه بطريقة أخرى، تبعده عن أن يكون ناشئاً عن خلق رضيّ، وعن نفس تعيش معنى السماحة، والنبل، وسائر المعاني الإنسانية الفاضلة والرقيقة.

٢ ـ إن كلام نوفل قد تضمن المساواة بين الوفي والغادر، وبين المؤذي عن جهل، وبين من يخطط للإيذاء، وبين من يعادي الشخص لأمور شخصية، وفي أمور جزئية، وبين من يعادي المبادئ والقيم، ويسعى لإطفاء نور الله عن علم، وهذا من نوفل: إما ظلم واضح، أو جهل فاضح.

وفي كلتا الحالتين يفترض برسول الله «صلى الله عليه وآله»: أن يتصدى لدفع الظلم ورفع الجهل.

٣ ـ إن نوفل بن معاوية يدَّعي: أن الأخبار التي بلغت رسول الله «صلى الله عليه وآله» تشتمل على أكاذيب، ولكنه لم يقدم أي دليل او إشارة تثبت صحة هذه الدعوى.

مع العلم: بأن هذا التكذيب ليس له ما يبرره، فإن الشهادة على النفي من شخص واحد لا يمكن أن تعارض الشهادة على الإثبات، خصوصاً إذا كانت شهادة الإثبات تصدر عن جماعة كبيرة من الناس. كانت الشهادة تتناول حقبة زمنية واسعة لا مجال للاطلاع على تفاصيلها.

فإن فعل الهجاء قد يغيب عنه شخص، ويحضره أشخاص آخرون،

وهم قد يقلون وقد يكثرون. فكيف أجاز نوفل بن معاوية لنفسه أن يقيم هذه الشهادة العجيبة أمام سيد عقلاء العالم المؤيد بالوحي، ويحظى بالتسديد واللطف الإلهي؟!

٤ ـ إن هذه الشهادة تستبطن درجة من الاتهام لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بأنه يتسرَّع باتخاذ قراراته في حق الأشخاص إلى حد أنه يبادر إلى إهدار دماء الناس استناداً إلى أكاذيب يزجيها إليه ركب زائر..

٥ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قد بيّن: أن نوفلاً لم يكن صادقاً فيما قدمه من تبريرات، وقد صرح له: بأن الوقائع قد جاءت لتثبت خلاف مزاعمه، فأسكت نوفل ولم يدر ما يقول..

٦ ـ لقد رأينا: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يتراجع عن قراره بإهدار دم أنس بن رزين، ولم يعر لمزاعم نوفل أي اهتمام، وإنما عفا عنه بعد أن أكذب نوفلاً فيما زعم، فجاء العفو عن ابن زنيم تكرماً من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لا انصياعاً لمنطق نوفل.

غضب النبي ﷺ لبني كعب:

وقد كان غضب النبي «صلى الله عليه وآله» لبني كعب شديداً، حتى إن عائشة لم تره قد غضب إلى هذا الحد منذ زمان. ولكنه «صلى الله عليه وآله» لم يغضب لنفسه، ولا لعشيرته، ولا لفوات منفعة، ولا كان غضبه حنقاً غير مسؤول، يخرجه عن حدود المقبول والمعقول، بل كان غضباً لله تعالى، وانتصاراً للمظلوم من ظالمه، ولأجل المنع من العدوان على القيم الإنسانية، والمثل العليا..

إن هذا الغضب واجب شرعي وأخلاقي وعقلي، ناشئ عن الشعور بالمسؤولية، وفي سياق مراعاة الحكم الشرعي، والإصرار على تطبيق القيم الإنسانية بأمانة وبدقة..

وغني عن القول: أن هذا الغضب لم يخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن جادة الحق، والإنصاف، والاعتدال.

بل هو من أجل إرغام الخارجين عن هذه الجادة على الرجوع إليها..

نصرت يا عمرو بن سالم:

قد لاحظنا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» يصر على الجهر بتصميمه على نصرة المظلومين من خزاعة، وهو يستخدم في بياناته لهذا النصر صيغة فعل الماضي، وكأنه يخبر عن حصول هذا الأمر فيما مضى من الزمان، حتى أصبح كأنه تاريخ يحكى، فيقول لعمرو بن سالم: «نُصرت يا عمرو بن سالم» ولم يقل: ستنصر، أو نحو ذلك.

ويقول في إخباره الغيبي بما حصل: «لبيك، لبيك، لبيك. نُصرت، نُصرت، نُصرت». ولم يقل: سوف أنصرك..

وقد تحقق مضمون هذه التلبية، ونصر «صلى الله عليه وآله» بني كعب أجمل نصر، وأتمَّه وأوفاه..

لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب:

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى تأكيد تصميمه على نصر بني كعب، بأسلوب قد يفاجئ الكثيرين، وهو الطلب إلى الله أن يحجب عنه نصره، إن لم يقم بهذا الواجب..

غير أننا نقول:

إن هذا الطلب يمكن تفسيره: بأن من يتخلى عن واجبه الشرعي لا يستحق اللطف والنصر الإلهي، هذا إن اقتصر الأمر على المعاملة وفقاً لمبدأ المقابلة بالمثل..

في حين أن من يتخلف عن واجبه الشرعي يستحق الطرد من ساحة الرضا الإلهي، ليصبح من يفعل ذلك في معرض غضبه تبارك وتعالى..

وبما أن هذا الأمر لا يظن صدوره من أي إنسان مؤمن بالله ملتزم بأوامره ونواهيه، فيرد السؤال عن معنى أن يجعل أعظم وأفضل وأكرم الأنبياء نفسه في دائرة احتمال التخلف عن هذا الواجب، ومخالفة التكليف الإلهي.

ويمكن أن نجيب بما يلي:

أولاً: قد يقال: إن ذلك جارٍ على طريقة هضم النفس، حيث إن المفروض هو: أن يتعامل «صلى الله عليه وآله» مع نفسه بغض النظر عن اللطف الإلهي، وعن العصمة.. وهذا أمر شائع ومعروف..

فهذه الكلمة تشبه قول أمير المؤمنين «عليه السلام»: ما أنا في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله بلطف منه[1].

---

(١) راجع: الكافي ج٨ ص٢٩٣ و (ط مطبعة الحيدري) ص٣٥٦ والبحار ج٢٧ ص٢٥٣ وج٤١ ص١٥٤وج٧٤ ص٣٥٨ و ٣٥٩ ونهج البلاغة (بتحقيق عبده) (ط دار المعرفة) ج٢ ص٢٠١ و (ط دار التعارف بيروت) ص٢٤٥ خطبة ٢١٦. ونهج السعادة ج٢ ص١٨٦ وشرح النهج للمعتزلي ج١١ ص١٠٢ وميزان الحكمة ج٢ ص١٥٢٨ وشرح أصول الكافي ج١٢ ص٤٩٩.

وإذا نظرنا إلى الأمور من حيثية أخرى فسنجد: أن الله تعالى الذي يعامل الناس العاديين من مقامه الربوبي، فيعتمد منطق الرحمة، والرفق، والغفورية، والتوابية، والترغيب، والترهيب وغير ذلك.. يعامل أنبياءه «عليهم السلام» من موقع الألوهية، فيضع لهم النقاط على الحروف بكل صراحة وحزم، فيقول لواحد من هؤلاء الأنبياء: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾[1].

ويقول: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[2]..

ثانياً: إنه «صلى الله عليه وآله» يريد أن يعطي القاعدة للناس؛ ليعرفوا: أن الحكم الإلهي الذي يجريه على كل البشر، هو أن نفس ترك نصرة المظلوم يستتبع فقدان النصر الإلهي في موضع الحاجة إليه وله هذا الأثر، بغض النظر عن أية خصوصية أخرى.

فهو «صلى الله عليه وآله» قد استخدم أفضل أسلوب بياني تطبيقي، يجسد الفكرة للآخرين بصورة حية وواقعية، ويسهل إدراكها وفهمها على كل الناس.

ثالثاً: إن الواجب عليه «صلى الله عليه وآله» هو مجرد النصر لبني كعب، بحيث يرتفع الظلم عنهم، ولا يجب عليه أن ينصرهم مما ينصر منه نفسه وأهل بيته، فإن هذه المرتبة أعلى وأشد من تلك المرتبة، فالذي تعهد

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الزمر.

(٢) الآيات ٤٤ ـ ٤٦ من سورة الحاقة.

بالقيام به يزيد على الدرجة التي تجب عليه، فاحتاج إلى تأكيد هذا الالتزام بهذا النحو من المبادرة والتضحية بالنصر الإلهي حين الاحتياج إليه.

وعلى هذا الوجه لا يكون حجب النصر الإلهي عنه دليلاً على غضب الله، بل يكون لأجل أنه قد رضي بارتهان نصرٍ كان الله قد ادَّخره له، بإعطاء درجة من نصر لم تكن مطلوبةً منه، ولا كانت واجبةً عليه..

السحابة تستهل بنصر بني كعب:

وعن حديث استهلال السحابة بنصر بني كعب نقول:

قد يروق للبعض أن يضع قوله «صلى الله عليه وآله» هذا في سياق التفاؤل بالمطر، الذي تحيا به البلاد والعباد..

غير أن هذا التفسير يبقى غير دقيق، إن لم نقل: إنه يفقد هذه الكلمة مغزاها، ومرماها بدرجة كبيرة..

ولعل الأقرب إلى الاعتبار أن نقول: إنه «صلى الله عليه وآله» يريد الإشارة إلى أمور:

أحدها: أن هذا النصر منسجم مع طبيعة الحياة ومقتضياتها، وهو مما يتطلبه كل شيء حتى هذا المطر العارض الذي لم ينزل بعد..

ثانيها: الإشارة إلى شدة قرب هذا النصر، فإن بشائره المؤذنة بقرب نزوله حاضرة كحضور بشائر وأمارات نزول المطر، كظهور السحب، والرعد ونحوه.

ثالثها: التأكيد على حتميته، كحتمية نزول المطر من تلك السحابة..

رابعها: أنه نصر داهم وغامر، كالمطر الداهم والغامر..

خامسها: إن هذا النصر نازل من السماء، وهو هبة إلهية، تماماً كالمطر النازل، الذي هو عطاء إلهي.

دخل بيت عائشة أم ميمونة؟!:

ويزعم الواقدي: أنه «صلى الله عليه وآله» قال لعمرو بن سالم: ارجعوا، وتفرقوا في الأودية. وقام «صلى الله عليه وآله» ودخل على عائشة وهو مغضب، فدعا بماء، فدخل يغتسل، قالت عائشة: فأسمعه يقول، وهو يصب الماء: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب[1].

ونقول:

إن نفس هذه القضية قد ذُكرت للنبي «صلى الله عليه وآله» مع ميمونة، لا مع عائشة[2].

ولربما يروق للباحث أن يرجح هذه الرواية وهي رواية ميمونة، لأنه اعتاد أن يرى هنا وهناك عمليات سطو على الأدوار، وعلى الفضائل والكرامات، وعلى المواقف. يصل ذلك إلى حد الاختلاف ووضع الحديث على لسان رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أو على لسان علي «عليه السلام» أو غيرهما، في سبيل تأييد شخصٍ، أو فئةٍ، أو تأكيد نهج فريق بعينه، يؤسفنا

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٢.

(٢) راجع: البحار ج٢١ ص١٠١ و ١٢٥ عن إعلام الورى ج١ ص٢١٥، وتفسير مجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٨ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩١ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٧٩ والجامع لأحكام القرآن (ط دار إحياء التراث العربي) ج٨ ص٨٧ و (ط دار الكتب العلمية) ج٨ ص٦٤.

أن نقول: أن عائشة كانت وكذلك أبوها، ومن هو في خطها ونهجها أحد أركانه!!

هذا عدا ما يراه الباحث من تعمد سلب الفريق الآخر المناوئ لهؤلاء الكثير من الإمتيازات، أو التشكيك بها، أو تجاهلها، أو التعتيم عليها.

ثم هو يرى: ما يبذل من جهد لتلميع صورة هذا أو ذاك من الناس، وتأويل مواقفه السيئة، أو التشكيك بها، أو نسبتها إلى غيره، أو ما إلى ذلك..

وذلك كله يهيئ الأجواء لانطلاق احتمال أن تكون قد حصلت عملية سطو هنا أيضاً لنفس الأسباب التي دعت إلى نظائر لها شوهدت في الكثير من المواقع والمواضع.. وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة تدخل في هذا السياق..

ابن ورقاء أول المخبرين:

ذكر المؤرخون: قدوم بديل بن ورقاء على رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليخبره بما جرى على خزاعة، وبالمجزرة التي ارتكبت في بيته وعلى باب داره في حق الصبيان، والنساء والضعفاء[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٣ عن ابن إسحاق. وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٧ و ٧٨ والبحار ج٢١ ص١٠١ و ١٠٢ و ١٢٥ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٢ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٧٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٥ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣١٩ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٥ وزاد المعاد (ط مؤسسة الرسالة) ج١ ص١١٤٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٢ والسيرة النبوية لابن كثير =

وذكروا أيضاً: لقاءه أبا سفيان في عسفان، حين كان أبو سفيان متوجهاً إلى المدينة، وبديل عائد منها(١).

ولكن محجن بن وهب يدَّعي: أن بديل بن ورقاء لم يدخل مكة من حين انصرف رسول الله «صلى الله عليه وآله» من الحديبية، حتى لقيه في الفتح بمرّ الظهران. قال محمد بن عمر: وهذا أثبت(٢).

ونحن لا ندري لماذا يطلق الواقدي دعواه: بأن ما رواه محجن بن وهب أثبت مما رواه ابن إسحاق وغيره.

ولا شك في أن هذه المبادرة من بديل بن ورقاء كانت محاطة منه وممن معه بنطاق من السرية التامة، لأن اكتشاف قريش لهذا الأمر سوف يعرض بديلاً ورفاقه لخطر عظيم، قد عاينوا بعض مظاهره ومستوياته حين حصر

= ج٣ ص٥٣٠ وشرح معاني الآثار ج٣ ص٣١٦ و (ط دار الكتب العلمية) ص٣١١ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٨ وعن إعلام الورى.

(١) راجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٥ و ٧٨٦ و ٧٩١ و ٧٩٢ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٢ وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ والبحار ج٢١ ص١٠١ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٢ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٧٩ والثقات ج٢ ص٣٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٥ و ٣٢٦ والبداية والنهاية ج٤ ص٣١٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٥ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٠ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٨.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج٤ ص٩ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٤ عن الواقدي.

الخزاعيون في دار بديل، وسقط منهم كثير من الأبرياء قتلى في داخل تلك الدار، وعلى بابها..

ولذلك لم يستطع أبو سفيان معرفة حقيقة الأمر إلا من خلال النوى الذي وجده في بعر إبلهم.. ولكنه لم يتيقن هذا الأمر، فسكت عليه.

على أن ذكر التفاصيل الدقيقة لما جرى في عسفان بين أبي سفيان وبين بديل، يقرب احتمالات الصحة، ويوهن احتمال الوهم من الراوي..

فإذا كانت رواية ذلك قد وردت بأكثر من طريق، وفي أكثر من مصدر، فإن حظوظ الحكم بصحة الرواية تصير أكبر وأوفر..

وأخيراً نقول:

إننا لسنا بحاجة إلى التذكير: بأن من الممكن تعدد المخبرين لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، فيخبره عمرو بن سالم، ويخبره أيضاً بديل بن ورقاء.. وقد لا يعلم أي منهما بمسير الآخر خصوصاً في مثل تلك الظروف الصعبة..

عينا رسول الله ﷺ تدمعان:

ورد في بعض النصوص: ما يدل على مدى تأثر رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين أخبره عمرو بن سالم بما جرى على خزاعة، حتى لقد دمعت عيناه «صلى الله عليه وآله».

وغني عن البيان: أن هذا التأثر إن دل على شيء، فإنما يدل على: كمال معنى الإنسانية فيه «صلى الله عليه وآله»؛ وعلى حقيقة التوازن في ميزاته وفي خصائصه «صلى الله عليه وآله»، فلم تكن لتطغى خصوصية على أخرى، أو

تستأثر بدورها إلى حد الإلغاء، بل كان لكل خصوصية موقعها، ودورها الذي يخدم ويقوي، ويسدد خصوصيات أخرى في أداء وظيفتها على أكمل وجه وأتمه..

ولأجل هذا التوازن الدقيق في الشخصية الإنسانية التي يريدها الله تبارك وتعالى كان المؤمنون أشداء على الكفار رحماء بينهم.. وكان المؤمن قوياً شجاعاً وكان رقيقاً ورحيماً ورؤوفاً. وكان حازماً، حليماً. ولا يمكن أن يكون مؤمناً كاملاً من دون أن يستجمع هذه الصفات، ويعيشها، ويتفاعل معها بصورة صحيحة ومتوازنة..

فلا غرو إذا رأينا رسول الله «صلى الله عليه وآله» يجاهد الكفار ويغلظ عليهم في حين تذهب نفسه عليهم حسرات.

ثم هو يتلقى سيوفهم، ورماحهم وسهامهم، ويردها عن نفسه ما وسعه ذلك، ثم هو يدعو لهم ويقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون..

ومن جهة أخرى: إن هذه الرقة التي نراها من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حتى إن عينيه لتدمعان وهو يسمع ما جرى على خزاعة، لم تكن هي المرتكز لموقفه من القتلة والمجرمين، بل لم يكن لها أي تأثير فيه، بل كان المرتكز والمؤثر في ذلك هو التكليف الشرعي، وطلب رضا الله تعالى، وإنزال القصاص العادل بالمعتدين والظالمين، من دون أي تعد عليهم، أو ظلم لهم، أو تجاوز للحد الشرعي والإنساني في التعامل معهم.

قام وهو يجر رداءه:

وحين تتحدث الروايات المتقدمة: عن أنه «صلى الله عليه وآله» قد بلغ

به الغضب حداً جعله يقوم وهو يجر رداءه، فإنها تكون قد تجاوزت حدود المعقول والمقبول، بالنسبة لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، إذ ليس لنا أن نصوره «صلى الله عليه وآله» بصورة من أخرجه غضبه عن طوره، إلى حد أنه لم يلتفت إلى ردائه ليسويه على نفسه، ويضعه بالصورة التي يفترض أن يكون عليها..

فإذا كان «صلى الله عليه وآله» بهذه المثابة من الانفعال، فكيف يمكن أن نطمئن إلى أنه كان يتخذ قراراته بروية وتعقل، وتدبر وتأمل؟! فلعل غضبه الشديد قد جعله غافلاً عن بعض الأمور التي لا بد من مراعاتها في تلك القرارات!

كما أن نسبة أمثال هذه الأمور له «صلى الله عليه وآله» لا تنسجم مع الاعتقاد بعصمته، وبتسديد الله له، وتأييده بالوحي.. ومع ما هو معروف عنه «صلى الله عليه وآله» من رويَّة واتزان.

إلا أن يقال: إن المنهي عنه هو جر الرداء خيلاء وتكبراً، وأما إظهاراً لشدة الغضب لله تبارك وتعالى، وشريطة أن لا يترتب على ذلك أي محذور آخر، فما ذكرناه آنفاً ليس بقبيح، بل قد يكون محبوباً إلى الله تبارك وتعالى..

النبي ﷺ يأمر مخبريه بالتفرق في الأودية:

وقالوا: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال لعمرو بن سالم وأصحابه «ارجعوا وتفرقوا في الأودية».

فرجعوا وتفرقوا، وذهبت فرقة إلى الساحل بعارض الطريق، ولزم

بديل بن ورقاء في نفر من قومه الطريق[1].

ونقول:

إن ما قام به عمرو بن سالم وأصحابه، من إخبار رسول الله «صلى الله عليه وآله» بما جرى.. ليس من الأمور التي يمكن لقريش وبني بكر أن يتجاوزوها من دون اكتراث أو اهتمام.. بل هو بالنسبة إليهم وإليها قضية حاسمة ومصيرية، تجعلهم بين خياري: البقاء والفناء، والحياة والموت.

وهم يرون: أنهم إذا استطاعوا إخفاء ما جرى عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أو التخلص من المسؤولية عنه ومن تبعاته، فقد أفلحوا في الإبقاء على حالة الهدنة القائمة فيما بينهم وبين المسلمين.. ولعلهم يقدرون في وقت ما على استعادة بعض القوة لمواجهة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وربما يحلمون بأن ينتهي الأمر بحسم الأمور لمصلحتهم..

وأما إن ظهر نكثهم للعهد، واستمرت التحولات في هذا الاتجاه، فسيخسرون المعركة مع المسلمين، لأنهم لم يهيئوا لها ما يمنحهم ولو خيطاً من الأمل ضعيفاً بأي نصر، مهما كان هزيلاً وضئيلاً..

بل إنهم ليدركون: أن قدراتهم قد تضاءلت عما كانت عليه بدرجة كبيرة وخطيرة، كما أن قدرات أهل الإسلام قد تنامت وكبرت، بل تضاعفت، ولاسيما بعد كسر شوكة اليهود في خيبر وسواها، ثم ما جرى في مؤتة..

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٣ عن ابن عقبة والواقدي، ودلائل النبوة للبيهقي ج٧ ص١٠ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٢. وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٢ .

بل إن قدرات كثيرة قد أضيفت إلى قدرات المسلمين، حتى تضاعفت عما كانت عليه من قبل..

وذلك كله يشير إلى: أن اكتشاف قريش، وحلفائها لهذه النشاطات التي قام بها عمرو بن سالم وبديل بن ورقاء، سوف يدفعها للانتقام السريع والهائل والمريع من هؤلاء، ومن كل من يلوذ بهم، أو ينتمي إليهم، ومن دون أية رحمة أو شفقة..

وعلى هذا الأساس نقول:

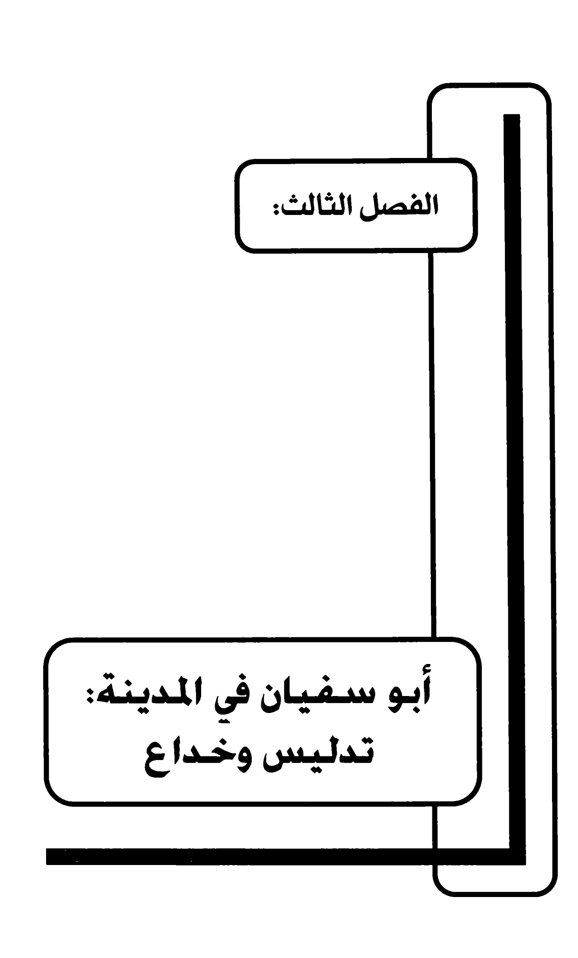
إنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يعود بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم وأصحابهما إلى مكة ظاهرين معلنين، وكان التخفي والتستر على هذا الأمر ضرورة لا بد منها، ولا غنى عنها لحفظ حياتهم، وحياة كل من يلوذ بهم.. وقد جاء التوجيه النبوي الكريم منسجماً مع هذه الحقيقة حيث أبلغهم أن عليهم أن يتفرقوا حين عودتهم في الأودية والشعاب، وأن يسلكوا طرقاً مختلفة، حتى إذا تمكنت قريش وحلفاؤها من العثور على بعض منهم في بعض الأودية والمسالك، فإنها قد لا تظن أنهم يعودون من مهمة تعنيها وتتعلق بما حدث.

وحتى لو راودها احتمال من هذا القبيل، فقد لا يخطر على بالها: أن يكون لهؤلاء شركاء في مهمتهم هذه.

ولو خطر ذلك أيضاً على بالها، وسألت عنه، فإن إنكار هذه الشراكة سوف يحد من دائرة الخطر ويؤكد لها احتمال أن يكون قد حصل شيء من ذلك بمبادرة شخصية، وربما تكون إزالة أساس هذا الاحتمال أيسر مما لو شوهدت جماعة كثيرة تمخر عباب تلك المنطقة، لأن ذلك سوف يقوي

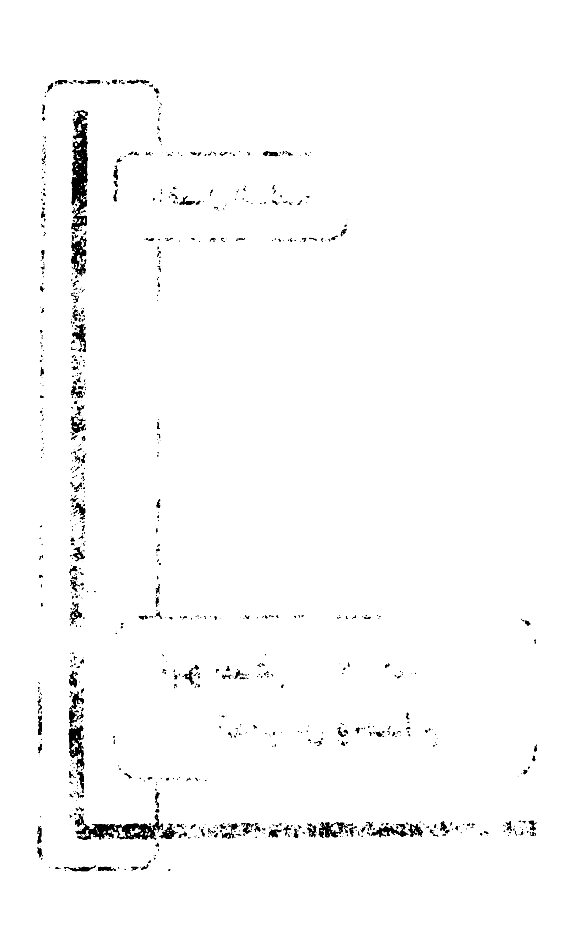
احتمال وجود أمر مهم دعا رجالات القرار لاتخاذ قرار بشأنه، وهذه الجماعة بصدد تنفيذه.

وهذا ما يفسر لنا عدم قدرة أبي سفيان على التمادي في توجيه الأسئلة لبديل بن ورقاء حينما لقيه بعسفان، فلجأ إلى فت أبعار الإبل، ليرى نوى تمر يثرب فيها، وبعد ذلك لم يتمكن من الجزم بصحة ما دار في خلده، فآثر السكوت، وانصرف عن استقصاء هذا الأمر..



الفصل الثالث:

أبو سفيان في المدينة: تدليس وخداع



عروض النبي ﷺ ورفض قريش:

عن ابن عمر، وحزام بن هشام الكلبي، ومحمد بن عبَّاد بن جعفر: أن قريشاً ندمت على عون بني نفاثة، وقالوا : محمد غازينا.

فقال عبد الله بن أبي سرح: إن عندي رأياً، إن محمداً لن يغزوكم حتى يعذر إليكم، ويخيِّركم في خصال كلها أهون عليكم من غزوه.

قالوا: ما هي؟

قال: يرسل إليكم أن دوا قتلى خزاعة، وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً، أو تبرؤوا من حلف من نقض الصلح، وهم بنو نفاثة، أو ينبذ إليكم على سواء، فما عندكم في هذه الخصال؟

فقال القوم: أحر بما قال ابن أبي سرح ـ وقد كان به عالماً ـ.

قال سهيل بن عمرو: ما خلة أهون علينا من أن نبرأ من حلف بني نفاثة.

فقال شيبة بن عثمان العبدري: حفظت أخوالك، وغضبت لهم.

قال سهيل: وأي قريش لم تلده خزاعة؟

قال شيبة: ولكن ندي قتلى خزاعة، فهو أهون علينا.

وقال قرظة بن عبد عمرو: لا والله لا يودَون ولا نبرأ من حلف بني

نفاثة، ولكنا ننبذ إليه على سواء.

وقال أبو سفيان: ليس هذا بشيء، وما الرأي إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد، أو قطع مدة، وإنه قطع قوم بغير رضى منا ولا مشورة، فما علينا.

قالوا: هذا الرأي لا رأي غيره(١).

وقال عبد الله بنُ عمر: إنَّ ركب خزاعة لَمَّا قدموا على رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأخبروه خبرهم ، قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «فمن تهمتكم وظنتكم»؟

قالوا: بنو بكر.

قال: «أكلُّها»؟

قالوا: لا، ولكن بنو نفاثة قصرة، ورأس القوم نوفل بن معاوية النفاثي.

قال: «هذا بطن من بني بكر، وأنا باعث إلى أهل مكة، فسائلهم عن هذا الأمر، ومخيرهم في خصال ثلاث».

فبعث إليهم ضمرة ـ لم يسم أباه محمد بن عمر ـ يخيرهم بين إحدى خلال، بين أن يدوا قتلى خزاعة، أو يبرؤوا من حلف بني نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء.

فأتاهم ضمرة رسول رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأناخ راحلته

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٤ عن ابن عائذ، والواقدي، ومسدد في مسنده بسند صحيح، والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٧ و ٧٨٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦١.

بباب المسجد، فدخل وقريش في أنديتها، فأخبرهم أنه رسول رسول الله وأخبرهم بالذي أمره رسول الله «صلى الله عليه وآله» به.

فقال قرظة بن عبد عمرو الأعمى: أما أن ندي قتلى خزاعة، فإن نفاثة فيهم عرام، فلا نديهم حتى لا يبقى لنا سبد ولا لبد، وأما أن نتبرأ من حلف نفاثة فإنه ليس قبيلة من العرب تحج هذا البيت أشد تعظيماً له من نفاثة، وهم حلفاؤنا، فلا نبرأ من حلفهم، أو لا يبقى لنا سبد ولا لبد، ولكن ننبذ إليه على سواء.

فرجع ضمرة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بذلك من قولهم.

وندمت قريش على رد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبعثت أبا سفيان فذكر قصة مجيئه إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» كما سيأتي[1].

مساعٍ فاشلة لأبي سفيان:

روى محمد بن عمر عن حزام بن هشام عن أبيه: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: «لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدِّد العهد، وزد في الهدنة (ليشد العقد ويزيد في المدة). وهو راجع بسخطه»[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٤ و ٢٠٥ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٢ والمطالب العالية ج٤ ص٢٤٣ وعن فتح الباري ج٨ ص٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٦ و ٧٨٧ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٠.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٥ عن عبد الرزاق عن نعيم، مولى ابن عباس وعن ابن أبي شيبة عن عكرمة، وعن الواقدي، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٢ و (ط دار المعرفة) ج٣ ص٣ والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي =

وروي: أن الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة مشيا إلى أبي سفيان بن حرب، فقالا: هذا أمر لا بد له من أن يصلح، والله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمد في أصحابه.

فقال أبو سفيان: قد رأت هند بنت عتبة رؤيا كرهتها وأفظعتها وخفت من شرها.

قالوا: وما هي؟

قال: رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة ملياً، ثم كأن ذلك الدم لم يكن، فكره القوم الرؤيا[1].

وفي نص آخر زعموا: أنه لما بلغ أبا سفيان ما فعلت قريش بخزاعة ـ وهو بالشام ـ أقبل حتى دخل على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال: يا محمد، احقن دم قومك الخ..[2].

= صبيح) ج٤ ص٨٥٥ و (ط دار المعرفة) ص٢٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٣ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٨ والجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٦٤ وجامع البيان للطبري ج٢ ص٨٤ والبحار ج٢١ ص١٠١ وزاد المعاد (ط مؤسسة الرسالة) ج١ ص١١٤٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩١ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٢.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٥ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ و (ط دار المعرفة) ص٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٥ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٩.

(٢) البحار ج٢١ ص١٠١ و ١٢٦ عن إعلام الورى ج١ ص٢١٧، وعن المناقب لابن شهرآشوب ج١ ص١٧٧ وراجع: تفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٢ =

وقال أبو سفيان لما رأى ما رأى من الشر: هذا ـ والله ـ أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، لا يحمل هذا إلا عليّ، ولا والله ما شوورت فيه، ولا هويته حين بلغني، والله، ليغزونا محمد إن صدقني ظني، وهو صادقي، وما بد من أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة، ويجدد العهد.

فقالت قريش: قد والله أصبت.

وندمت قريش على ما صنعت من عون بني بكر على خزاعة، وتحرجوا أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يدعهم حتى يغزوهم.

فخرج أبو سفيان، وخرج معه مولى له على راحلتين، فأسرع السير، وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلقي بديل بن ورقاء بعسفان، فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء رسول الله «صلى الله عليه وآله» بل كان اليقين عنده، فقال للقوم: أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها؟

قالوا: لا علم لنا بها.

فعلم أنهم كتموه، فقال: أما معكم من تمر يثرب شيء تطعموناه؟ فإن لِتمرِ يثرب فضلاً على تمور تهامة.

قالوا: لا.

= وتاريخ مدينة دمشق (ط دار الكتب العلمية) ج٧٣ ص٨٨ و (ط دار الفكر) ج٧٩ ص١٥٠ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٩ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٧٩ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢١ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٢ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٦.

فأبت نفسه أن تقرّه حتى قال: يا بديل: هل جئت محمداً؟

قال: لا ما فعلت، ولكن سرت في بلاد بني كعب وخزاعة من هذا الساحل، في قتيل كان بينهم، فأصلحت بينهم.

فقال أبو سفيان: إنك ـ والله ـ ما علمت بر واصل.

ثم قايلهم أبو سفيان حتى راح بديل وأصحابه، فجاء أبو سفيان منزلهم ففت أبعار أباعرهم، فوجد فيها نوى من تمر عجوة كأنها ألسنة الطير، فقال أبو سفيان: أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً[1].

وكان القوم لما كانت الوقعة خرجوا من صبح ذلك اليوم فساروا ثلاثاً، وخرجوا من ذلك اليوم فساروا إلى حيث لقيهم أبو سفيان ثلاثاً، وكانت بنو بكر قد حبست خزاعة في داري بديل ورافع ثلاثة أيام يكلمون فيهم، وائتمرت قريش في أن يخرج أبو سفيان، فأقام يومين. فهذه خمس بعد مقتل خزاعة.

وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي «صلى الله عليه وآله»، فأراد أن يجلس على فراش رسول الله «صلى الله عليه وآله» فطوته دونه.

فقال: يا بنية!! أرغبت بهذا الفراش عني أو بي عنه؟

قالت: بل هو فراش رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأنت امرؤ مشرك

---

(١) المغازي للواقدي ص٧٨٥ و ٧٨٦ و ٧٩١ و٧٩٢ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٢ و (ط دار المعرفة) ص٣ وأشار إلى ذلك في: مجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ والبحار ج٢١ ص١٠١ و ١٠٢ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٩ ـ ٢٦٢ .

نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله «صلى الله عليه وآله».

قال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر.

فقالت: بل هداني الله للإسلام. وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟

فقام من عندها، فأتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهو في المسجد، فقال: يا محمد!! إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد، وزدنا في المدة.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «فلذلك جئت يا أبا سفيان»؟

قال: نعم.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «هل كان من قبلكم من حدث»؟

قال: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل».

فأعاد أبو سفيان على رسول الله «صلى الله عليه وآله» القول، فلم يرد عليه شيئاً[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٢ و (ط دار المعرفة) ص٣ وراجع: مجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٨ والبحار ج٢١ ص١٠١ و ١٠٢ و ١٢٦ عن إعلام الورى ج١ ص٢١٧، والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٢ و ٧٩٣ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٢ و ٢٦٣ وتاريخ مدينة دمشق ج٦٩ ص١٥٠ و ١٥١ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢١ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٢.

فذهب إلى أبي بكر فكلمه، وقال: تُكلم محمداً، أو تجير أنت بين الناس.

فقال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله «صلى الله عليه وآله».

زاد ابن عقبة: والله، لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم.

فأتى عمر بن الخطاب، فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر.

فقال: أنا أشفع لكم عند رسول الله «صلى الله عليه وآله»!! فوالله، لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله، وما كان منه متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله.

فقال أبو سفيان: جوزيت من ذي رحم شراً[1].

فأتى عثمان بن عفان فقال: إنه ليس في القوم أحد أقرب رحماً منك، فزد في المدة، وجدد العهد، فإن صاحبك لا يرده عليك أبداً.

فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله «صلى الله عليه وآله»[2].

فأتى علياً «عليه السلام»، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى محمد.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٢ و ٧٣ و (ط دار المعرفة) ص٣ وراجع: مجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ والبحار ج٢١ ص١٠١ و ١٠٢ و ١٢٦ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٣ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢١ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ و (ط المعرفة) ص٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٣ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث) ج٤ ص٣٢١ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨.

فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله «صلى الله عليه وآله» على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فأتى سعد بن عبادة، فقال: يا أبا ثابت، أنت سيد هذه البحيرة، فأجر بين الناس، وزد في المدة.

فقال سعد: جواري في جوار رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وما يجير أحد على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فأتى أشراف قريش والأنصار، فكلهم يقول: جواري في جوار رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ما يجير أحد على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فلما أيس مما عندهم، دخل على فاطمة الزهراء «عليها السلام» والحسن «عليه السلام» غلام يدب بين يديها، فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تجيري بين الناس؟

فقالت: إنما أنا امرأة، وأبت عليه[1].

(**وفي نص آخر:** قالت: إنما أنا امرأة.

قال: قد أجارت أختك ـ يعني: زينب ـ أبا العاص بن الربيع، وأجاز ذلك محمد.

قالت: إنما ذاك إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخ..)[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ و (ط دار المعرفة) ص٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٤ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢١ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٣ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ و (ط دار =

فقال: مري ابنك هذا ـ أي الحسن بن علي «عليهما السلام» ـ فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر.

قالت: والله ما بلغ ابني ذلك، أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله «صلى الله عليه وآله»[1].

(وفي نص آخر: ما يدري ابناي ما يجيران من قريش)[2].

(زاد في الحلبية قوله: «قال: فكلمي علياً..

فقالت: أنت تكلمه.

فكلم علياً فقال: يا أبا سفيان، إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» يفتئت على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بجوار»)[3].

= المعرفة) ص٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٤ وراجع: البحار ج٢١ ص ١٠٢ و ١٢٦ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٨ وإعلام الورى ج١ ص٢١٧ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٧٥ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٣.

(١) البحار ج٢١ ص١٢٦ وإعلام الورى ج١ ص٢١٨.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٣ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٦ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢٠ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٠ والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٤ ص٨٥٦ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ وراجع: الإرشاد ج١ ص١٣٣ والبحار ج٢٢ ص٧٧ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ وزاد المعاد ج١ ص١١٤٧.

(٣) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ و (ط دار المعرفة) ص٣.

فقال لعلي «عليه السلام»: يا أبا الحسن!! إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني.

قال: والله ما أعلم شيئاً يغنب عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة.

قال: صدقت، وأنا كذلك.

قال: فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك.

قال: أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

قال: لا والله، ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد.

ثم دخل على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: يا محمد، إني قد أجرت بين الناس.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة»!!

ثم ركب بعيره وانطلق[1].

وكان قد احتبس وطالت غيبته، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة، قالوا: والله إنَّا نراه قد صبأ، واتبع محمداً سرَّاً، وكتم إسلامه.

فلما دخل على هند امرأته ليلاً، قالت: لقد احتبست حتى اتهمك

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ و (ط دار المعرفة) ص٣ والبحار ج٢١ ص١٢٦ و ١٢٧ وج٢٢ ص٧٧ وإعلام الورى ج١ ص٢١٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٤ و ٧٩٥ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ والمناقب لابن شهرآشوب ج١ ص١٧٧ والأنوار العلوية للنقدي ص٢٠٠.

قومك، فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل.

ثم دنا منها، فجلس مجلس الرجل من امرأته.

فقالت: ما صنعت؟

فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي.

فضربت برجلها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم، فما جئت بخير[1].

فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند إساف ونائلة، وذبح لهما، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما (كذا) ويقول: لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي، إبراء لقريش مما اتهموه به.

فلما رأته قريش، قاموا إليه، فقالوا: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد، أو زيادة في مدة ما نأمن به أن يغزونا محمد؟

فقال: والله، لقد أبى علي.

وفي لفظ: لقد كلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو (وفي رواية أعدى العدو) وقد كلمت علية أصحابه، فما قدرت على شيء منهم، إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوماً أطوع لملك عليهم منهم له.

إلا أن علياً لما ضاقت بي الأمور قال: أنت سيد بني كنانة، فأَجِرْ بين الناس، فناديت بالجوار.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٣ و (ط دار المعرفة) ص٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٥ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٤.

(وعند الحلبي: ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم. وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله، لا أدري أيغني عني شيئاً أم لا)[1].

فقال محمد: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة»!!

لم يزدني.

قالوا: رضيت بغير رضى، وجئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين، ما زاد علي من أن لعب بك تلعباً.

قال: والله ما وجدت غير ذلك[2].

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٣وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وراجع: الإرشاد ج١ ص١٣٣ والبحار ج٢٢ ص٧٧ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٣٢٠ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣١ والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٤ ص٨٥٧ و (ط دار المعرفة) ج٤ ص٢٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ وزاد المعاد (ط مؤسسة الرسالة) ج١ ص١١٤٧.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٧ و ٢٠٨ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٣ وراجع: الإرشاد ج١ ص١٣٤ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٢ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٨٠ والثقات ج٢ ص٤٠ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٦٩ والمناقب لابن شهرآشوب ج١ ص١٧٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والبحار ج٢١ ص١٢٦ و ١٢٧ وج٢٢ ص٧٨ وإعلام الورى ج١ ص٢١٨، والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٥ وتاريـخ الخميس ج٢ ص٧٨ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) =

ونقول:

إن لنا هنا وقفات هي التالية:

ترتيب الأحداث:

وقد يظن البعض: أن ثمة تناقضاً بين الروايات المتقدمة، فإنها تارة تقول: إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أرسل إلى قريش يخيرها بين أمور ثلاثة.. فاقترح أبو سفيان عليهم أن يجحدوا حصول أي شيء يمكن فهمه على أنه نقض للعهد..

وتارة تقول: إن أبا سفيان خرج إلى المدينة بعد خمس ليال فقط من العدوان على خزاعة. فأي ذلك هو الصحيح؟!

غير أننا نقول:

إنه لا تناقض بين تلك الروايات، ولكن الأمور قد اختلطت على المؤرخين، فقدموا المتأخر، وأخروا المتقدم. فاقتضى ذلك إضافة بعض البيانات التوضيحية منهم، فأوجب ذلك الخلل، وبدا أن ثمة تناقضاً واختلافاً بين المرويات.

والحقيقة هي: أنه لو أعيد كل نص إلى موضعه لاستقام السياق وانحل الإشكال بصورة تلقائية..

والذي نراه: هو أن أبا سفيان خرج إلى المدينة بعد خمسة أيام من

= ج٤ ص٣٢٢ و (ط مكتبة المعارف) ج٢ ص٢٧٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٣ ص٤٢ والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٤ ص٨٥٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤.

المجزرة، وسار إلى عسفان.. فالتقى ببديل بن ورقاء وصحبه، وجرى بينه وبينهم ما جرى.. ثم تابع سيره إلى المدينة، وحاول تعمية الأمور والمكر بالمسلمين بحجة: أنه لم يحضر الحديبية، ويريد التأكيد على العهد الذي أبرم فيها، ويزيد من مدته، فواجه ما لم يكن له بالحسبان، وعاد يجر أذيال الخيبة والخسران.

ثم جاءت وفود خزاعة فأخبروا النبي «صلى الله عليه وآله» بما جرى عليهم، فوعدهم النصر، وأخبرهم: أنه سيرسل إلى قريش يخيرها بين ثلاثة أمور.

ثم أرسل «صلى الله عليه وآله» رسولاً إلى قريش يعلمهم ببوار مكرهم، وافتضاح أمرهم، ويضعهم أمام تلك الخيارات المتقدمة..

فكان اقتراح أبي سفيان يقضي بالإصرار على جحد أية مسؤولية لهم تجاه ما حصل.

سؤال وجوابه:

ولكن السؤال الذي يحتاج إلى إجابة هو: كيف استطاع بديل بن ورقاء وصحبه أن يسافروا إلى المدينة ويعودوا منها، ويلتقي بهم أبو سفيان في عسفان في غضون أيام يسيرة قد تتجاوز أصابع اليد الواحدة بيسير، في حين أن المدينة تبعد عن مكة ما يقارب الأربع مائة كيلومتر.. وتحتاج ربما إلى ضعف هذا العدد من الأيام لقطعها ذهاباً وإياباً..

ويمكن أن يجاب: بأن أبا سفيان قد خرج من مكة ـ حسب زعمهم ـ باتجاه المدينة بعد خمسة أيام من المجزرة. ولكن لا شيء يدل على طبيعة سيره،

وكم بقي حتى وصل إلى عسفان؟ وهل تلوَّمَ في طريقه من المنازل المختلفة بضعة أيام؟ أم أنه أسرع السير وواصله؟ فهذا ما لا تذكره الروايات.

فيحتمل إذن: أن يكون قد سار ببطء، بحيث لم يصل إلى عسفان حتى مرت عدة أيام، تكون هي والخمسة أيام الأولى التي أقامها في مكة بعد حصول المجزرة كافية لذهاب الركب إلى المدينة وعودته منها على جناح السرعة، خوفاً من افتضاح أمرهم..

على ماذا ندمت قريش؟!:

إن ندم قريش على عون بني نفاثة لا يخفف من قبح الجريمة التي ارتكبتها، ولا يبرر أي إجراء تخفيفي في عقوبتها، لأن هذا الندم لم يكن لأجل إقرارها ببشاعة وفظاعة الجريمة، وقبح نقض العهد، بل هو ندم يؤكد إصرارها على ذلك كله والتزامها به، ويحمل في ثناياه منطق التأييد، والرضى، وعدم التورع عن العودة إلى مثله حينما تسنح الفرصة، وتأمن من عواقبه وتبعاته السيئة عليها..

فهو ندم قبيح، ومرفوض، ويوجب لها المزيد من الخزي، والمهانة، والسقوط. إنه ليس ندماً، بل لجاج وإصرار، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه..

إنه ندم حقيقته الخوف من انتقام المظلومين، وأن يُدَان أهل الحق من الظالمين، وأهل الباطل..

وخير دليل على إصرار هؤلاء على باطلهم وسيرهم الدائب في خط الجحود والإنكار للحق، هو موقفهم الرافض للخيارات العادلة التي وضعها رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمامهم.

أبو سفيان ينقض العهد:

زعموا: أن أبا سفيان لم يعلم بما تعاقد بنو نفاثة وزعماء من قريش عليه، وبما صنعوه في خزاعة قبل وقوعه، ولم يشاوروه في ذلك[1].

وزعموا: أنه كان في الشام آنئذٍ[2].

وقيل: شاوروه، فأبى عليهم[3].

ولنفترض: أن أبا سفيان لم يرض بنقض العهد، ولم يشارك فيما جرى، فإن ذلك لا يعفيه من المسؤولية لأكثر من سبب.

فأولاً: قد تقدم: أن بعض الروايات تصرح: بأنه هو صاحب الرأي الذي يقول: إن اللازم هو إنكار حدوث أي شيء على خزاعة، وجحد هذا الأمر وإبطاله من أساسه. وهذه خيانة عظيمة، وإهدار لدماء الناس، واستخفاف بها..

وثانياً: إنه قد سعى بكل جهده للتستر على هذا الأمر حينما جاء إلى المدينة ليوثق العهد من جديد..

وأنكر لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أن يكون قد حصل أي

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٨٣ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٥ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٥٣ والبحار ج٢١ ص١٠٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٠ و ٢٧١ .

(٢) راجع: البحار ج٢١ ص١٢٦ ومناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ج١ ص١٧٧ وإعلام الورى ج١ ص٢١٧ والأنوار العلوية للنقدي ص١٩٩ .

(٣) السيرة الحلبية ج٣ ص٧١ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٧.

حدث يوجب نقض العهد، وبذلك يكون قد أصبح شريكاً في هذا الأمر، خصوصاً وأنه قد اتخذ سبيل المكر بالنبي «صلى الله عليه وآله» وعمل على خديعته. فهو إن كان لم يبدأ بالغدر، ولكنه قد حمى الغدرة الفجرة، المستحلين لحرم الله، والقتلة لعباد الله.

الخيارات العادلة:

وعن الخيارات التي وضعها رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمام ناقضي العهد نقول:

ألف: إن الخيار الأول هو: أن يدوا قتلى خزاعة. فإن ذلك من أوليات الحقوق الثابتة والمعترف بها لمن يعانون من عدوان كهذا، حتى في المجتمع الجاهلي. بل إن القتل حين يكون عدوانياً، وعن سابق عمد وإصرار، لا يكتفى معه بالمطالبة بالدية، بل يرتقي الأمر إلى المطالبة بالقصاص من القاتل.. فكيف إذا كانت هناك عهود ومواثيق لا بد من مراعاتها والوفاء بها؟!

فالمطالبة بالدية يمثل إرفاقاً كبيراً، وتبرعاً بالعفو عن جرم كبير وخطير، يراد محاصرة آثاره، ومنعه من التوسع والانتشار، لو أريد الإصرار على خيار القصاص أو أريد الاستفادة من حق إسقاط الالتزامات، واعتبار العهد في حكم المنتهي..

ب: والخيار الثاني هو: إفساح المجال أمام العدالة لتأخذ مجراها، وذلك بالتخلي عن الحلف مع أولئك المعتدين والمجرمين، لينالوا جزاءهم..

وهو خيار متوافق مع سنة العدل والإنصاف، ومشوب بالرفق والإحسان لقريش أيضاً، من حيث إنه يظهر تصديقها فيما تدَّعيه، ويغض

النظر عن ملاحقتها، ومجازاتها على ما اقترفته.

وذلك يمثل درساً عملياً لها في الوفاء بالإلتزامات، وعدم الإنسياق وراء دعوة النزوات والشهوات.. كما أنه يقدم العبرة للناس، كل الناس، في أخذ الحق للمظلوم من الظالم، وقصاص المعتدي.. وكفى ذلك رادعاً لهم عن الانسياق وراء بني نفاثة في ارتكاب جرائم مماثلة، قد يرون أن الظروف تسمح لهم بارتكابها، وذلك ظاهر لا يخفى.

ج: وأما الخيار الثالث والأخير: فيقوم على فرضية الإصرار على العدوان، وعلى مناصرة الظالمين والمجرمين.. حيث لا بد من الردع المؤثر وقطع دابر الفساد والإفساد، فإن آخر الدواء الكيّ، ومن الإحسان للإنسانية استئصال الغدة السرطانية التي تفتك بالوجود الإنساني كله..

سياسات يعرفها الجميع:

وقد قرأنا في النصوص المتقدمة: أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح يستبق الأمور، ويخبر أهل مكة بما ستأتيهم به الرسل عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حتى لقد حدد لهم الخيارات التي سيعرضها «صلى الله عليه وآله» عليهم..

وهذا معناه: أن سياسات الإسلام المشوبة بالعفو والرفق والرحمة، والإنصاف، والمتمثلة بأقوال وأفعال رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد أصبحت معروفة، حتى لدى أعدائه.

ومما يدخل في هذا السياق أيضاً يقين بني نفاثة بأن محمداً لن يسكت على نقض العهد، وظلم الأبرياء. كما أن قريشاً خافت أن يعلم رسول الله

«صلى الله عليه وآله» بما حدث، لأن عواقب ذلك ستكون غير مرضية لها..

آراء لا يحسدون عليها:

وحين عرض ابن أبي سرح الخيارات التي يتوقع أن تأتي بها الرسل من عند رسول الله «صلى الله عليه وآله».. أدلى أصحاب المواقع، وأرباب الرأي الحصيف بآرائهم السخيفة والوضيعة، التي تعبر عن ذهنيتهم وتوجهاتهم، وآفاق تفكيرهم، ومنطلقاتهم. فيلاحظ:

ألف: أن سهيل بن عمرو قد عبر عن رأي يظهر طبيعة نظرة أهل الشرك للعهود والمواثيق، ومدى هشاشتها، وسقوط محلها وقيمتها عندهم وضعف تأثيرها في التزاماتهم، فقال: «ما خلة أهون علينا من أن نبرأ من حلف بني نفاثة».

ب: وعبر شيبة بن عثمان عن سوء الظن الذي كان يهيمن على مجتمع أهل الشرك، فلم يكن يثق أحد منهم بأحد، ولا يطمئن لسلامة نواياه، الأمر الذي يضعف من درجة اعتماد بعضهم على البعض الآخر، ويحد بصورة كبيرة من إقدامهم على أي عمل يصب في مصلحة الآخرين، فضلاً عن أن يضحي في سبيلهم، أو يؤثرهم على نفسه.

ثم هو يشير إلى: أن منطلقاتهم حتى في مواقفهم المصيرية هي مصالحهم الشخصية وأهواؤهم وتعصباتهم القبليّة، ومشاعرهم العرقية. فقضاياهم الكبرى تتقزم وتتحجم لتصبح في مستوى الشخص، لا من حيث مزاياه الإنسانية، بل بلحاظ مزيته البشرية، وفي خصوص طبيعة موقعه النسبي..

ج: أما موقف قرظة بن عمرو، فيعبر عن حمية الجاهلية التي تختزنها نفوسهم، والتي تهيمن وتطغى على مشاعرهم، وعلى أحاسيسهم.

د: ثم يأتي موقف أبي سفيان، الذي يدل على أن تلك النفوس أصبحت قاحلة جرداء، لا تمر في أجوائها أي نسمة من نسمات الخير، ولا تجد فيها أي أثر للهدى والصلاح.. بل هي تضج وتعج بخصال ضربت جذورها في أعماق الباطل، وانطلقت أغصانها في آفاقه، فكانت ثمارها شراً وجهالة، وغواية، وضلالة.

تحديد المتهم بدقة:

ثم يذكر الحديث السابق: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد طلب من ركب خزاعة تحديد مرتكب الجريمة بدقة، ولم يكتف بعناوين فضفاضة وعامة.

فحين قالوا: إنهم يتهمون بني بكر، قال لهم: أكلهم؟

قالوا : لا، ولكن بنو نفاثة فقط، وعلى رأسهم فلان..

وبذلك يكون «صلى الله عليه وآله» قد استبعد المنطق العشائري الجاهلي، الذي يأخذ البريء بذنب المجرم. رغم أن الذين قتلهم بنو نفاثة هم من الصبيان والنساء، والضعفاء من الرجال..

عرام بني نفاثة:

وقد وصفت الروايات المتقدمة بني نفاثة: بأن فيهم عراماً، أي: حدة وشدة، أو شراسة وأذى..

فهو يخشى ـ إن ودى القتلى الأبرياء الذين سقطوا تحت وطأة البغي

والغدر، ونكث العهود ـ أن يتعرض للأذى من أناس فيهم حدة وشراسة.
وهذا التضييع لحق هؤلاء ظلم آخر يحيق بأولئك الضحايا على يد جلاديهم، وقتلتهم.

بنو نفاثة يعظمون الحرم:

وقد زعم صاحب ذلك الرأي أيضاً: أنه ليس في العرب قبيلة أشد تعظيماً لبيت الله تبارك وتعالى من بني نفاثة..

مع أن بني نفاثة أنفسهم، وفي نفس هذه الواقعة التي أوصلت الأمور إلى هذا الحد، قد هتكوا حرمة الحرم، وقتلوا النساء، والصبيان، والضعفاء فيه. وحين حاول الناس لفت نظر زعيمهم وقائدهم نوفل بن معاوية نفسه إلى أنه يهتك حرمة الحرم لأن قتل أولئك الأبرياء قد أصبح في داخله، وقالوا له: إلهك، إلهك. تفوه بما يدل على إلحاده، فقال: لا إله لي اليوم..

فإذا كان هو فعلاً أشد الناسَ تعظيماً للبيت والحرم، فما الذي ننتظره من سائر القبائل التي لا تعظم البيت إلى هذا الحد؟!

الخبر اليقين:

وقد أخبر النبي «صلى الله عليه وآله» بالغيب، حين قال لهم: لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدد العهد، وزد في المدة الخ..

ونقول:

إن قضية مكة، والتصدي بحزم لممارسات رموز الشرك فيها، لم يكن تقبُّله بالأمر السهل على الناس، بل كان يحتاج إلى جهد كبير لإقناع الناس بصحة ذلك التصدي، وصوابيته.

ولهذا الإقناع طرقه، وأساليبه المختلفة، ولكن أقواها وأعلاها تلك الإخبارات الغيبية التي يخضع لها العقل، وتتفاعل في أجوائها المشاعر والأحاسيس، ويعيش القلب معها السكينة والطمأنينة..

وقد بيّن «صلى الله عليه وآله» في هذا الإخبار الغيبي المشار إليه أعلاه تفاصيل ما يجري بصورة تامة ودقيقة، فصرح باسم القادم، وهو أبو سفيان. وذكر لهم ما يسعى إليه أبو سفيان، بل هو صرح بعين الألفاظ والعبارات التي سوف يستخدمها، فقال: قد جاء يقول: جدد العهد، وزد في المدة.

ثم بيّن لهم نتيجة سعي ذلك الرجل، وأنه سيرجع، وهو يجر أذيال الخيبة، ويحمل معه سخطه ومرارته..

رؤيا هند بنت عتبة:

وعن رؤيا هند بنت عتبة نقول:

قد عرفنا أن للرؤيا في المنام دوراً في هداية الناس، وفي إقامة الحجة عليهم، وفي لفت نظرهم لأمور يحتاجون إليها، وليست الرؤيا مجرد تخيلات عابرة، ليس لها أثر..

وقد جاءت رؤيا هند لتحذر مشركي مكة من مغبة هذا البغي الذي يمارسونه، وتريهم بعض اللمحات عن المصير الذي ينتظرهم، إن استمروا في اللجاج والعناد، والسعي لإطفاء نور الله تبارك وتعالى.

أبو سفيان هو المسؤول:

إن أبا سفيان الذي يدَّعي: أنه لم يشهد ما جرى لخزاعة، قد أقر: بأنه لم

يغب عما جرى..

وهذا معناه: ليس فقط أنه كان على علم بما جرى.. بل هو قد شارك في التخطيط والتآمر، حتى لو سلمنا: أنه كان في الشام حين ارتكاب المجزرة الرهيبة كما ورد في بعض النصوص[1].

إذ لا شيء يمنع من التخطيط والإتفاق على شيء، على أن يتم التنفيذ في وقت يحدد بعد أيام، حيث يكون المستهدفون بالمؤامرة في غفلة من ذلك كله..

وإذا كان أبو سفيان حاضراً فلا نجد مبرراً لتجاهله، وعدم استشارته، فيما عقدوا العزم عليه.

مع ملاحظة: أن لفعلهم هذا خطورة بالغة على الهدنة التي كانت بينهم وبين النبي «صلى الله عليه وآله»، لأجل الحلف الذي كان له مع خزاعة. خصوصاً وأن ذلك لا يعفي أبا سفيان من المسؤولية من اتخاذ موقف تجاه ما يحدث، سواء علم أم لم يعلم. وقد اعترف هو نفسه بذلك فقال: «لا يحمل هذا إلا علي».

وهذا أمر طبيعي: فإن من يؤسس نهجاً، ويسن سنّة للناس ليعملوا بها، فإذا عمل بها الناس، فليس له أن يقول لهم: أنا بريء مما تشركون..

وقد أقر الشرع هذا المنطق أيضاً، فقد روي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: من سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها. ومن

(١) راجع: البحار ج٢١ ص١٢٦ وعن مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ج١ ص١٧٧ وعن إعلام الورى ج١ ص٢١٧ والأنوار العلوية للنقدي ص١٩٩.

سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها[1].

---

(١) راجع: الفصول المختارة للمفيد ص١٣٦ وروضة الطالبين للنووي ج١ ص٧٣ وحاشية رد المختار ج١ ص٦٢ ونيل الأوطار ج٧ ص١٩٢ ومستدرك الوسائل ج١٢ ص٢٢٩ والإختصاص ص٢٥١ ومنية المريد ص١٤٥ والبحار ج٢ ص٢٤ وج٧١ ص٢٠٤ ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص١٨٤ ومسند أحمد ج٤ ص٣٥٧ و ٣٥٩ و ٣٦١ و ٣٦٢ وصحيح مسلم ج٣ ص٨٧ وسنن النسائي ج٥ ص٧٦ والسنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص١٧٦ وفتح الباري ج١٣ ص٢٥٦ وتحفة الأحوذي ج٩ ص٦٨ ومسند أبي داود ص٩٣ ومسند ابن الجعد ص٩٠ والمصنف لابن أبي شيبة ج٣ ص٣ و ٤ وصحيح ابن خزيمة ج٤ ص١١٢ وجزء الحميري ص٢٥ وصحيح ابن حبان ج٨ ص١٠١ والمعجم الأوسط ج٤ ص٣٤٣ و ٣٨٤ والمعجم الكبير ج٢ ص٣١٥ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٤٦ ورياض الصالحين للنووي ص١٤٣ واللمع في أسباب ورود الحديث ص٦٨ وكنز العمال ج١٥ ص٧٨٠ وفيض القدير ج١ ص٦٧٢ وكشف الخفاء ج٢ ص٢٥٥ و ٢٥٦ والتبيان ج١ ص١٨٧ وج٣ ص٥٠٢ وتفسير مجمع البيان ج١ ص١٨٦ وج٣ ص٣٢٢ وتفسير نور الثقلين ج١ ص٧٣ وتفسير الميزان ج١٢ ص٢٣٠ وج١٧ ص٧٠ وج١٩ ص٤٧ وأحكام القرآن للجصاص ج٢ ص٥٠٧ وج٣ ص١٨٨ ومفردات غريب القرآن للراغب ص٢٦٣ و ٥٢١ والجامع لأحكام القرآن ج٢ ص٨٧ وج٦ ص١٤٠ وج١٩ ص٩٩ وتفسير القرآن العظيم ج٣ ص٥٧٢ وج٤ ص٣٦٥ والبرهان للزركشي ج٢ ص١٤٤ والدر المنثور ج٥ ص٢٦٠ وج٦ ص٢٠١ وتفسير الثعالبي ج٣ ص٢٠١ والفصول في الأصول للجصاص ج٣ ص١٩٨ وأصول للسرخسي ج١ ص١١٤ و ٣٨١ والتعديل والتجريح ج١ ص١٣ و ٤٥ وتاريخ مدينة دمشق ج٤٣ ص٥٤٤ والإستغاثة ج١ ص٢٠ والنصائح الكافية ص١٢٠ والنهاية في غريب الحديث ج١ ص١٠٦ ولسان العرب ج٨ ص٦ ومجمع البحرين ج١ ص١٦٤ وتاج العروس ج٥ ص٢٧١.

وقال تعالى في إشارة إلى ذلك: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1].

تجديد العهد، وزيادة المدة:

وقد كان طلبُ أبي سفيان من النبي «صلى الله عليه وآله» تجديد عهد الحديبية، والزيادة في المدة، هو الخدعة التي أعدها هذا الرجل، ومن ورائه قريش، للتملص والتخلص من تبعات الجريمة التي ارتكبوها في حق صبيان ونساء وضعفاء خزاعة..

وذلك بتقدير: أن يكون ذلك الطلب يشير إلى الرغبة في تأكيد العهد، ومن تكون لديه هذه الرغبة، فلا يعقل أن يكون قد نقض ما يسعى إلى تقويته!!

ويعزز ذلك ويقويه: طلب الزيادة في المدة، لأن ذلك يبعِّد احتمال نقض العهد أيضاً. فإن ناقض العهد لا يعترف بوجوده، وقريش تعترف بالعهد، وببقائه، بل هي ترغب في إطالة أمده..

وهذا كله يدخل في سياق الإيحاء ببراءة قريش مما جرى لخزاعة. وهو أحد مظاهر جحود ما ظهر من نقضها للعهد، بالمشاركة في العدوان على خزاعة.

وهو عين الرأي الذي طرحه أبو سفيان، واستبشرت به قريش، حينما ائتمروا فيما بينهم حول كيفية الرد على الخيارات التي عرضها النبي «صلى

---

(١) الآية ١٣ من سورة العنكبوت.

الله عليه وآله» عليهم..

وقد كان لا بد من رد أبي سفيان خائباً ليفهم: أن أساليب المكر والإحتيال لا تجدي في إماتة الحق، وإحياء الباطل. وهذا ما جرى له فعلاً.

أساليب استخباراتية فاشلة:

وحين التقى أبو سفيان ببديل بن ورقاء وصحبه، وظن أنهم راجعون من المدينة، بادر إلى التعامل وفق سجيته الماكرة، التي تظهر الود والصفاء، وتبطن الخبث والحقد والبغضاء، فبادر إلى طرح السؤال عن أخبار المدينة على بديل، وكأن عودته منها أمر مفروغ عنه..

فلما أنكر بديل أن يكون له علم بشيء منها بادر بطرح سؤال آخر أكثر صراحة من سابقه، على أمل أن تأخذهم المفاجأة، وتهيمن عليهم هزة مشاعرية تستثير أريحية الكرم فيهم، فيبادرون إلى الإجابة بكلمة نعم، رغبة منهم في البذل والعطاء. واكتساب الحمد والثناء.

فسألهم إن كان لديهم شيء من تمر يثرب يطعمونه إياه. ولكنه وجدهم أيضاً متيقظين لحيلته، راصدين لحركته. حين أجابوه بالنفي..

فاضطر إلى الجهر بنواياه، والكشف عن خفاياه وخباياه، فقال لبديل: هل جئت محمداً الخ..

وجاءه الجواب بالنفي أيضاً، مصحوباً بتبرير معقول ومقبول، لا سبيل إلى رده، ولا مجال للمناقشة فيه..

فلم يكن أمامه خيار سوى السكوت، وانتظر أبعار إبلهم ليتفحَّصها بعد رحيلهم، ليستدل منها على ما يريد.. فوجد فيها بعض ما يشي بصدق

ما كان يخشاه..

ولكن ذلك أيضاً يبقى غير كافٍ لحسم الأمور لديه، لإمكان التأويل والتفسير، والتوجيه والتبرير. فباء بذلّ الخيبة، وذاق مرارة الفشل الذي سيكون له ما بعده، من خيبات تتلاحق، وفشل يتوالى..

أبو سفيان في المدينة:

وإن ما واجهه أبو سفيان في المدينة كان غاية في الروعة، فقد ذاق طعم الذل والخزي مرة بعد أخرى، وتجرع مرارة الخيبة والفشل كرّات ومرَّات لم يعرف لها مثيلاً في حياته كلها.. وقد تجلى هذا الذل في مظاهر مختلفة، نذكر منها:

١ ـ أنه قد بدأ فيما ظن أنه أهونها عليه.. ألا وهو أن يوسِّط ابنته لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكأنه يريد أن يستفيد من العنصر النسوي، والنسبي، والعاطفي، والتأثير الأنثوي، على قرار رسول الله «صلى الله عليه وآله» ظناً منه: أنه «صلى الله عليه وآله» كغيره من أهل الدنيا، الذين يمارسون العمل في الصالح العام بعد وضعه في بوتقة المصالح الشخصية، وصهره واستخلاص نتائجه لحساب الفرد وشهواته وأهوائه، ومن يلوذ به من قريب أو عشير..

مع أن الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» قد قدم لهم الدليل تلو الدليل على أنه يضحي بالنفس وبالمال والولد، وبكل شيء في سبيل الصالح العام، وبتعبير أدق: في سبيل الله، والمستضعفين.

ولعل أبا سفيان حين لجأ إلى ابنته قد ظن أيضاً: أن ظهور ضعفه لديها،

سوف يغنيه عما بعده من مواقف ذليلة، اختار هو وضع نفسه فيها..

كما أنه سيكون قادراً بعد ذلك على لملمة ما انتشر من هيبته، والظهور على الناس من جديد بورقة التين، التي قد تستر شيئاً من عيوبه وقبائحه، وتغطي على بعض ما هو مشين ومهين من واقعه.

ولكنه لم يجد لدى ابنته ما يشجعه على طرح الموضوع معها، لأن الظاهر هو أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان قد أعطى تعليماته بهذا الخصوص كما أظهره قوله السابق وهو يخبر بالغيب عن أبي سفيان «وهو راجع بسخطه»، فالحدود كانت قد وضعت، والثغرات ضبطت، والصلاحيات حددت.. فلم يبق مجال لأحد أن يفكر في اختراقها..

ولو أن أحداً سولت له نفسه أن يفعل ذلك، فسوف ينال جزاءه العادل الذي حددته الشريعة، وبيَّنه لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

٢ ـ ثم جرب حظه مع النبي «صلى الله عليه وآله» مباشرة، فطلب منه أن يجدد العهد ويزيد في المدة، وكان المبرر الذي ساقه لطلبه هذا هو: أنه لم يكن حاضراً في صلح الحديبية..

وكأنه يريد بهذا الطلب وبذلك التبرير أن يمرر لعبته على رسول الله «صلى الله عليه وآله».. وإلا، فإن غيبته عن الحديبية لا توجب أي وهن أو ضعف في العهد ليحتاج إلى التقوية والتوثيق ما دام أن الوقائع طيلة السنوات التي مرت على عقد الهدنة قد أثبتت التزام النبي «صلى الله عليه وآله» بالعهد، واستمر جميع أهل مكة على الالتزام بمراعاته، وتنفيذ بنوده.

وإنما يحتاج العهد إلى التقوية والتجديد فيما لو تعرض للنقض والتمرد على أحكامه، ورفض إجرائها..

وهذا ما ينكره أبو سفيان، بل هو لا يجرؤ على الاعتراف بشيء مما يدخل في هذا السياق..

ولذلك سأله رسول الله «صلى الله عليه وآله» إن كان قد حدث في مكة ما يوجب وهن العهد، أو نقضه، فأنكر أبو سفيان أن يكون قد حصل شيء من ذلك.

فأسقط رسول الله «صلى الله عليه وآله» حجته، ووضعه أمام خيارين كل منهما صعب:

أحدهما: أن يعترف بما جرى لخزاعة، وهذا معناه: الدخول فيما أراد أن يهرب منه، حيث لا بد من أن يرضى بتحمل جميع تبعات ما جرى، ويضطر إلى إعطاء الديات والرضى بقصاص المجرم وغير ذلك.

ثانيهما: أن يظهر للناس بصورة الرجل التافه، أو الجاهل، أو المبتلى بالخرف أو ما شاكل.. وقد أصر على رفض الخيار الأول ولم يفلح في التملص من تبعات الخيار الثاني..

خيار الهروب إلى الأمام:

فكانت النتيجة التي انتهى إليها هي اللجوء إلى خيار ثالث ظن أنه يبلغه إلى ما يريد، ألا وهو أن يطلب من بعض أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يجير بين الناس..

وبذلك يكون قد حصل على ما يحسم الأمر فيما يرتبط بما فعله بنو نفاثة وقريش ببني خزاعة، لأنه سيصبح قادراً على ادِّعاء أن هذه أمور شخصية، ليس فيها أي نقض للعهد..

والأمور الشخصية يحكم بها عقلاء القوم ويحسم الأمر فيها نفس أصحاب العلاقة بما هم أفراد. والجوار يحفظ هؤلاء الأفراد ويحميهم من الانتقام..

وبذلك يكون قد أخرج قريشاً من دائرة الصراع، ونفى أية مسؤولية لها فيه، وأبعد النبي «صلى الله عليه وآله» عن أن يكون له الحق بالمطالبة بديات أو بقصاص، ما دام أن المسألة فردية، ولا شيء أكثر من ذلك.

وبذلك يكون قد أحرج النبي «صلى الله عليه وآله»، واضطره إلى إمضاء هذا الجوار، فإذا ظهر أن أحداً قد ارتكب جرماً، فإن الجوار الذي شمله سوف يمنع من إجراء أي حكم عليه..

ولو أريد فعل شيء من ذلك؛ فإن إقناع الناس بأن هذا مما لا تصح الإجارة منه سيكون صعباً، وسيحدث بلبلة كبيرة، ويسيء إلى الذهنية العامة، وربما يحدث إرباكاً ضاراً، ويترك آثاراً سلبية لا مجال لتلافيها..

على أن هذا الموقف من شأنه أن يظهر أبا سفيان على أنه رجل سلام، يريد حقن الدماء، ويملك مشاعر إنسانية، ومن لا يستجيب لطلبه هذا فإنه يكون متهماً في ذلك كله.

فطلب من أبي بكر أن يجير بين الناس، وكذلك من عمر، ومن عثمان ومن سعد بن عبادة، وعلي «عليه السلام»، وأشراف المهاجرين والأنصار. وكان يسمع منهم جميعاً رفضاً لهذا الأمر أكيداً، وشديداً.

فتوسل بالزهراء «عليها السلام»، ثم توسل بالسبطين الحسن والحسين «صلوات الله وسلامه عليهما»، فلم يُجده هذا التوسل نفعاً، بل كان الجواب دائماً هو الرفض الأكيد، والشديد..

التدبير الصارم:

ونحن لا نشك في أن رفض جميع هؤلاء الذين سبقت أسماؤهم إنما هو بسبب أن الجميع كان قد عرف حدَّه، وألزمه الشرع بالوقوف عنده، أو لم يترك له أي سبيل يستطيع أن ينفذ منه.

وقد ظهر ذلك من إخبار رسول الله «صلى الله عليه وآله» لهم بالغيب الإلهي: بأن أبا سفيان سيرجع بسخطه، فلم يعد أحد ليجرؤ على قبول شيء يأتيه به أبو سفيان، لأنه يعرف أن الوحي سوف يفضح أمره، وأن النبي «صلى الله عليه وآله» لن يقبل بأي شيء يطلبه أبو سفيان.. ما دام أن هذا القبول سيكون ضد القرار الإلهي بإرجاع أبي سفيان ساخطاً..

فلم يعد الإصرار يشبه أبداً ما جرى في غزوة بدر من تطاول على مقام النبوة، ومن سعي لانتهاك حرمة الحكم الشرعي الإلهي في أمر الأسرى..

وكذلك ما جرى في أحد وفي سواها من مواقف وتحركات تدخل في هذا السياق، فإن الأمور قد جرت في سياق استطاع أن يفضح هؤلاء في مواقفهم.

ورأى الناس بأم أعينهم في أكثر من مناسبة عدم صحة ما يدَّعيه هؤلاء الناس لأنفسهم من شجاعة وإخلاص والتزام.. وقد تجلى ذلك بصورة واضحة وفاضحة في الخندق، وخيبر، وقريظة وغير ذلك..

وقد عولجت تصرفات وتحركات هؤلاء الناس بصورة استطاعت أن تزيد من فضيحتهم، وظهور خطل رأيهم، وحقيقة ما يسعون إليه..

مواقف مزعومة، بل موهومة:

وقد زعمت النصوص المتقدمة: أن أبا بكر قد قال لأبي سفيان: والله، لو أن الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم..

وأن عمر بن الخطاب قال: أنا أشفع لكم عند رسول الله؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، وما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله، وما كان منه متيناً فقطعه الله، وما كان منه موصولاً فلا وصله الله.

فقال أبو سفيان: جوزيت من ذي رحم شراً.

ونحن نشك في صحة هذه المزاعم:

أولاً: ليس في كلام أبي سفيان ما يشير إلى أنه يطلب شفاعته عند رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فما معنى قول عمر له: «أنا أشفع لكم عند رسول الله»؟!

ثانياً: لم يصرح أبو سفيان بأن الشفاعة كانت لهم فلعله يقصد الجوار لمن يتقاتلون فيما بينهم من العرب، فإن دخولهم في جوار المسلمين يمنع الطرف المعتدي من مواصلة عدوانه.

ثالثاً: قد تقدم: أن أبا سفيان يعبر عن عمر (كما ورد في بعض النصوص دون بعضها الآخر): أنه أدنى العدو، وهي كلمة تشير إلى أن عمر كان أقرب إلى قريش من سائر صحابة النبي «صلى الله عليه وآله»..

رابعاً: إن ما نعرفه عن هذين الرجلين هو سعيهما في المواقع الحساسة إلى التخفيف من الوطأة على قريش، وحفظ موقعيتها.

كما أن قريشاً كانت تهتم بسلامتها قدر الإمكان.

فلاحظ ما يلي:

١ ـ في بدر يستشير النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه في أمر الحرب، فيقول أبو بكر كلاماً من شأنه أن يضعف عزائم المسلمين: «إنها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، وما ذلت منذ عزت» أو نحو ذلك.

وكذلك قال عمر بن الخطاب[1].

٢ ـ وسيأتي أنه حاول منع النبي «صلى الله عليه وآله» من غزو مكة، وقال: «قلت: يا رسول الله، هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني»[2].

٣ ـ وفي حرب أحد: ضرب ضرار بن الخطاب الفهري عمر بن الخطاب بالقناة حين هزم المسلمون، وقال له: يا ابن الخطاب إنها نعمة

---

(١) راجع: البحار ج١٩ ص٢١٧ و ٢٧٤ والمغازي للواقدي ج١ ص٤٨ والسيرة الحلبية ج٢ ص١٠٥ والدر المنثور ج٣ ص١٦٦ عن دلائل النبوة للبيهقي، وتفسير القمي ج١ ص٢٥٨ وشرح النهج للمعتزلي ج١٤ ص١١٢ وعن عيون الأثر ج١ ص٣٢٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٢٦ وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر ج٥ ص١٧٠ و (ط أخرى) ج٣ ص١٤٠٣، ومسند أحمد ج٣ ص٢١٩ بطريقين، وعن الجمع بين الصحيحين، والبداية والنهاية ج٣ ص٢٦٣، والسيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٣٩٤ وتفسير أبي حمزة الثمالي ص١٨١ وتفسير مجمع البيان (ط مؤسسة الأعلمي) ج٤ ص٤٣٢ والتفسير الصافي ج٢ ص٢٧٤ والتفسير الأصفى ج١ ص٤٢٥ وتفسير نور الثقلين ج٢ ص١٢٤ وتفسير الميزان ج٩ ص٢٥ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج٢ ص١١٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٨ وعن المصنف لابن أبي شيبة ج١٤ ص٥٠٦ و (ط دار الفكر) ج٨ ص٥٤٢ وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج١٠ ص٥٢٩ و (ط دار الفكر) ج١ ص٢١٠٤ وجامع الأحاديث والمراسيل ج٢١ ص٤٢٣ .

مشكورة، ما كنت لأقتلك"[1].

فما هذا الغزل الظاهر بين ضرار وعمر؟!

وقد ذكر ابن سلام: أن هذه كانت يداً له عند عمر يكافئه عليها حين استخلف[2].

٤ ـ سعي أبي بكر لتخليص أسرى بدر من القتل، رغم إصرار النبي «صلى الله عليه وآله» على قتلهم، حتى لقد نزلت الآيات في ذلك.

وهو أمر لا بد من أن تشكره عليه قريش مدى الحياة[3].

قال الواقدي عن الأسرى: إنهم قالوا: لو بعثنا لأبي بكر، فإنه أوصل قريش لأرحامنا، ولا نعلم أحداً آثر عند محمد منه. فبعثوا إلى أبي بكر، فأتاهم، فكلموه.

فقال: نعم، إن شاء الله، لا آلوكم خيراً.

وانصرف إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وجعل يلينه، ويفثؤه، ويقول: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قومك فيهم الآباء والأبناء،

---

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٢٨٢ وشرح النهج للمعتزلي ج١٤ ص٢٧٤ وج١٥ ص٢٠ عنه، وعن ابن إسحاق، والبلاذري، وطبقات الشعراء لابن سلام ص٦٣ وراجع: البداية والنهاية ج٣ ص١٠٧ عن ابن هشام، والبحار ج٢٠ ص١٣٥ و ١٣٨ ومناقب أهل البيت «عليهم السلام» للشيرواني ص٣٣٢ وشرح النهج للمعتزلي ج١٤ ص٢٧٤ وج١٥ ص٢٠ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٤ ص٣٩٣ و ٣٩٧ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج٢ ص٥٠٠ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٢ ص٦٢٨.

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص٦٣.

(٣) مصادر ذلك كثيرة، فراجع هذا الكتاب: غزوة بدر، فصل الغنائم والأسرى.

والعمومة، والإخوان وبنو العم، وأبعدهم عنك قريب فامنن عليهم، منَّ الله عليك، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك..

ثم قام فتنحى ناحية، ولم يجب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ثم عاد إليه، فقال له مثل مقالته الأولى، وقال أيضاً: لا تكن أول من يستأصلهم، يهديهم الله خير من أن تهلكهم. فسكت رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وتنحى أبو بكر ناحية، ثم عاد إليه، فأعاد عليه نفس الكلام[1].

٥ ـ ما معنى: أن يهنئ أبو سفيان عمر بن الخطاب بانتصار المشركين في أُحد، ويقول له: أنعمت عيناً، قتلى بقتلى بدر[2].

وما معنى قول أبي سفيان لعمر آنئذٍ: إنها قد أنعمت يا ابن الخطاب، فيقول عمر: إنها[3].

٦ ـ إن خالد بن الوليد رأى عمر بن الخطاب في أحد، وكان خالد في كتيبة خشناء، فما عرف عمر أحد غيره، قال خالد: فنكبت عنه، وخشيت

---

(١) راجع: المغازي ج١ ص١٠٧ ـ ١٠٩ وشرح النهج للمعتزلي ج١٤ ص١٧٣ و ١٧٤ وإمتاع الأسماع للمقريزي ج٩ ص٢٤٤.

(٢) المصنف للصنعاني ج٥ ص٣٦٦ وتفسير القرآن للصنعاني ج١ ص١٣٦ وإمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص١٧١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٤١٢ والأوائل لأبي هلال العسكري ج١ ص١٨٤ و ١٨٥ وشرح النهج للمعتزلي ج١٥ ص٣١ وإمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص١٧١.

إن أغريت به من معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجهاً إلى الشعب[١].

٧ ـ إن عمر قد أخبر أبا سفيان: بأن النبي «صلى الله عليه وآله» لا يزال على قيد الحياة، رغم أنه «صلى الله عليه وآله» قد نهى عن ذلك. فقال أبو سفيان لعمر: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر[٢].

فلماذا كان عمر أبرَّ بأبي سفيان من ابن قميئة، مع أن عمر كان في صفوف المحاربين له، وابن قميئة كان يحارب معه، وتحت لوائه؟!

وفي مقام وضع اللمسات الأخيرة على حقيقة موقف هذين الرجلين، نقول:

قد يكون مما يثير الشبهة أيضاً: توافق أبي بكر وعمر في حديثهما عن الذر المقاتل للمشركين، والعنف الذي أظهراه في خصوص هذه الواقعة، في حين اكتفى كل من عداهما، ومنهم فاطمة وعلي «عليهما السلام» بالرد بالقول: بأن جوارهم جوار رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أو أنه لا يجير على رسول الله «صلى الله عليه وآله» أحد..

مع أننا لا نشاهد لدى هذين الرجلين طيلة حياتهما مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» أي نشاط قتالي مميز، أو أي أثر لنكاية كانت لهما في

---

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٢٩٧ وشرح النهج للمعتزلي ج١٥ ص٢٣.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٤٠ ووفاء الوفاء ج١ ص٢٩٤ والسيرة الحلبية ج١ ص٢٤٤ و ٢٤٥ وسيرة ابن إسحاق ج٣ ص٣٠٩ وتاريخ الأمم والملوك (ط الإستقامة) ج٢ ص٢٠٥ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٦٠ والثقات ج١ ص٢٣٢ وراجع: شرح الأخبار ج١ ص٢٨٠ تفسير القرآن العظيم ج١ ص٤١٤ و ٤١٥.

المشركين. رغم حضورهما جميع المشاهد معه «صلى الله عليه وآله».

بل ظهر منهما الكثير من موارد الضعف، والوهن، وقد فرا في مواطن كثيرة، مثل أحد، وقريظة، وخيبر، وحنين. وذات السلاسل وغير ذلك. وقعدا عن مبارزة الأبطال مثل عمرو بن عبد ود، ومرحب.

جواري جوار رسول الله:

وتقدم: أن أبا سفيان أصرَّ على الحصول على جوار من أحد صحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله».. وأجابه المسلمون بأن أحداً لا يجير على النبي «صلى الله عليه وآله»، أو أن جوارهم جوار رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وهذا يدل على أنهم فهموا: أن مطلوب أبي سفيان هو الجوار الملزم لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، والمقيد لحركته، فهو المستهدف بهذا الجوار، والمطلوب هو منعه به عن إجراء مقاصده حين يقتضي الأمر ذلك..

وذلك يشير إلى مدى وقاحة هذا الرجل، وقلة حيائه ورعونته، حتى لقد أحرج بهذا الأمر أولئك الذين عملوا على منع القتل عن أسرى بدر حسبما قدمناه، فما ظنه أبو سفيان أكسير الغلبة ظهر له أنه هو إكسير الهزيمة والخذلان، والخزي والخسران..

وقد اكد للناس سوء نوايا أبي سفيان في طلبه هذا أمران:

أحدهما: أنه حيث أجيب بتلك الأجوبة لم يبادر إلى توضيح مراده لأحد كان هناك، ولم يقل لهم أنهم قد أخطأوا في فهم مقصوده.

الثاني: أنه لو كان يقصد حقن دماء الناس حقيقة لكان قد طلب من

النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه أن يجعل الناس في جواره، فإن ذلك يكفي لمنع المعتدين من مواصلة عدوانهم. فلماذا يدعو الآخرين ليجيروا الناس من رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟! أليس لأجل أنهم اقترفوا ما يستحقون به العقوبة منه «صلى الله عليه وآله» ويريد ان يخرجهم من ورطتهم تلك بهذه الطريقة؟! وإذا صح هذا الأمر فلماذا لا يعترف لنا بهوية المجرم وبحقيقة جرمه؟

ثم إنه إذا كان يعتقد: أن الجوار على رسول الله «صلى الله عليه وآله» يعطي من يفعل ذلك وجاهة وعظمة، كما هو الحال عند سائر الناس، فهو في وهم كبير، لأن هذا الأمر لا يجري فيما بين الأنبياء «عليهم السلام»، وبين المؤمنين، لأنه يستبطن الإعلان عن وجود خلل إيماني لدى من يفعل ذلك، من حيث إنه يخطِّئ نبيه في تصرفاته، ويراه ظالماً في موقفه ممن يجيره منه، أو يرى أن ذلك النبي يعمل عملاً مرجوحاً، ويترك ما ينسجم مع العفو والكرم، وحسن الشيم، ومع النبل والشمم..

ولأجل هذا أو ذاك يبادر إلى الحد من قدرته على التصرف، ومحاصرة قراراته، ليمنعه من الغلط والشطط..

وهذا الأمر مرفوض من الناحية الإيمانية، لأنه تشكيك بالعصمة، أو اتهام للنبي «صلى الله عليه وآله» في ميزاته وصفاته، وأنها لا تصل إلى حد الكمال.

ولو كان أبو سفيان يفهم معنى الإيمان، ويدرك ما له من تبعات وآثار ومسؤوليات لما أقدم على هذا الأمر المشين والمهين..

هل تجير الزهراء عليها السلام؟!:

ولم يكن أبو سفيان يرى للسيدة الزهراء «عليها السلام» ما يميزها عن غيرها أكثر من كونها امرأة كسائر النساء، ولم يكن يرى لجوار النساء قيمة وأثراً.. ولكنه حين سدت في وجهه المذاهب لجأ إليها على أمل أن تستجيب لطلبه بسبب ما توهمه منها من غفلة عما يتنبه له الرجال المتمرسون، والدهاة المجربون ، أو لعدم قدرتها ـ بزعمه ـ على إدراك الأمور وتقديرها بسبب قلة معرفتها بالسياسات، وبأعراف الناس.

فإذا استجابت لطلبه، فإنها سوف تحرج أباها، وقد يوافق على طلبها من وجهة نظر عاطفية، بسبب موقعها منه «صلى الله عليه وآله» من ناحية النسب، ومن ناحية المكانة والكرامة..

وقد فوجئ برفضها القائم على أساس البرهان، حيث قالت له: «إنما أنا امرأة». أي: ولا يحق للمرأة أن تتصدى لأمر كهذا بزعمك فلماذا تريد أن تدفعني إلى أمر لا تؤمن أنت به؟!

قد أجارت أختك:

ولكن أبا سفيان يستدرك الأمر، ويقدم تبريراً لتصرفه هذا حين احتج عليها بإجارة زينب لزوجها أبي العاص بن الربيع، وقد قبل «صلى الله عليه وآله» ذلك منها.

فجاءه جواب الزهراء المعصومة «عليها السلام» ليفند قوله، ويؤكد له أنها «عليها السلام» تدرك الفرق بين ما فعلته زينب، وبين هذا الذي يطلبه هو منها، فقالت كلمة واحدة، كانت حاسمة ونهائية وهي: إنما ذاك إلى

رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

إنها تريد أن تقول: إن زينب حين أجارت أبا العاص بن الربيع، فإنما أرادت أن تمنع الناس من التعرض لأبي العاص، إلى أن يبت النبي «صلى الله عليه وآله» في أمره، ويصدر عليه حكمه. ولم ترد أن تمنع رسول الله «صلى الله عليه وآله» من إجراء حكم الله تعالى في حقه.

وهذا بالذات هو نفس ما فعلته أم هاني حين أجارت بعض من أهدر النبي «صلى الله عليه وآله» دمهم، ولم تكن تعلم بذلك. كما أنها لم تعرف أن الذي يريد تنفيذ أمر النبي «صلى الله عليه وآله» هو أخوها علي «عليه السلام».

فأرادت حفظ نفس أولئك الأشخاص من سائر أفراد الجيش إلى أن يرى فيهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» رأيه، ويصدر عليهم حكمه كما سيأتي.

أما أبو سفيان فيريد منها أن تجير الناس، ليمنع بذلك رسول الله «صلى الله عليه وآله» من مجازاة المعتدي، ولتطلّ بذلك دماء الأبرياء من صبيان ونساء، وضعفاء خزاعة.. وشتان ما بين الأمرين.

أخت الزهراء عليها السلام:

وعلينا أن لا ننسى: أن تعبير أبي سفيان عن زينب: بأنها أخت الزهراء «عليها السلام» إنما جاء وفق ما كان متداولاً بين الناس، من التعبير عمن تنشأ في بيت كافلها بعد أن مات ابوها الحقيقي، فإنها تنسب إلى ذلك الكافل بعبارات البنوة، وتضاف إلى أبنائه بتعابير الأخوة.. حيث يكون المقصود هو البنوة بالتربية، وكذلك الأخوة.

مُري ابنك:

ولعل ما ذكرناه آنفاً حول طلب أبي سفيان من فاطمة «عليها السلام» أن تجير بين الناس، يغني عن التعليق على طلب أبي سفيان منها «عليها السلام» أن تأمر ابنها الحسن «عليه السلام»، الذي كان بعمر الخمس سنوات، أن يجير بين الناس، فإن الكلام هنا هو نفسه الكلام هناك.

غير أننا نقول: إن علينا أن نضيف هنا ما يلي:

أولاً: إن أبا سفيان يغري فاطمة بالإقدام على هذا الأمر بمنطق أن ذلك يجعل ولدها سيد العرب إلى آخر الدهر.

نعم، وهذا هو منطق أهل الدنيا، الذين يقيسون الأمور بمقاييس السمعة، والشهرة، والسيادة، والمال، والجاه، وما إلى ذلك..

وذلك هو منطق أبي سفيان، لأنه من أهل الدنيا. وأما منطق العقل والدين، والشرع، ورضا الله تعالى والقيم الإنسانية، والمشاعر النبيلة، والمبادئ والخصال الحميدة، ونحوها. فهو الذي تلتزم به فاطمة «عليها السلام»، وتؤمن به، وتنطلق في مواقفها منه. لأنها من أهل الدين والشرع، والقيم الإنسانية، والعقل والأخلاق الفاضلة، والمزايا النبيلة..

ثانياً: إن الإمام الحسن «عليه السلام» كان كبيراً في نفسه وفق مقاييس أهل العقل والحكمة والإيمان، وقد بايعه النبي «صلى الله عليه وآله» في بيعة الرضوان، وأشهده على كتاب ثقيف، وأخرجه يوم المباهلة بأمر من الله، وجعله شريكاً في الدعوة، ويتحمل مسؤولية إثباتها.. وغير ذلك..

ولكن هذه لم تكن نظرة أبي سفيان إلى الإمام الحسن «عليه السلام»، بل هو ينظر إليه على أنه طفل كسائر أطفال الناس، ويريد أن يستفيد منه

كوسيلة يصل من خلالها إلى مآربه، فيحرج به رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويثير الشبهات والإشكالات حول صحة وسلامة ما يتخذه «صلى الله عليه وآله» من مواقف..

ولأجل ذلك خاطبته الزهراء «عليها السلام» بما ينسجم مع نظرته هذه، وقالت له: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس.

ثم تقدمت خطوة أخرى في بيانها، لتاكيد بطلان منطق أبي سفيان فقالت: «ما يدري ابناي ما يجيران من قريش».

فإن هذه الكلمة أيضاً قد صدرت وفق منطق أبي سفيان الذي يعتبر الحسنين «عليهما السلام» مجرد طفلين صغيرين، لا يحملان في نفسيهما أية ميزة على غيرهما.

فهما في نظره لا يملكان من التعقل ما يكفي لإدراك معنى ما يتفوهان به، فهما إذن غير قادرين على إدراك معاني الكلمات، فضلاً عن أن يقصدا معانيها، ليصبح لتلك المعاني تحقق في مقام التخاطب، يصلح لترتيب الآثار عليه، والمطالبة به، والإشارة إليه. فهو من قبيل القضية السالبة بانتفاء موضوعها.

هما صبيان:

قال الحلبي: «قول فاطمة في حق ابنيها: إنهما صبيان ليس مثلهما يجير هو الموافق لما عليه أئمتنا، من أن شرط من يؤمِّن أن يكون مكلفاً.

وأما قولها: وإنما أنا امرأة، فلا يوافق عليه أئمتنا، من أن للمرأة والعبد أن يؤمِّنا؛ لأن شرط المؤمِّن عند أئمتنا أن يكون مسلماً، مكلفاً، مختاراً. وقد

أمّنت زينب بنت النبي «صلى الله عليه وآله» زوجها أبا العاص ابن الربيع، وقال «صلى الله عليه وآله»: قد أجرنا من أجرت.

وقال: المؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم..».

إلى أن قال: «إن أم هاني أجارت، وإنه «صلى الله عليه وآله» قال لها: أجرنا من أجرت يا أم هاني.

لكن سيأتي: أن هذا كان تأكيداً للأمان الذي وقع منه «صلى الله عليه وآله» لأهل مكة، لا أمان مبتدأ»(١).

ونقول:

أولاً: إننا نعتقد: أن جواب الزهراء «عليها السلام» الذي يشير إلى أن الحسنين «عليهما السلام» لا يجيران، وبالنسبة لنفسها أيضاً، قد جاء على سبيل الجري على ما كان يراه أبو سفيان، ومن هم على شاكلته، فإنه إذا كان يرى: أن المرأة لا جوار لها، ويرى: أن الحسنين «عليهما السلام» كانا صبيين لا يجوز جوارهما عنده، فلماذا يريد من هذه المرأة، ومن ذلك الصبي أن يجير بين الناس؟!

ثانياً: إن للجوار مسؤولياته وتبعاته، لأن المجير يتكفل بمن يجير، ويتحمل أعباء وتبعات ما صدر منه.. ولم يكن ذلك ممكنا بالنسبة لفاطمة والحسنين «عليهم السلام»، فهناك قتلى وتعديات وظلم وقهر.

وقريش تنكر ذلك وتجحده، وتمتنع عن الالتزام بأدنى شروط الجوار.. لأنها ترفض تحمل ديات المقتولين، أو البراءة من حلف من تعدى ونقض العهد..

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٣.

فما معنى: أن تتحمل فاطمة والحسنان «عليهم السلام» هذه الديات عن أولئك المجرمين؟!

وما معنى: حفظ مرتكب الجريمة، وصيانته عن التعرض للجزاء والقصاص العادل؟!

ثالثاً: إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد قبل من الحسنين «عليهما السلام» البيعة في الحديبية[1]، وقد كان سنهما لا يتجاوز السنتين أو الثلاث.. وأشهدهما على كتاب ثقيف[2].

قريش في مأزق:

وقد بينت عبارة السيدة الصديقة فاطمة الزهراء «عليها السلام»: «ما يدري ابناي ما يجيران في قريش»: أن أبا سفيان يتستر على امر كان معروفاً لدى الناس.. وهو أن قريشاً في مأزق، ويريد بهذا الجوار إخراجها منه. وإن استخدامه عبارات غائمة وعامة، لا يجدي في تعمية الأمور..

---

(١) الإحتجاج ج٢ ص٢٤٥ والبحار ج٥٠ ص٧٨ عنه، والإرشاد للمفيد ص٣٦٣ وتفسير القمي ج١ ص١٨٤ و ١٨٥ وينابيع المودة ص٣٧٥ وترجمة الإمام الحسين لابن عساكر (بتحقيق المحمودي) ص١٥٠ والمعجم الكبير للطبراني وحياة الصحابة ج١ ص٢٥٠ ومجمع الزوائد ج٦ ص٤٠ والعقد الفريد ج٤ ص٣٨٤.

(٢) الأموال لأبي عبيد ص٢٨٩ و ٢٩٠ وراجع: التراتيب الإدارية ج١ ص٢٧٤ والطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٨٤ ومكاتيب الرسول ج٣ ص٥٨ وسبل الهدى والرشاد ج١١ ص٣٧٣.

فالمطلوب هو تحصيل جوار لفئة من قريش ترى نفسها في دائرة الخطر، ولكن أبا سفيان يحاول أن يتذاكى عليهم، فيطلق كلامه على شكل عمومات، فيطلب من هذا أو ذاك أن يجير بين الناس. وهذه الكلمة تنطبق على القرشي وعلى غيره..

كلمي علياً:

ونستطيع أن نلمح في طلب أبي سفيان من السيدة الصديقة الطاهرة المعصومة فاطمة الزهراء «عليها السلام» أن تكلم علياً صلوات الله وسلامه عليه في أمر الجوار: أن أبا سفيان كان يحسب لعلي «عليه السلام» حساباً خاصاً به.. فهو يقترب في طريقة تعامله معه من طريقة تعامله مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

فكما حاول أن يستفيد من موقع أم حبيبة زوجة الرسول «صلى الله عليه وآله»، حاول أيضاً أن يستفيد من موقع فاطمة لدى علي «عليهما السلام» فطلب منها أن تكلم هي علياً..

ولكنها رفضت طلبه، لأنه لو كان يرى أن طلبه طلب حق، أو كان فيه أي أثر للرجحان، لبادر إلى مطالبة علي «عليه السلام» بل والنبي «صلى الله عليه وآله» بالعمل بهذا الحق، والأمر الراجح.

ولكنه أراد أن يحصل على ما يريد بأساليب الضغط العاطفي، أو من خلال المراعاة لدواعي النسب، وفي غير ذلك من أمور تقع خارج دائرة الإنصاف، والحكمة، والتعقل، ورعاية الصالح العام، والعمل بما يرضي الله تبارك وتعالى، بل هي خارج دائرة الإلتزام بالمعاني الإنسانية والأخلاقية أيضاً..

سيد كنانة!! يطلب النصيحة!!:

وأول طلب وضعه أمام الإمام علي «عليه السلام» هو النصيحة منه. ولا شك في أن هذا الطلب من أبي سفيان غريب وعجيب، لا لأن علياً «عليه السلام» يبخل بالنصيحة على أي كان من الناس.. فحاشا علياً «عليه السلام» أن يبخل بأمر كهذا..

بل لأن هذا الرجل لا يريد النصيحة بالحق، بل يريد النصيحة التي تعزز وتقوي، وتنتج تضييعاً للحق، وتزويراً للحقيقة، وظلماً آخر لأولئك الأبرياء من خزاعة، والذين كان أكثرهم من الصبيان، والنساء، والضعفاء. وتقوية ونصراً لظالمهم، ومرتكب الجريمة البشعة والفظيعة بحقهم.

والغريب في الأمر: أن يطلب أبو سفيان هذه النصيحة التي هي بهذه المثابة من نفس ذلك المعني بالحفاظ على حقوق الناس، ويفترض فيه أن ينصر المظلوم، وأن يأخذ بحقه من ظالمه!!

وكانت نصيحة علي «عليه السلام» تقضي: بحمله عن الكف عن هذا السعي الظالم، والقائم على الخديعة والمكر حتى لنبي الله «صلى الله عليه وآله».

وتتلخص الطريقة التي اعتمدها بتذكير أبي سفيان بما يعتقده لنفسه، من مكانة في كنانة كلها، فأقر بأنه هو سيد كنانة.

ثم إنه «عليه السلام» ألزمه بمقتضيات هذه السيادة التي يعطيها لنفسه، لو كان صادقاً فيما يدَّعيه، ومنها أن يقبل الناس جواره.

ولكن أبا سفيان كان يعرف أن هذه السيادة التي يدَّعيها ليست بهذه المثابة، ولا تكفي لتحقيق الغرض الذي سعى إليه، ولكنه سأل علياً «عليه

السلام» إن كان ذلك يحقق له ما يريد، فعسى أو لعل!!

فأجابه علي «عليه السلام» بما يجلب اليأس والأسى إلى قلبه، وهو: أنه لا يرى ذلك مغنياً عنه شيئاً، ولكنه لا يجد له سبيلاً للخروج من حيرته غير ذلك..

وربما يكون الهدف من ذلك هو إفهام أبي سفيان أن ما يزعمه لنفسه من موقع وزعامة ليس سوى مجرد خيال، ووهم، وقد تغيرت الأمور، وأصبح للزعامة معايير أخرى، لا بد من مراعاتها، والإلتزام بمقتضياتها.. وفهم هذه الحقيقة لا بد من أن يكون مفيداً جداً لأبي سفيان، وسوف يعينه كثيراً على الخروج من أجواء الوهم والخيال التي وضع نفسه فيها.

قريش تتهم زعيمها:

إن من الواضح: أن المشركين كانوا لا يثقون ببعضهم البعض، لأن دواعي الثقة وموجباتها عندهم مفقودة.. أما مجتمع أهل الإيمان فيعيش الثقة لأن موجباتها متوفرة فيه.

فهناك الإيمان بالله، والالتزام بشرائعه وأحكامه، التماساً لرضاه، وطمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه.

وهو يملك ثروة ثمينة جداً من المبادئ والقيم التي تحكم مسيرة الإنسان، وتهيمن على حركته وعلى مواقفه في الحياة. وهناك الفضائل النفسية، والكمالات التي يربيها وينميها اهل الدين في داخل نفوسهم، ويبنون من خلالها ميزاتهم، وملكاتهم، التي تطبع شخصياتهم بطابعها..

وهناك الإلزامات الدينية الحازمة والحاسمة، فيما يرتبط بطبيعة تعامل

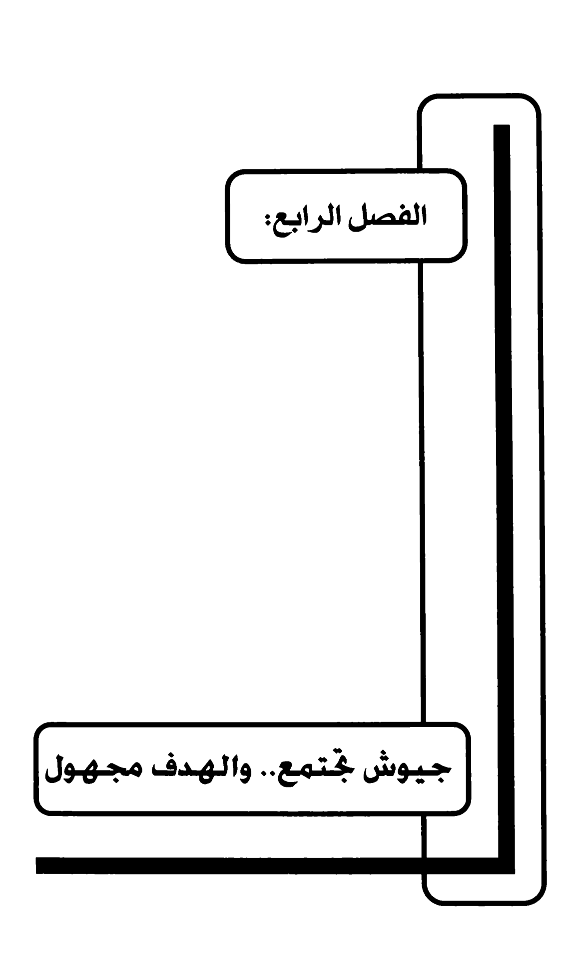
أهل الإيمان مع بعضهم، ومع الآخرين..

نعم، إن ذلك كله ينتج درجة عالية من الاعتماد، ورؤية واضحة لمسار الأمور، فيما يرتبط بتعهدات الآخرين، ووفائهم بالتزاماتهم، وقيامهم بواجباتهم الدينية والأخلاقية..

ولكن ذلك كله مفقود في مجتمع الشرك والكفر. وتبقى الضمانة لتعهدات الأشخاص عندهم في مهب رياح المصالح والأهواء، ومحكومة للنزوات والأهواء والشهوات والميول، ولتقلبات الأمزجة الفردية..

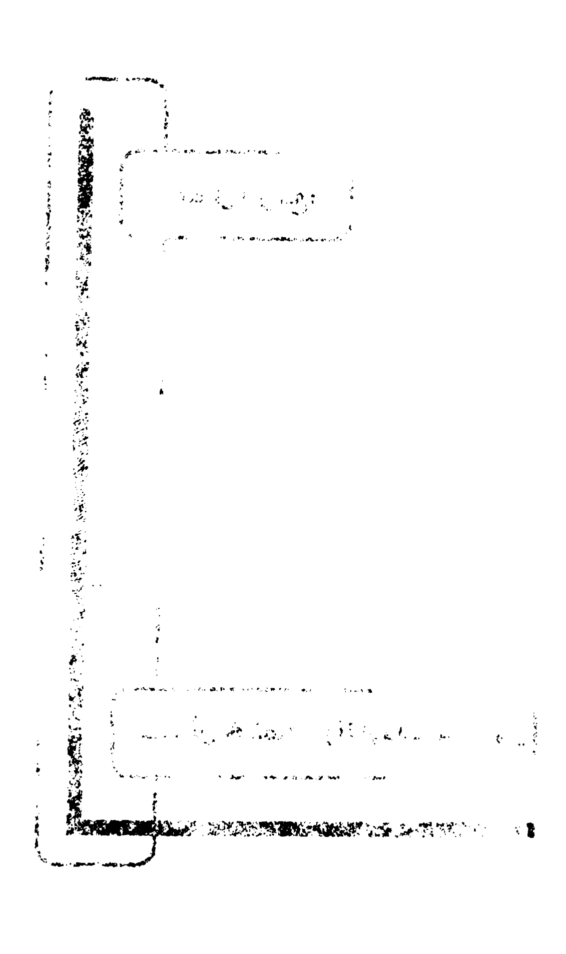
ولأجل ذلك نلاحظ: أن المشركين يتهمون حتى زعيمهم أبا سفيان أشد التهمة، لمجرد زيادة غيبته عن المدة التي يتوقعونها، ويقولون عنه: إنه قد صبأ، واتبع محمداً سرَّاً، وكتم إسلامه.

وقد بلغت هذه التهمة من القوة والشدة حداً اضطر معه هذا الزعيم إلى أن يحلق رأسه عند أساف ونائلة، وأن يذبح لهما، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما (كذا)، ويقول: «لا أفارق عبادتكما، حتى أموت على ما مات عليه أبي»، إبراءً لقريش مما اتهموه به.



الفصل الرابع:

جيوش تجتمع.. والهدف مجهول



استشارة أبي بكر وعمر في أمر مكة:

عن محمد بن الحنفية ـ رحمه الله ـ عن أبي مالك الاشجعي قال: «خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» من بعض حجره، فجلس عند بابها. وكان إذا جلس وحده لم ياته أحد حتى يدعوه، فقال: «ادع لي أبا بكر».

فجاء، فجلس أبو بكر بين يديه، فناجاه طويلاً، ثم أمره فجلس عن يمينه.

ثم قال: «ادع لي عمر».

فجاء فجلس إلى أبي بكر، فناجاه طويلاً، فرفع عمر صوته، فقال: «يا رسول الله، هم رأس الكفر، هم الذين زعموا أنك ساحر، وأنك كاهن، وأنك كذاب، وأنك مفتر»، ولم يدع عمر شيئاً مما كان أهل مكة يقولونه إلا ذكره.

فأمره أن يجلس إلى الجانب الآخر، فجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله.

ثم دعا الناس، فقال: «ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين»؟

فقالوا: نعم يا رسول الله.

فأقبل بوجهه إلى أبي بكر، فقال: «إن إبراهيم كان ألين في الله تعالى من

الدهن اللين».

ثم أقبل على عمر، فقال: «إن نوحاً كان أشد في الله من الحجر، وإن الأمر أمر عمر، فتجهزوا وتعاونوا».

فتبعوا أبا بكر، فقالوا: يا أبا بكر، إنَّا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله «صلى الله عليه وآله».

قال: قال لي: كيف تأمرني في غزو مكة؟

قال: قلت: يا رسول الله!! هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني.

ثم دعا عمر، فقال عمر: هم رأس الكفر، حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه. وأيم الله، وأيم الله، لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة، وقد أمركم بالجهاد ليغزو مكة»[1].

ونقول:

إننا نشك في هذه الاستشارة، حيث سيأتي: أن النبي «صلى الله عليه وآله» أمر عائشة بتجهيزه، وأن أبا بكر لم يكن يعلم بشيء، حتى أخبرته ابنته.

وقد اعتذر الحلبي عن ذلك: بأن الاستشارة قد وقعت بعد أمره لعائشة بذلك[2].

وهو اعتذار غير مقبول.. إلا إذا كانت الاستشارة صورية، تهدف إلى

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٨ عن ابن أبي شيبة، ومسند أحمد ج٣ ص٣٩٨ والمصنف لابن أبي شيبة ج١٤ ص٥٠٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤.

تأليف أبي بكر، أو أنه أراد أن يكشف دخيلته للناس.

وقد يؤيد ذلك: ما ذكره من أنه أشار بعدم السير، وقوله: هم قومك[1].

إذ كيف يرى رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتجهز ويأمر بذلك، ثم يشير عليه بخلاف ما عزم عليه، فهل يرى أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يفعل ما يفعل من عند نفسه؟! أم أنه يرى نفسه فوق الوحي، وفوق رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!

أبو بكر يفشي سرّ رسول الله ﷺ:

ومع غض النظر عما تقدم، نقول:

أولاً: إن هذه الرواية قد تضمنت إقدام أبي بكر على أمر غير مقبول منه تجاه رسول الله «صلى الله عليه وآله».. فهو قد أفشى سرّاً ائتمنه عليه.

وذلك لأن الرواية تقول: إنه «صلى الله عليه وآله» جلس على انفراد، ثم استدعاه إليه، وناجاه بسرِّه هذا، ثم ناجى به عمر بن الخطاب، ثم دعا الناس للجلوس إليه، ثم كلمهم بكلام لا يشي بشيء من حقيقة وجهة سيره، باستثناء قوله: «تجهزوا وتعاونوا».

فما معنى: أن يخبرهم أبو بكر بأمر كتمه عنهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!

وأين يقع التصرف الخاطئ هذا من موقف فاطمة الزهراء بنت رسول الله «صلوات الله وسلامه عليه وعليها وعلى آلهما الطيبين الطاهرين» مع عائشة بنت أبي بكر، حين أقبلت فاطمة إليه، فأجلسها عن يمينه، ثم أسرَّ

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤.

إليها بأمر فبكت، ثم أسرَّ إليها بآخر فضحكت، فسألتها عائشة عما قال «صلى الله عليه وآله».

فقالت «عليها السلام»: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

وقد استمرت على كتمان هذا السرّ حتى قبض «صلى الله عليه وآله»[1].

---

(١) صحيح البخاري (ط مطبعة الأميرية) ج٤ ص٢٠٣ وصحيح مسلم ج٧ ص١٤٢ ومسند الطيالسي ص١٩٦ وطبقات ابن سعد ج٨ ص٢٦ وحلية الأولياء ج٢ ص٣٩ والخصائص للنسائي (ط دار التقدم بمصر) ص٣٤ ومصابيح السنة (ط دار الخيرية بمصر) ج٢ ص٢٠٤ ومسند أحمد ج٦ ص٢٨٢ وأنساب الأشراف ج١ ص٥٥٢ وصفة الصفوة (ط حيدرآباد) ج٢ ص٥ وطرح التثريب ج١ ص١٤٩ والمختار من مناقب الأخيار (ط دمشق) ص٥٦ ونظم درر السمطين ص١٧٩ وتذكرة الخواص ص٣١٩ ومنتخب تاريخ ابن عساكر ج١ (ط الترقي بدمشق) ص٢٩٨ والبداية والنهاية ج٥ ص٢٢٦ وجمع الفوائد ج٢ ص٢٣٣ وتكملة المنهل العذب المورود ج٣ ص٢٢٢ والثغور الباسمة (ط بمبي) ص١٣ وأشعة اللمعات في شرح المشكاة ج٤ ص٦٩٣ ووسيلة النجاة للمولوي ص٢٢٨ ومرآة المؤمنين ص١٩٠ وأضواء على الصحيحين ص٣٤٥ وفضائل الصحابة ص٧٧ وسنن ابن ماجة ج١ ص٥١٨ ومسند أبي يعلى ج١٢ ص١١٢ والمعجم الكبير ج٢٢ ص٤١٩ وعن أسد الغابة ج٥ ص٥٢٢ والأوائل للطبراني ص٨٤ وعن المصادر التالية: كتاب الأربعين للماحوزي ص٣١٤ وفتح الباري ج٨ ص١٠٣ ومسند أبي يحيى الكوفي ص٧٩ ومسند ابن راهويه ج٥ ص٧ وعن السنن الكبرى للنسائي ج٥ ص٩٦ و ١٤٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٤ ص٤٤٨ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص١٢٠ وكشف الغمة ج٢ ص٨٠ وسبل الهدى والرشاد ج١١ ص٤٥.

ومن جهة أخرى، سيأتي بعد صفحات يسيرة: أن عائشة تفشي هي الأخرى سرَّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» في نفس غزوة الفتح أيضاً؛ فإنه «صلى الله عليه وآله» قال لها: جهزينا واخفي أمرك..

فهي بمجرد أن دخل عليها أبوها وسألها قائلاً: أمركن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بتجهيزه؟!

قالت: نعم.

وعلينا أن نقارن بين موقف الزهراء «عليها السلام» الآنف الذكر مع عائشة نفسها!! وبين ما فعله أبو بكر وعائشة بإقدامهما على إفشاء سرّ رسول الله «صلى الله عليه وآله»، رغم التفاوت الكبير بين هذا السرّ وذاك.

فسرُّ الزهراء «عليها السلام» يرتبط بأمر شخصي يعود إليه «صلى الله عليه وآله»، ولكن السرَّ الذي أفشاه أبو بكر وعائشة يرتبط بالأمة بأسرها وبالدين كله..

ثانياً: إذا كان «صلى الله عليه وآله» قد دعا عمر ليناجيه، فلماذا يرفع عمر صوته بكلام صريح بما يدور الحديث حوله؟؟ وهل رضي «صلى الله عليه وآله» منه ذلك؟! فإن كان قد رضيه، فما معنى المناجاة به؟!

وإن كان قد سخط ذلك وردعه عنه، فلماذا لم يرتدع، بل استمر رافعاً صوته يعدِّد أقوال أهل مكة فيه «صلى الله عليه وآله»؟!

وإن كان لم يردعه عن أمر قد سخط هذا الإعلان به فلماذا ناجاه به؟! أم أنه عدل عن إرادة كتمان ما ناجاهم به؟ وما هو السبب في هذا العدول؟ هل خاف من عمر؟! أم أنه أراد أن يظهر جرأة عمر، وسوء فعله؟!

ثالثاً: إذا كان عمر قد ارتكب هذه المخالفة الظاهرة لمقاصد رسول الله

«صلى الله عليه وآله»، فلماذا أطراه ذلك الإطراء الكبير، حتى اعتبره مثل نبي الله نوح «عليه السلام»؟!

رابعاً: إذا كان عمر قد رفع صوته معدداً أفاعيل أهل مكة، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالتجهز والتعاون، معتبراً أن الأمر أمر عمر، فإن الأمر سيصبح واضحاً للناس، ولم يعودوا بحاجة إلى سؤال أبي بكر عما ناجاه به النبي «صلى الله عليه وآله»، فإن الكل سوف يفهم: أن الأمر مرتبط بأهل مكة، وأن التجهيز والتعاون هو لأجل إنجاز هذا الأمر.

لأن المفروض هو: أن موقف عمر وموقف أبي بكر متخالفان في أمر واحد، وأن النبي «صلى الله عليه وآله» قد اختار قول عمر..

خامساً: لماذا اختار رسول الله «صلى الله عليه وآله» قول عمر، وترك ما قاله أبو بكر. مع أن أبا بكر ـ حسب زعم الرواية ـ قد أشبه إبراهيم الخليل، الذي كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» مأموراً بالعمل بشريعته «عليه السلام»، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

سادساً: إنه إذا كان إبراهيم «عليه السلام» ألين في الله من الدهن اللين، فهل لم يكن أشد في الله من الحجر الصلد أيضاً؟! فيضع الأمور في مواضعها، فيشتد حين يقتضي الأمر الشدة، ويلين حين يوجب الأمر اللين؟!

ونفس السؤال يرد بالنسبة لنوح «عليه السلام»..

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة النحل.

وأما إذا كان إبراهيم «عليه السلام» ليناً فقط، ولا يشتد حين يكون المطلوب هو الشدة، وكان نوح شديداً، ولا يلين حين يقتضي الأمر اللين، فذلك يعني: أنهما غير متصفين بصفات أهل الإيمان، وأنهما لا يعملان بشرع الله، ولا يراعيان المصالح، ولا يتصفان بأدنى درجات الحكمة والعصمة، فهما لا يستحقان درجة النبوة، لأنهما يفقدان صفات أهل الإيمان من الأساس.

فهل نريد أن نمدح أبا بكر وعمر بقيمة ذم الأنبياء، ونسبة هذه النقائص إليهم؟!

ذل العرب.. وذل أهل مكة:

واللافت هنا: ما نسبوه إلى أبي بكر من القَسَمِ المتكرر حول أمر لا يصح ولا يجوز أن يدخل في دائرة أهداف الأنبياء «عليهم السلام»، فقد قال أبو بكر: «.. وأيم الله، وأيم الله، لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة. وقد أمركم بالجهاد ليغزو مكة..».

إن هدف الأنبياء «عليهم السلام» لا يمكن أن يكون إذلال أحد من الناس، بل مرادهم هو إخراج الناس من ذل العبودية للأهواء والشهوات، ومن ذل عبادة الأصنام والشرك إلى العز بالإسلام، ولا يمكن أن يريد النبي «صلى الله عليه وآله» ذل العرب، بل هو يريد ذل الشرك، والكفر، والانحراف. ولا يريد ذل أهل مكة، بل يريد لهم أن يحترموا أنفسهم، وعقولهم، أن يشعروا بالكرامة الإلهية، وبالتكريم الرباني..

حديث فاطمة عليها السلام كان في عام الفتح أيضاً:

عن أم سلمة: أن النبي «صلى الله عليه وآله» دعا فاطمة عام الفتح، فناجاها فبكت، ثم حدثها فضحكت.

قالت: فلما توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله» سألتها عن بكائها وضحكها.

قالت: أخبرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران، فضحكت[1].

ولكن قال في بعض الروايات: إن ذلك كان بعد الفتح[2].

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي ج٥ ص٣٦٨ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٢٤٨ وجامع الأصول (ط السنة المحمدية بمصر) ج١٠ ص٨٤ ومشكاة المصابيح ج٣ ص٢٦٨ وينابيع المودة (ط إسلامبول) ص١٧٢ والرصف للعاقولي (ط مكتبة الأمل الكويت) ج١ ص٢٨١ وأشعة اللمعات ج٤ ص٧١٤ وتفريح الأحباب (ط دهلي) ص٤٠٨ ومرآة المؤمنين ص١٩٠ والمختار من مناقب الأخيار ص٥٦ ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ج٥ ص٩٧ والثغور الباسمة (ط بمبي) ص١٣ وتيسير الوصول (ط نول كشور) ص٥٩.

(٢) منتخب كنز العمال (بهامش مسند أحمد) ج٥ ص٩٨ والمعجم الكبير ج٢٢ ص٤٢٢ وفضائل سيدة النساء لعمر بن شاهين ص٢٠ وتاريخ دمشق ج٣٣ ص٢٦٩ وكنز العمال ج١٣ ص٦٧٧ وتهذيب الكمال ج١٦ ص٢٧٥ وشرح إحقاق الحق ج١٩ ص٣٨ وج٢٥ ص٨٦.

ونقول:

١ ـ تقدم: أن هذه الرواية قد رويت عن عائشة أيضاً، وأنها هي التي حاولت استنطاق وحمل فاطمة «عليها السلام» على إفشاء سرِّ النبي «صلى الله عليه وآله» حين ناجاها، فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وفي بعض نصوص الحديث: أنه «صلى الله عليه وآله» قال لها: إنها أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت.. وجمعت بعض الروايات بين العبارتين[1].

ولا مانع من أن يتكرر الحدث تارة مع أم سلمة، وأخرى مع عائشة، فتسأل كل واحدة منهما الزهراء «عليها السلام» بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» وتسمع الجواب..

كما أنه لا مانع من حدوث هذا الأمر أكثر من مرة، وأكثر من زمان.

ويحتمل أن تكون أم سلمة قد ذكرت جزءاً من الجواب، وذكرت عائشة الجزء الآخر.

ولا مانع من أن تذكر عائشة كلا الجزأين من جواب النبي «صلى الله

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج٢ ص٦١ وسعد الشموس والأقمار (ط التقدم بمصر سنة ١٣٣٠ هـ) ص١٠٣ والأنوار المحمدية ص١٥٠ وتجهيز الجيش ص٩٨ عن ابن عساكر، وأرجح المطالب ص٢٤١ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص١٢٠ وطبقات ابن سعد ج٢ ص٢٨ وأنساب الأشراف ج١ ص٥٥٢ والخصائص (ط التقدم بمصر) ص٣٤ وصفة الصفوة (ط حيدرآباد) ج٢ ص٥ ومسند أحمد ج٦ ص٢٨٢ وطرح التثريب ج١ ص١٤٩ والمختار في مناقب الأخيار (ط دمشق) ص٥٦ ونظم درر السمطين ص٧٩.

عليه وآله» لفاطمة «عليها السلام»، أو احدهما في مجالس مختلفة.

٢ ـ إن بعض نصوص هذه الحادثة يقول: إنه «صلى الله عليه وآله» قد ذكر لفاطمة «عليها السلام» أن جبرئيل قد عارضه بالقرآن مرتين في ذلك العام، ليدل بذلك على قرب وفاته «صلى الله عليه وآله»، وهكذا كان..

وهذا يخالف رواية أم سلمة السابقة، التي تذكر أن هذه القضية قد حصلت عام الفتح، أي في السنة الثامنة للهجرة، في حين أنه «صلى الله عليه وآله» قد توفي في آخر السنة العاشرة، بناء على أن أول السنة هو ربيع الأول، أو في أوائل السنة الحادية عشرة بناء على أن ابتداء السنة الهجرية هو شهر محرم.

ولكننا ذكرنا: احتمال أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد ناجى فاطمة الزهراء «عليها السلام» في هذا الأمر أكثر من مرة، لحكمة اقتضت ذلك..

٣ ـ إن استثناء مريم بنت عمران ممن تكون فاطمة «عليها السلام» سيدتهن قد ورد في بعض نصوص هذا الحديث دون سائرها.. فهل نسي الرواة هذه الفقرة؟ أم أنهم أهملوها عمداً، لعلمهم بأنها لم تكن في الحديث من الأساس؟

إننا نرجح الاحتمال الثاني، وذلك لما يلي:

ألف: إن الأحاديث الدالة على أن فاطمة سيدة وأفضل نساء أهل الجنة على الإطلاق، متواترة.. وقد وردت في مناسبات كثيرة ومتنوعة، وفي موارد أخرى غير مورد مسارّة النبي «صلى الله عليه وآله» لفاطمة «عليها السلام».

ب: إن بعض نصوص الحديث قد صرحت: بأنها «عليها السلام»

سيدة نساء العالمين[1]. ويدل ذلك على عدم استثناء مريم منهن.

ج: إن الروايات دلت على: أن مريم بنت عمران سيدة نساء عالمها، أما السيدة الزهراء «عليها السلام» فهي سيدة نساء العالمين، من الأولين والآخرين[2].

---

(١) أرجح المطالب ص٢٤١ وتجهيز الجيش (مخطوط) ص٩٦ وجامع الأحاديث للسيوطي ج٧ ص٧٣٤ وأشعة اللمعات في شرح المشكاة (ط لكهنو) ج٤ ص٦٩٣ ووسيلة النجاة ص٢٢٨ وعيون المعجزات ص٥١ ومناقب آل أبي طالب ج٣ ص١٣٧ والطبقات الكبرى ج٨ ص٢٧ وأسد الغابة ج٥ ص٥٢٢ وج٨ ص٢٦٦ واللمعة البيضاء للتبريزي ص٤٦ وشرح إحقاق الحق ج١٠ ص٣٠ وج٢٥ ص٤٨ وج٣٣ ص٢٩٥ والمسانيد لمحمد حياة الأنصاري ج٢ ص٧٢.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ص٧٩ وأمالي الصدوق (ط مؤسسة البعثة) ص٧٨ و ١٧٥ و ٥٧٥ وكمال الدين وتمام النعمة ص٢٥٧ ومعاني الأخبار للصدوق ص١٠٧ ومن لا يحضره الفقيه ج٢ ص٥٧٣ وتهذيب الأحكام ج٦ ص١٠ وروضة الواعظين ص١٠٠ و ١٤٩ وشرح الأخبار ج٣ ص٥٢٠ والمزار لابن المشهدي ص٨٠ والفضائل لابن شاذان ص٩ والمحتضر لحسن بن سليمان الحلي ص١٩٧ والشرف المؤبد ص٥٤ ومناقب الإمام علي لابن المغازلي ص٣٦٨ والصلاة في الكتاب والسنة للريشهري ص٢٠٠ ودلائل الإمامة للطبري ص٨١ و ١٤٩ عن مشكل الآثار ج١ ص٥١، وعن حلية الأولياء ج٢ ص٤٢، وعن ذخائر العقبى ص٤٣. وراجع: البحار ج٢٨ ص٣٨ وج٣٧ ص٨٥ وج٤٣ ص٢٤ و ٢٦ و ٤٩ و ٧٨ و ١٧٢ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص٢٤٦ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج٩ ص١١ وميزان الحكمة ج١ ص١٥٠ وتفسير نور الثقلين ج١ ص٣٣٨ وتفسير كنز الدقائق ج٢ ص٨٥ =

ويؤيد ذلك: الروايات الكثيرة جداً التي تقول: إنها «عليها السلام» سيدة نساء أهل الجنة(١). فإن أكثرها لم يستثن مريم «عليها السلام» حسبما تقدم.

وأما الرواية التي ذكرت: أنه «صلى الله عليه وآله» قد قرر أنها سيدة نساء العالمين، فسألته «عليها السلام» عن موقع مريم في هذه الحالة، فقال: لها «صلى الله عليه وآله»: تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك(٢)،

= وقاوس الرجال ج١٢ ص٣٣٤ وبشارة المصطفى للطبري ص٢٧٤ و ٣٠٦ والعدد القوية ص٢٢٧ وينابيع المودة ج٢ ص٢٩٨ واللمعة البيضاء التبريزي ص١٧٩.

(١) راجع: كشف الغطاء (ط ق) ج١ ص١٨ والأمالي للصدوق ص١٧٨ وكفاية الأثر ص١٢٤ وكتاب سليم بن قيس ص٢٣٦ و ٤٢٧ والإختصاص للمفيد ص١٨٣ والأمالي للطوسي ص٨٥ و ٢٤٨ ومناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ج٣ ص١٠٤ و ١٠٥ و ١٦٤ والعمدة لابن البطريق ص٣٨٤ و ٣٨٨ عن صحيح البخاري ج٥ ص٢٩ باب مناقب فاطمة «عليها السلام» ومناقب أهل البيت للشيرواني ص٢٢٩ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص٢٣٣ ومسند أحمد ج٥ ص٣٩١ وصحيح البخاري (دار الفكر) ج٤ ص١٨٣ و ٢٠٩ و ٢١٩ وسنن الترمذي ج٥ ص٣٢٦ وفضائل الصحابة للنسائي ص٥٨ و ٧٦ والمستدرك للحاكم ج٣ ص١٥١ ومجمع الزوائد ج٩ ص٢٠١ وفتح الباري ج٧ ص٨٢ وراجع: إحقاق الحق (قسم الملحقات) ج١٠ وج١٩ وأجزاء أخرى لتجد هذه الرواية عن عشرات المصادر بطرق مختلفة.

(٢) راجع: إحقاق الحق (قسم الملحقات) ج١٠ عن كثير من المصادر وج١٩ ص١٩ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص١٢٧ وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص١٩٨ وفتح الملك المعبود تكملة المنهل العذب المورود ج٤ ص٨ ومرآة المؤمنين ص١٨٣.

فهي متناقضة في نفسها، إذ لا ينسجم قوله «صلى الله عليه وآله» لها «عليها السلام»: إنها سيدة نساء العالمين، مع قوله لها: أنت سيدة نساء عالمك.

وهذا يؤكد: أن الصحيح هو حذف العبارة الأخيرة ليستقيم المعنى.

وذلك ظاهر لا يخفى.

جهزينا، وأخفي أمرك:

ورووا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» مكث بعد خروج أبي سفيان ما شاء الله أن يمكث، ثم قال لعائشة: جهزينا، وأخفي أمرك[1].

وقال: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم، فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة»[2].

وفي نص آخر أنه قال: «اللهم خذ العيون والأخبار على قريش، حتى نبغتها في بلادها»[3].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ عن ابن عقبة، وابن إسحاق، والواقدي، وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٢ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥١.

(٢) راجع المصادر المتقدمة في الهامش السابق.

(٣) راجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص١٠ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٦ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ والبحار ج٢١ ص١٠٢ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٨٠ وتفسير البغوي ج٤ ص٥٣٧ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٢ والبداية=

وكان قد بنى الأمر في مسيره إليها على الاستسرار بذلك[1].

عائشة تفشي سر النبي ﷺ:

ودخل أبو بكر على عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال: أمركن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بتجهيزه؟

قالت: نعم، فتجهز.

قال: فأين ترينه يريد؟

قالت: لا والله ما أدري[2].

قال: ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد؟

قالت: لا علم لي[3].

ودخل عليه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال: يا رسول الله، أردت سفراً؟

= والنهاية ج٤ ص٣٢٣ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٥ .

(١) البحار ج٢١ ص١١٩ عن الإرشاد للمفيد (ط دار المفيد) ج١ ص٥٦ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٠٨ ولوامع الحقائق للأشتياني ج١ ص٨٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٦ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وتفسير البغوي ج٤ ص٥٣٧ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص٩.

(٣) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ والمعجم الصغير للطبراني ج٢ ص٧٣ ودلائل النبوة للأصبهاني ج٢ ص٦٣٥ وإمتاع الأسماع ج٨ ص٣٨٤.

قال: نعم.

قال: فأتجهز؟!

قال: نعم.

قال: فأين تريد يا رسول الله؟!

قال: قريشاً. وأخفِ ذلك يا أبا بكر[1].

«**وفي رواية:** أن أبا بكر قال: يا رسول الله، أتريد أن تخرج مخرجاً؟!

قال: نعم.

قال: لعلك تريد بني الأصفر؟!

قال: لا.

قال: أفتريد أهل نجد؟!

قال: لا.

قال: فلعلك تريد قريشاً؟

قال: نعم.

قال: يا رسول الله، أليس بينك وبينهم مدة؟

قال: أولم يبلغك ما صنعوا ببني كعب؟ يعني خزاعة»[2].

وأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالجهاز، **قال:** أوليس بيننا وبينهم مدة؟!

قال: قال: إنهم غدروا، ونقضوا العهد، فأنا غازيهم.

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٦ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٢٥ .

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ وبمعناه عند الواقدي في المغازي ج٢ ص٧٩٦.

وقال لأبي بكر: اطوِ ما ذكرت لك.

فظان يظن أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يريد الشام، وظان يظن ثقيفاً، وظان يظن هوازن[1].

ولنا مع ما تقدم عدة وقفات نسوقها على النحو التالي:

للمباغتة وجهان:

للمباغتة وجهان: وجه سيء، ووجه حسن، فمن يريد أن يباغت عدوه ليتمكن من إهلاكه، وسحق كل قدراته، وتدمير كل نبضات الحياة لديه، يعتبر المباغتة فرصة للتخريب، والتدمير والاستئصال، والتنفيس عن الحقد، والتشفي، والانتقام الوحشي الذي لا يقف عند حد، فهذا الانتقام سيء وقبيح، وكذلك المباغتة التي هيأت له..

وهناك المباغتة التي يمارسها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويريد منها أن يهيىء الجو لإلحاق هزيمة نفسية تتلاشى معها رغبة الطرف الآخر بالقتال، ويواجه أجواء الفشل والإحباط، ويدفعه إلى السعي لإنهاء المعركة، والخروج من أجوائها الضاغطة، فتنتج تلك المباغتة السلامة، والنجاة، وصيانة المال والعرض، وربما يحتفظ بالكرامة والجاه، وفق ما تسوقه إليه إرادته، ويهديه إليه عقله، وتهيئه له اختياراته.

وخير دليل على ما نقول: هذا الذي جرى في فتح مكة، فإن عنصر المباغتة في الفتح كان ظاهراً وواضحاً كالنار على المنار وكالشمس في رابعة

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٦ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٦ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٢.

النهار، مع أن مبررات الانتقام كانت حاضرة، والقدرة عليه ظاهرة، فقد نكثوا العهد، وقتلوا الأبرياء من الصبيان، والنساء، والرجال الضعفاء، وجحدوا ذلك وأنكروه، وسعوا إلى إبطال حق ضحاياهم بوسائل ماكرة، ظهرت بعض معالمها فيما تقدم من فصول..

فكان لا بد من إسقاط هيمنة الظالمين، وكف أيدي العتاة المتجبرين لإفساح المجال لعباد الله ليتنفسوا نسيم الحرية، وليخرجوا من أسر أولئك الطواغيت إلى كنف رعاية الله، ويتفيأوا ظلال شرائعه وأحكامه، حيث يكون النبي «صلى الله عليه وآله» قائدهم، والحق رائدهم.

وهكذا كان.

مكث ما شاء الله:

وقد صرح النص المتقدم: بأن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يبادر إلى دعوة الناس للتجهز للمسير بمجرد دعوة الخيبة لأبي سفيان.. بل هو قد أهمل هذا الأمر مدة تكفي إلى غياب ما جرى لأبي سفيان عن ذاكرتهم، ثم أمرهم بالتجهز والاستعداد، فلم يفطنوا إلى الجهة التي يقصدها في مسيره ذاك..

ومن شأن جهلهم بمقصده أن يفوت الفرصة على محبي قريش، والمتعاملين معها، فلا يتمكنون من إنذارها في وقت مبكر لكي تأخذ حذرها وتستعد للقتال، أو أن تزداد تحصُّناً وتمنُّعاً يقلل من تأثُّرها بالحشد الذي أعده، وبالعدة التي هيأها..

التجهيز لسفر مبهم:

ثم إن النص المتقدم يقول: إنه «صلى الله عليه وآله» قال لعائشة: جهزينا وأخفي أمرك..

أي أنه «صلى الله عليه وآله» يريد منها أن تخفي أصل التجهز، والاستعداد لسفر لم يحدده لها ولا عرَّفها طبيعته، هل هو سفر للحرب؟ أو لزيارة منطقة بعينها؟ أو لأي غرض آخر..

والذي نريد أن نستوضحه هنا هو: أنها إذا كان المطلوب منها إخفاء نفس التهجيز له، فهذا يدل على أنه يريد سفراً لا يعرف به أحد، فهل يريد أن يسافر وحده «صلى الله عليه وآله» دون سائر المسلمين؟!

وربما يمكننا أن نجيب على هذا التساؤل بتقديم أحد احتمالين ، ربما يكون أحدهما أو كلاهما هو السبب.

الإحتمال الأول: أن يكون الغرض هو إخفاء هذا الأمر عن أناس بأعيانهم، لهم نوع اتصال قريب بها، لعله يخشى من أن يبادروا إلى إعلام قريش بالأجواء التي استجدت في المدينة، تماماً كما حصل في قضية حاطب بن بلتعة الآتية، حيث بادر بالكتابة لقريش بمجرد أن علم بتهيؤ المسلمين لغزو مّا، رغم أنه لم يعلم المقصود بالغزو أصلاً..

الإحتمال الثاني: أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد اراد تقديم نموذج من معاناته، ليعرف الناس عظمة صبره ودقة ملاحظته، وصحة تدبيره الذي انتهى بذلك الفتح العظيم..

فإنه إذا كانت زوجة الرسول لم تستطع كتمان هذا الأمر لمدة ساعة أو ساعات، حتى أفشته لأبيها، رغم توصية رسول الله «صلى الله عليه وآله»

لها، فما بالك بسائر الناس وكيف سيتصرفون عندما يظهر لهم طرف من هذا الأمر؟!

وثمة احتمال ثالث يمكن أن ندرجه في دائرة مقاصده أيضاً، وهو أن يعطينا «صلى الله عليه وآله» درساً في الحيطة والحذر في مثل هذه الأمور، حتى من أقرب الناس، وهذا درس مفيد وجليل وسديد، لا بد من التوفر على مضامينه بحرص وإتقان.

نجاح الخطة:

يظهر جلياً من النصوص المتقدمة كيف أن الذين حاولوا التكهن بمقصده «صلى الله عليه وآله» لم يخطر على بال أحد منهم أنه يقصد مكة، بل ذهب وهمهم إلى الشام، وثقيف، وهوازن.

كما أن أبا بكر قد قلَّب احتمالات عديدة، مثل أن يغزو أهل نجد، أو بني الأصفر، وكان آخر ما زعموا أنه خطر على باله هو غزو قريش، مع استبعاد قوي منه لهذا الاحتمال، مدعَّم بالاستدلال، بأنه كيف يغزوهم وبينه وبينهم مدة وعهد؟!

ومن غير الطبيعي كتمان أمر عن أمة بأسرها، يستنفر منها عشرة آلاف مقاتل ليعالجوا نفس هذا الأمر المكتوم، مع كثرة الموتورين والحاقدين في المنطقة، ومع وفرة المنافقين المتربصين. بالإضافة إلى الذين يبحثون عما يفيدهم في مصالحهم الشخصية، أو القبلية، أو غيرها..

وخفاء هذا الأمر الخطير إلى هذا الحد، وفي ظروف كهذه، وفي هذا المحيط بالذات يعد من أعظم الإنجازات، ومن أجلِّ التوفيقات، ويدلل

على التدبير الحكيم، والضبط الدقيق للأمور من قبل رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

الأخذ على الأسماع والأبصار:

لا يريد النبي «صلى الله عليه وآله» بدعائه الله بأن يأخذ على أسماع وأبصار أعدائه أن يتدخل الله سبحانه بإعمال إرادته التكوينية، ويفعل بهم ذلك بصورة قاهرة.. لأن هذا ظلم لهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾..

بل هو يطلب منه تعالى: أن يتصرف في خارج دائرة اختيار أولئك المشركين، فيؤيد المؤمنين بالتوفيقات والعنايات، والألطاف الإلهية، وبالتدبيرات الصحيحة، ويفتح أبواب أفهامهم لسد الفرج، والإمساك بالأمور بحيث لا يتمكن أحد من إيصال أي خبر عن حقيقة ما يجري داخل المجتمع الإسلامي إلى معسكر الكفر والبغي والعدوان..

وهذا ما حصل بالفعل..

ولهذه المباغتة تأثيرات هامة على صعيد حسم الأمور لصالح أهل الإيمان، من حيث إن ذلك يمثل فشلاً روحياً، وإحباطاً كبيراً لدى الأعداء..

وهو يفقدهم القدرة على الإعداد والإستعداد، وإيقاظ الهمم، وشحذ العزائم، ولا يبقي لهم الفرصة لرسم الخطط القتالية، والاستفادة من عنصر المفاجأة في المواقع المختلفة..

ثم إن جعل زمام المبادرة بيد أهل الإيمان من شأنه أن يجعل الأمور تسير باتجاه اتخاذ القرارات الحكيمة والمنصفة، والتدبيرات المؤثرة في حسم

الأمور بأقل قدر ممكن من الخسائر..

حتى نبغتها في بلادها:

ومن الواضح: أن مجرد أن يراك عدوك تطأ أرضه، وتحل في بلاده يجعله في موقع الدفاع بصورة تلقائية، ويضطره ذلك إلى الإحساس الداخلي بأن ثمة درجة من الهزيمة والخسارة قد حاقت به، وذلك يؤثر على روحه، ويطامن من عنفوانه، ويخفف من عنجهيته.

كما أنه يعطيك درجة من الهيمنة على الموقف، ويبعث فيك قدراً من الطموح، ويثير فيك حالة من العنفوان والقوة..

ولعل هذا وذاك هو ما يفسر لنا قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «حتى نبغتها في بلادها» حسبما تقدم.

لماذا الحديث عن قريش دون بني بكر؟!:

ويلاحظ: أنه «صلى الله عليه وآله» قد ركز حديثه على قريش، دون بني بكر، مع أن بني بكر هم الذين ارتكبوا الجريمة، ودعوا قريشاً لمشاركتهم ومعاونتهم فيها، فسارع عدد من زعمائها إلى تلبية الطلب.. فلماذا يخصصها «صلى الله عليه وآله» بالذكر دونهم يا ترى؟!

ونقول في الجواب:

إن رأس الطغيان في المنطقة العربية كلها، وحامي حمى البغي والظلم والتعدي هو قريش.. ولولاها لم يجرؤ بنو بكر على مهاجمة خزاعة، ويكفي مانعاً ورادعاً عن ذلك معرفتهم بحلف خزاعة مع رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ولذلك سعى بنو نفاثة إلى إشراك قريش في هذا الأمر..

فاستئصال كبرياء قريش، وكسر جبروتها الظالم يكفي لمنع تكرار مثل هذه الجرائم..

أبو بكر وعائشة في مأزق:

وقد يعتذر البعض عن إفشاء عائشة السرّ الذي أمرها رسول الله «صلى الله عليه وآله» بإخفائه، فبادرت إلى إفشائه لأبيها عند أول سؤال وجهه إليها ـ يعتذر ـ بأنها لم تفش السر لرجل غريب، بل هو أبوها المقرَّب جداً من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والذي يعد من أهل البيت، وكانت تقطع برضى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بإطلاعه على ما هو أهم من هذا..

ونجيب بما يلي:

أولاً: لو كان هذا صحيحاً لبادر رسول الله «صلى الله عليه وآله» نفسه إلى إعلام أبي بكر بالأمر.

ثانياً: هذا اجتهاد في مقابل النص، فإن النبي «صلى الله عليه وآله» قد نص صراحة على لزوم إخفاء هذا الأمر، فلا معنى، ولا يقبل اجتهاد عائشة في مقابل هذا النص.

ثالثاً: إن قضايا الحرب والسلم قد تطوى عن أقرب الناس، وتبيَّن وتفصّل للبعداء لأسباب تعود إلى طبيعة الحرب واقتضاءاتها..

ومن كلام علي «عليه السلام» لأصحابه: «ألا وإن لكم عندي أن لا أحتجز (أحجبن) دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في

حكم»[١].

وقد يكون القريب ثرثاراً، والبعيد كتوماً. وفي غير هذه الصورة أيضاً قد يثق القريب بمن لا يؤمن من اتصاله بالعدو، وإخباره بما يجري..

بل قد يكون للقريب ما يدعوه إلى مباشرة ذلك بنفسه.. وقد.. وقد..

رابعاً: إن نفس انصراف الرسول «صلى الله عليه وآله» عن إخبار أبي بكر بهذا الأمر يضع علامة استفهام كبيرة حول صحة ما يدعونه من تقريب من رسول الله «صلى الله عليه وآله» له. فضلاً عن أن يعدَّ من أهل بيته..

وبعد هذا كيف يمكن ادِّعاء أنها كانت تقطع بأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يرضى منها بإخباره بالأمر، فإن هذا من الأمور القلبية التي لا يعرفها إلا علام الغيوب..

خامساً: بالنسبة لقرب أبي بكر من رسول الله «صلى الله عليه وآله» نقول:

إن ثمة فرقاً بين قرب يأتي من إصرار أبي بكر على حشر نفسه في مجالس النبي «صلى الله عليه وآله»، ومثابرته على نسبة نفسه إليه، وسعيه إلى التحدث باسمه، وإظهار قربه منه.. و.. و.. الخ.. وبين تقريب النبي «صلى الله عليه وآله» له، والدال على محبته «صلى الله عليه وآله» له، وثقته به..

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص٧٩ والأمالي للطوسي ص٢١٧ والبحار ج٣٣ ص٧٦ و ٤٦٩ وج٧٢ ص٣٥٤ وميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٢٤ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٦٣ والمعيار والموازنة ص١٠٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص١٦.

والذي يمكن التسليم به لأبي بكر هو الأول. أما الثاني، فلا مجال لإثباته.

بل هناك دلائل وشواهد تصب في عكس هذا الاتجاه، ومنها: هذه القضية بالذات، حيث إن عدم إخبار النبي «صلى الله عليه وآله» له ولو بمقدار ما اطلع عليه عائشة يضع علامة استفهام كبيرة حول أصل ثقته به، واعتماده عليه..

أبو بكر يصر على النبي ﷺ إلى حد الإحراج:

وقد رأينا في الروايات المتقدمة: حرص أبي بكر على معرفة كنه الأمر، ولا يكتفي بتوجيه عدة أسئلة إلى ابنته، مثل:

أمركن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بتجهيزه؟!

أين ترينه يريد؟!

ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد؟!

بل هو يوالي الأسئلة على رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ويسمع أجوبة مقتضبة، من شأنها أن تعرّفه: أنه لا يريد أن يبوح له بشيء. ولكنه يتابع الأسئلة، ويصر على معرفة حقائق الدقائق، ومن أسئلته:

أردت سفراً؟

فأتجهز؟

أتريد أن تخرج مخرجاً؟

فأين تريد يا رسول الله؟

لعلك تريد بني الأصفر؟

أفتريد أهل نجد؟

فلعلك تريد قريشاً؟

أليس بينك وبينهم مدة؟

ولم يكن من المصلحة: أن يأمره النبي «صلى الله عليه وآله» بالكف عن الأسئلة، فربما تذهب به الظنون مذاهب مخيفة، ولربما تسوقه الأوهام إلى تكهنات لو سمعها الآخرون منه لألحقت بالمسيرة ضرراً بالغاً..

ولكن الذي كنا سنرتاح كثيراً لو عرفناه هو:

١ ـ ألم يلتفت أبو بكر إلى أن النبي «صلى الله عليه وآله» لا يريد ان يعرّفه شيئاً مما عقد العزم عليه، حتى أصل أنه يريد سفراً؟ كما دل إخباره «صلى الله عليه وآله» عائشة دونه؟!

٢ ـ وبعد أن عرف أن النبي «صلى الله عليه وآله» يريد سفراً، لماذا يصرّ على معرفة المقصد بدقة، كما ظهر من توجيهه كل تلك الأسئلة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وسماعه تلك الأجوبة المقتضبة؟! ألم يدرك أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليس راغباً في البوح له بشيء؟ فلماذا يحرجه بأسئلته إذن؟!

٣ ـ هل يمكن أن نستفيد من أسئلته لابنته عائشة، أنه لم يكن واثقاً من أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» سيخبره لو سأله، فحاول أن يستل بعض الأخبار منها، فلما أعياه ذلك توجه إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولم يزل يحرجه بالسؤال تلو السؤال حتى حصل على ما أراد!!

٤ ـ ثم ما معنى أن يسأل ابنته عن الاحتمالات التي تراودها، فيما يرتبط بوجهة سير رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟ وماذا يفيده رأيها وحدسها، وأية قيمة تكون للحدسيات والتخمينات في أمور كهذه؟!

أليس بينك وبينهم مدة؟!:

وقد حضر أبو بكر أو سمع بمجيء عمرو بن سالم، وبديل بن ورقاء، وجماعة كبيرة إلى المدينة، وعرف منهم ما جرى لخزاعة على يد قريش وبني بكر.. ورأى أبا سفيان أيضاً حين جاء يريد خداع المسلمين، والمكر بهم وبرسول الله «صلى الله عليه وآله» للنجاة من تبعات نقض العهد..

وقد كان لأبي بكر نفسه نصيب من النشاط الذي أثاره أبو سفيان في هذا الاتجاه، وزعموا له موقفاً شديداً مميزاً تفرد به، ثم تابعه عليه زميله عمر بن الخطاب.

فما معنى اعتراضه على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيما عقد عليه العزم في قريش، وكيف يزعم أن بين النبي وبينهم عقداً وعهداً ومدة، وهو عالم بنقض قريش للعهد والعقد في أمر خزاعة؟!

السيطرة على المسالك:

وأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» جماعة أن تقيم بالأنقاب (وهي المسالك في الجبال).

وكان عمر بن الخطاب يطوف على الأنقاب، فيمرُّ بهم، فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.

لكن صاحب السيرة الحلبية نقل ذلك من قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

وكانت الأنقاب مسلَّمة إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به، ويسأل

عنه[1].

ونقول:

١ ـ إن رصد الطرقات والمنافذ إلى مكة، ووضع الرجال على المسالك في الجبال بصورة دائمة من شأنه أن يزيد الأمور ضبطاً وانتظاماً، وأن يمنع من تسرب الأخبار إلى قريش، ولا أقل من أنه يحرج من يريد أن يفعل ذلك، ويربكه، ويحد من ميله لتعريض نفسه للفضيحة، لو كشف أمره..

٢ ـ إن هذه القوات التي كلفت بمهمة حفظ الطرقات لم تكن تضايق أحداً من سالكي تلك الطرق، فقد ذكر النص المتقدم: أن الطرق مسلّمة، لا يعترض أحد فيها سبيل أحد إلا من سلك إلى مكة.

٣ ـ وحتى من يريد مكة، فإنه لا يمنع من ذلك، وإنما يحتجز بمقدار ما يتأكد من أمره، فيسأل عنه.

٤ ـ لعل المقصود بالسؤال عن السالك إلى مكة هو: مراجعة النبي «صلى الله عليه وآله» في أمره..

٥ ـ إذا كان النبي «صلى الله عليه وآله» قد حدد لتلك القوات الراصدة والضابطة للطرقات مسؤوليتها، وهو أن لا يدعوا أحداً يمر بهم ينكرونه إلا ردُّوه.. فلماذا يطوف عمر بن الخطاب على الأنقاب، ويطلب منهم نفس هذا الطلب، ويصدر لهم نفس هذا الأمر؟!

ولسنا نشك في: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد حدد لأولئك

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥١.

الرجال المهمة التي انتدبهم لها ـ حتى لو لم يذكر لنا الحلبي أو غيره مضمون كلامه «صلى الله عليه وآله» لهم ـ.

فتكرار هذا الكلام على مسامعهم من عمر لا يقدم ولا يؤخر، لأن هذه هي مهمتهم التي انتدبوا لها، وهم ينفذون أوامر النبي «صلى الله عليه وآله» لا أوامر عمر.. إلا إذا كان عمر يريد أن يوحي لهم: بأنه قرين رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ونظيره، وأوامره كأوامره، وطاعته كطاعته..

واللافت هنا: أننا لا نجد هذه الحركات وأمثالها لدى أي من الصحابة الآخرين إلا من عمر بن الخطاب.. وإن شاركه غيره في شيء من ذلك فستجد أنه يسير في نفس خطه، ومن القريبين منه، أو من أهل الصفاء عنده، وتربطهما أواصر مودة وإلفة..

إلى بطن إضم:

لما أراد رسول الله «صلى الله عليه وآله» المسير إلى مكة، بعث أبا قتادة بن ربعي إلى بطن إضم، ليظن الظان: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» توجه إلى تلك الناحية، وأن لا تذهب بذلك الأخبار[1].

وأبان رسول الله «صلى الله عليه وآله» المسير إلى قريش[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١١ عن ابن عقبة، وابن إسحاق، والواقدي، وغيرهم. والمغازي للواقدي ج٢ ص٢٩٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٣ وتاريخ مدينة دمشق ج٦٧ ص١٤٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٤٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٧٧.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١١ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وإمتاع الأسماع=

وأرسل إلى أهل البادية، ومن حولهم من المسلمين، يقول لهم: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة»[١].

وهم أسلم وغفار، ومزينة وجهينة، وأشجع، وبعث إلى بني سليم.

فأما بنو سليم فلقيته بقديد، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة[٢].

وبعث رسلاً في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله «صلى الله عليه وآله»[٣].

قالوا: «ودعا رئيس كل قوم، فأمره أن يأتي قومه، فيستنفرهم»[٤].

وقالوا أيضاً: لما عزم رسول الله «صلى الله عليه وآله» على فتح مكة ـ شرفها الله تعالى ـ كتب إلى جميع الناس في أقطار الحجاز وغيرها، يأمرهم أن يكونوا بالمدينة في شهر رمضان من سنة ثمان للهجرة، فوافته الوفود والقبائل من كل جهة[٥].

= ج١ ص٣٥٣.

(١) مكاتيب الرسول ج١ ص٣٠٨ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٠.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٩ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٠.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١١ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٩ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٤ ومكاتيب الرسول ج١ ص٣٠٨.

(٤) البحار ج٢١ ص١٢٧ عن إعلام الورى (ط مؤسسة آل البيت) ج١ ص٢١٨.

(٥) شرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٣٥٩ عن الواقدي، والكافي ج٤ ص٢٤٩ والوسائل ج٨ ص١٥٨ وعن السيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش السيرة الحلبية) ج٢ ص٢٩٨ ومكاتيب الرسول ج١ ص٣٠٨.

وقال حسان بن ثابت يحرض الناس ويذكر مصاب رجال خزاعة:

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة   رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم   وقتلى كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي   سهيل بن عمرو حرها وعقابها
فلا تأمننها يا ابن أم مجالد   إذا احتلبت صرفا وأعصل نابها
ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا   لها وقعة بالموت يفتح بابها[1]

قال ابن إسحاق: وقول حسان: بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم: يعني قريشاً، وابن أم مجالد: عكرمة بن أبي جهل[2].

وعسكر رسول الله «صلى الله عليه وآله» ببئر أبي عنبة، وعقد الألوية والرايات. فكان في المهاجرين ثلاث رايات: راية مع علي، وراية مع سعد بن أبي وقاص، ثم ذكر الواقدي سائر الرايات[3].

إشارة لما سبق:

ونقول:

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١١ و ٢١٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١١ و ٢١٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٧.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٠ وإمتاع الأسماع ج٧ ص١٦٨.

قد تحدثنا في جزءٍ سابق عن سرية بطن إضم، فلا نرى حاجة للإعادة، ونكتفي بالإشارة إلى بضعة أمور هي التالية:

النفير العام:

إنه يبدو: أنه «صلى الله عليه وآله» قد استنفر جميع العرب، بدوهم وحضرهم، قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم، ربما لأنه أراد أن يؤكد لهم سقوط جميع حصون الشرك في المنطقة، وأنه لم يعد هناك مبرر للتعامل بجفاء، أو عداء.

وعليهم الاعتراف بهيمنة الإسلام وقدرته وقوته، إذ إنهم ليسوا هدفاً عسكرياً له، ولا هو يريد أن يبتلعهم، أو أن يستغلهم.

بل هو يريد أن يتعاون معهم على حل المشكلات، وان يقف إلى جانبهم في إقرار الأمن والسلام، ومنع الظلم والتعدي. إذ هو يدعوهم إلى نصرة المظلومين، ومحاربة الظالمين، الذين ينقضون العهود، ويبطشون بالصبيان، والنساء، والضعفاء.. فلماذا لا ينصرونه، ولا يكونون معه؟ فإن ذلك من مصلحتهم بلا ريب.

ويدل أنه قد جرى على استنفار جميع العرب، النصوص المتقدمة نفسها، بالإضافة إلى أنه في حرب خيبر، وفي غيرها، وهي حروب كبرى، وصعبة ومصيرية، لم يستطع حشد أكثر من ألف وخمس مائة مقاتل مقابل أكثر من عشرة آلاف مقاتل من الأعداء، كانوا مستقرين في حصونهم، ومستعدين للمواجهة.

ولكنه جمع في مؤتة ثلاثة آلاف مقاتل..

وقد قلنا: إن الظاهر هو: أنه قد نفر معه مئات من غير المسلمين أيضاً، لأنهم أدركوا: أن خطر ملك الروم عظيم وجسيم، فلا بد لهم من الدفع عن أنفسهم، وحفظ حوزتهم، كما تقدم.

الحضور إلى المدينة في شهر رمضان:

وقد كانت رسالته «صلى الله عليه وآله» إلى العرب هي: الطلب إليهم أن يحضروا إلى المدينة في شهر رمضان، ولم يبين لهم سبب هذا الطلب، ولا الغاية من حضورهم، فهل هو يحضرهم لإبلاغهم أمراً، أو لمشاورتهم فيه، أو للاتفاق معهم على شيء بعينه، أو لحرب أهل مكة، أو حرب غيرهم؟ إن ذلك لم تحدده لهم تلك الرسائل التي أرسلها إليهم..

وحتى بعد أن ظهر أن القصد هو التجمع للحرب، فإن الأمر بقي غائماً ومجهولاً لهم، إلى أن سار بتلك الجموع مسافات طويلة، ثم سلك طريق مكة..

ولم نجد منهم أي تمرد أو تململ أو ضيق من هذا القرار القاضي بحجب معرفة المقصد عنهم، بل ربما يكون ذلك قد أشعرهم بخطورة الأمر وأهميته، وهيأهم لمواجهة أي خيار يفرض عليهم بصبر وشجاعة.

وإن هذا يشير بلا شك إلى مدى تسليم الناس لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، وثقتهم بتدبيره، رغم أنهم لم يكونوا كلهم ـ حسبما استظهرناه ـ من أهل الإيمان، والإسلام.

إبان المسير إلى قريش:

قد تقدم: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أمر عائشة بكتمان الأمر،

وأمر أبا بكر بذلك أيضاً. وانه أرسل أبا قتادة إلى بطن إضم، ولم يعلمه بوجهة سيره لئلا تذهب بذلك الأخبار.

فما معنى قولهم هنا: إنه «صلى الله عليه وآله» أعلَم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتجهيز[1]؟.

أو قولهم: «أبان رسول الله «صلى الله عليه وآله» السير إلى قريش، وأرسل إلى أهل البادية الخ..»[2].

ومما يؤكد التزام السرية في هذا الأمر قولهم: «.. وأمر «صلى الله عليه وآله» الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذي يريده وقد قال له أبو بكر: يا رسول الله، أوليس بيننا وبينهم مدة؟

قال: إنهم غدروا ونقضوا العهد. واطو ما ذكرت لك..»[3].

يضاف إلى ذلك: أن رسالة حاطب بن أبي بلتعة لقريش تدل على أنه لم يكن على يقين من وجهة سيره «صلى الله عليه وآله»، حيث جاء فيها: «وإن محمداً قد نفر، فإما إليكم، وإما إلى غيركم».

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ و (ط دار المعرفة) ص٩ وتفسير البغوي ج٤ ص٥٣٧ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٣ والعبر وتاريخ المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٧ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٥.

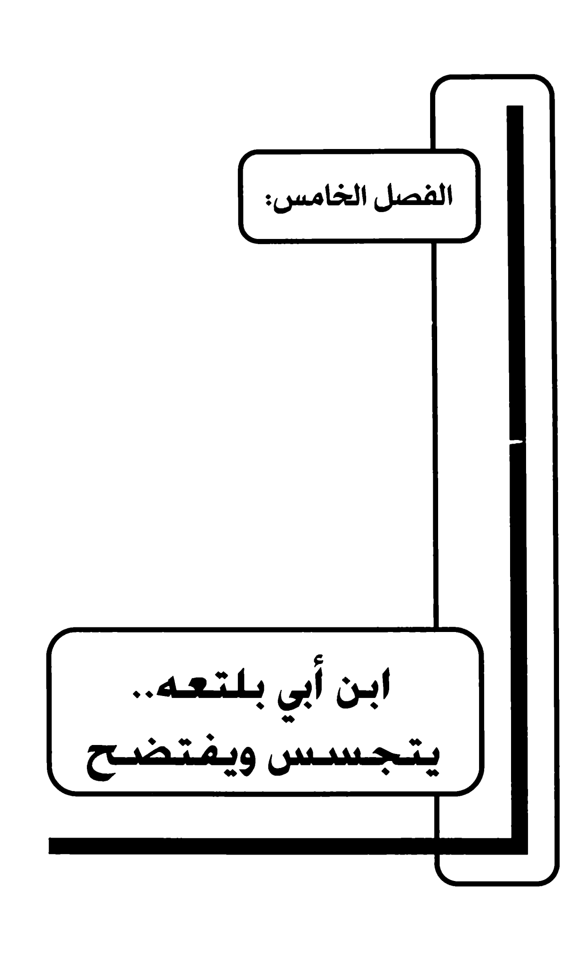
(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١١ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٣ و ٣٥٤ ومكاتيب الرسول ج١ ص٣٠٨ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٠.

(٣) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٢.

أو جاء فيها: «قد آذن بالغزوة، ولا أراه إلا يريدكم»[١].

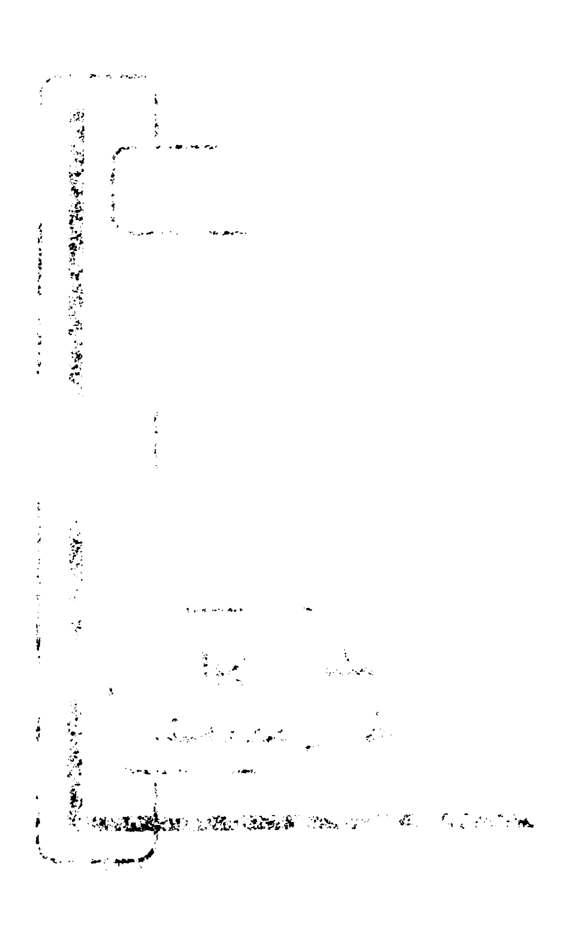
---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وفتح الباري ج١٢ ص٢٧٣ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١١.



الفصل الخامس:

ابن أبي بلتعه.. يتجسس ويفتضح



اكتشاف تجسس ابن أبي بلتعة لقريش:

وروي: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما أجمع السير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله «صلى الله عليه وآله» من الأمر في المسير إليهم، ثم أعطاه امرأة[1]، (سوداء كما في البحار) زعموا أنها من مزينة.

قال محمد بن عمر: يقال لها: كنود[2].

قال ابن إسحاق: وزعم لي غير ابن جعفر: أنها سارة مولاة لبعض بني

---

(١) البحار ج٢١ ص١١٩ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ نيل الأوطار ج٨ ص١٥٦ وفتح الباري ج٧ ص٤٠٠ وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ج٣ ص٤٥٠ وجامع البيان للطبري ج٢٨ ص٧٦ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠ والثقات لابن حبان ج٤ ص٤١ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٣ وإمتاع الأسماع ج١٣ ص٣٧٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٨ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٦.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٢٠٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٨ وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ج٣ ص٤٥٠ ونيل الأوطار ج٨ ص١٥٦ والبداية والنهاية ج٤ هامش ص٣٢٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٢.

المطلب[1].

وزعم مغلطاي: أن حاملة الرسالة هي: أم سارة واسمها كنود[2]. وجعل لها جعلاً[3].

قال محمد بن عمر: ديناراً[4].

---

(١) في البحار ج٢١ ص١٢٥ و ١٣٦ و ١٣٧ عن إعلام الورى: أنها مولاة أبي لهب . وعن تفسير فرات ص١٨٣ و ١٨٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٩ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٨ ونيل الأوطار ج٨ ص١٥٦ وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ج٣ ص٤٥٠ وجامع البيان للطبري ج٢٨ ص٧٦ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٦ .

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وراجع: فتح الباري (المقدمة) ص٢٨٨ و ٣٠١ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٤ وج١٧ ص٢٧٤ وعون المعبود ج٧ ص٢٢٣ وتفسير الآلوسي ج٢٨ ص٦٦ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٩ ص٣٠ والإصابة ج٨ ص٣٩٨.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج١٠ ص٦٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٠ والبحار ج٢١ ص١١٩ و ١٣٦ وتفسير فرات ص٤٨٠ وتفسير مقاتل بن سليمان ج٣ ص٣٤٩ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والإرشاد ج١ ص٥٦ وشجرة طوبى ج٢ ص٣٠١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٦ وجامع البيان للطبري ج٢٨ ص٧٦ وتفسير ابن زمنين ص٣٧٦ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠ وتاريخ الأمم والملوك ٢ ص٣٢٧ وإمتاع الأسماع ج١٣ ص٣٧٦ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥ و ٤٠٨ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٦ وشرح إحقاق الحق ج٣١ ص٨.

(٤) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٨ وعمدة القاري ج١٧ ص٢٧٤ ونيل الأوطار ج٨ ص١٥٦ وفتح الباري ج٧ ص٤٠٠.

وقيل: عشرة دنانير[1].

أضاف الحلبي قوله: وكساها برداً[2]، على أن تبلغه أهل مكة.

وعن ابن عباس: أعطاها عشرة دنانير[3].

وعن مقاتل: عشرة دراهم وكساها برداً[4].

وقال لها: أخفيه ما استطعت، ولا تمري على الطريق، فإن عليه

---

(١) السيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٠ والبحار ج٢١ ص٩٤ ونيل الأوطار ج٨ ص١٥٦ وفتح الباري ج٧ ص٤٠٠ وج١٢ ص٢٧٣ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٥ وتاريخ الأحاديث والآثار ج٣ ص٤٤٧ وحقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري ج٤ ص٨٨ وتفسير مجمع البيان ج٩ ص٤٤٦ وتفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩١ وتفسير البغوي ج٤ ص٣٢٩ وتفسير النسفي ج٤ ص٢٣٥ وتفسير الرازي ج٢٩ ص٢٦٩.

(٢) السيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٠ ومغازي الواقدي ج٢ ص٧٩٩ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وفتح الباري ج١٢ ص٢٧٣ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٥ وتاريخ الأحاديث والآثار ج٣ ص٤٤٧ حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري ج٤ ص٨٨ وتفسير مجمع البيان ج٩ ص٤٤٦ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠٠ وتفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩١ وتفسير البغوي ج٤ ص٣٢٩ وتفسير النسفي ج٤ ص٢٣٥ وتفسير الرازي ج٢٩ ص٢٦٩.

(٣) البحار ج٢١ ص٩٤ وتفسير مجمع البيان ج٩ ص٤٤٦ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠٠ وتفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩١.

(٤) البحار ج٢١ ص٩٤ عن مجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ وتفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩١ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠.

حرساً[1].

فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به، فسلكت غير نقب عن يسار المحجة في الفلوق حتى لقيت الطريق بالعقيق[2].

نص الكتاب:

وذكر السهيلي أنه قيل: إنه كان في كتاب حاطب: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم، فإنه منجز له ما وعده فيكم، فإن الله ـ تعالى ـ ناصره ووليه[3].

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٩ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١٠ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٢.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٠٩ عن أحمد، ومسلم، والبخاري، والنسائي، والترمذي، وأبو داود عن أبي رافع عن علي، وأبو يعلى، والحاكم والضياء عن عمر بن الخطاب. والإمام أحمد، وعبد بن حميد عن جابر، وابن مردويه عن أنس، وابن مردويه عن سعيد بن جبير، وابن إسحاق عن عروة، وابن مردويه عن عبد الرحمن عن حاطب بن أبي بلتعة، ومحمد بن عمر عن شيوخه.
وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ والبحار ج٢١ ص١١٩ و ١٢٠ عن الإرشاد للمفيد، والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٩ وإمتاع الأسماع ج٢ ص٣٥٢.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١ ونيل الأوطار ج٨ ص١٥٦ وفتح الباري ج٧ ص٤٠١ وعمدة القاري ج١٧ ص١٧٣ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥٠ =

وعند الطبرسي: أنه كتب لقريش: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» خارج إليكم يوم كذا وكذا[1].

وفي تفسير ابن سلام: أنه كان فيه: إن محمداً «صلى الله عليه وآله» قد نفر فإما إليكم، وإما إلى غيركم، فعليكم الحذر. انتهى[2].

وذكر ابن عقبة الواقدي: أن فيه: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد آذن بالغزو، ولا أراه إلا يريدكم، وقد أحببت أن يكون لي يد بكتابي إليكم[3].

وعند الطبرسي: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يريدكم، فخذوا حذركم[4].

= وتفسير الآلوسي ج٢٨ ص٦٦ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٤ والشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١ ص٣٤٢ وعيون الأثر ج٢ ص٢٠٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٧.

(١) البحار ج٢١ ص١٢٥ عن إعلام الورى (ط مؤسسة الوفاء) ج١ ص٢١٦.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٧ وراجع: البحار ج٢١ ص١٣٧ وتفسير فرات ص١٨٣ و ١٨٤ و (ط مؤسسة الطبع والنشر ـ طهران) ص٤٨٠ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١ وراجع: فتح الباري ج١٢ ص٢٧٣ .

(٤) البحار ج٢١ ص٩٤ ومجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٤ ص٤٥٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ والسنن الكبرى للبيهقي ج٩ ص١٤٧ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٥ وتخريج =

التدخل الإلهي:

قال القمي: «إن حاطب بن أبي بلتعة كان قد أسلم وهاجر إلى المدينة، وكان عياله بمكة. وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فصاروا إلى عيال حاطب، وسألوهم أن يكتبوا إلى حاطب، يسألوه عن خبر محمد «صلى الله عليه وآله»: هل يريد أن يغزو مكة؟! فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك»(١).

فكتب إليهم حاطب: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يريد ذلك، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى «صفية» فوضعته في قرونها الخ..

وأتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام(٢).

= الأحاديث والآثار ج٣ ص٤٤٧ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠٠ وتفسير الميزان ج٩ ص٦٣ وتفسير الثعلبي ج٤ ص٣٤٦ وج٩ ص٢٩١ وتفسير مقاتل بن سليمان ج٣ ص٣٤٧ وأسباب نزول الآيات ص٢٨٢ وتفسير البغوي ج٤ ص٣٢٩ وتفسير النسفي ج٤ ص٢٣٥ وتفسير الرازي ج٣٢ ص١٥٣ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥١ وتفسير البيضاوي ج٥ ص٣٢٥ وتفسير القرآن العظيم ج٢ ص٣١٣ والدر المنثور ج٣ ص١٧٨ وتفسير أبي السعود ج٨ ص٢٣٥.

(١) البحار ج٢١ ص١١٢ وج٧٢ ص٣٨٨ وشجرة طوبى ج٢ ص٣٠١ وتفسير القمي ج٢ ص٣٦١ والتفسير الصافي ج٥ ص١٦١ وج٧ ص١٦٥ وتفسير الميزان ج١٩ ص٢٣٤.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وج١٠ ص٦٤ والبحار ج٢١ ص١١٢ و ١٢٠ وج٧٢ ص٣٨٨ وتفسير القمي ج٢ ص٣٦١ والتفسير =

زاد أبو رافع: المقداد بن الأسود[1].

وغير ابن إسحاق، يقول: بعث علياً والمقداد[2].

وفي رواية عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي: أبا مرثد، بدل المقداد[3].

وفي الحلبية: بعث علياً «عليه السلام»، والزبير، وطلحة، والمقداد.

وقيل: بعث علياً، وعماراً، أو الزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مرثد.

ولا مانع من أن يكون بعث الكل.

= الصافي ج٥ ص١٦١ وج٧ ص١٦٥ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص١٩٩ وتفسير الميزان ج١٩ ص١٣٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٦ وجامع البيان للطبري ج٢٨ ص٧٦ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٢ وج١٣ ص٣٧٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٨ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٦ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١١.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وج١٠ ص٦٤ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١ والمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية الأندلسي ج٥ ص٢٩٣ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥١.

(٢) عيون الأثر ج٢ ص١٨٤.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وج١٠ ص٦٤ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١ والمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية الأندلسي ج٥ ص٢٩٣ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥١.

وبعض الرواة اقتصر على بعضهم[1].

وزاد الطبرسي: عمر.

وكانوا كلهم فرساناً[2].

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «أدرك امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم»[3].

ولفظ أبي رافع: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب» فخرجوا[4] ـ وفي لفظ: فخرجا ـ حتى إذا كان بالخليقة، خليقة بني

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ والبحار ج٢١ ص٩٤ عن مجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٤٦ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٧ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٥ و ج١٩ ص٢٢٩ وتفسير جوامع الجامع ج٣ ص٥٤٢ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠٠ وتفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩١ وأسباب نزول الآيات للواحدي ص٢٨٢ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥١ وتأويل الآيات لشرف الدين الحسين ج٢ ص٦٨٣.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٨ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١١ موسوعة الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» في الكتاب والسنة والتاريخ للريشهري ج١ ص٢٧٤.

(٤) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وقال في هامشه: أخرجه البخاري ٦/ (٣٠٠٧) (٤٨٩٠) ومسلم ص ٣/ (١٩٤١) حديث (١٦١) وأبو داود في الجهاد، وأحمد ١/ ٧٩ والترمذي في تفسير سورة الممتحنة، والبيهقي في الدلائل ٥/ ١٦.

وراجع: البحار ج٢١ ص٩٤ عن مجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ و (ط مؤسسة =

أحمد الخ..

وفي الحلبية: «فخذوه منها وخلوا سبيلها، فإن أبت فاضربوا عنقها»[1].

وقال المفيد: فاستدعى أمير المؤمنين «عليه السلام» وقال له: «إن بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنت سألت الله أن يعمي أخبارنا عليهم. والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك والحقها، وانتزع الكتاب منها، وخلها، وصر به إلي».

= الأعلمي) ص٤٤٦ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وكتاب الأم للشافعي ج٤ ص٢٦٤ والمجموع للنووي ج١٩ ص٣٤٠ وكتاب المسند للشافعي ص٣١٦ ومسند أحمد ج١ ص٧٩ وصحيح البخاري ج٦ ص٦٠ وسنن أبي داود ج١ ص٥٩٧ وسنن الترمذي ج٥ ص٨٢ والسنن الكبرى للبيهقي ج٩ ص١٤٦ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٤ وج١٧ ص٢٧٣ وج١٩ ص٢٢٩ ومسند الحميدي ج١ ص٢٧ ومنتخب مسند عبد بن حميد ص٥٧ ومسند أبي يعلى ج١ ص٣١٦ وصحيح ابن حبان ج١٤ ص٤٢٤ ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ج٧ ص١٠٢ وتخريج الأحاديث والآثار ج٣ ص٤٤٧ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠١ وتفسير جامع البيان ج٢٨ ص٧٤ وأسباب نزول الآيات ص٢٨٣ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٦٩ وأسد الغابة ج١ ص٣٦١ وتفسير البغوي ج٤ ص٣٢٨ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٢٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٤.

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١ وتفسير فرات ص١٨٣ و ١٨٤ والبحار ج٢١ ص١٣٦ و ١٣٧ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨٩ وراجع: تفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩١ وأسباب نزول الآيات ص٢٨٢ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥١ ومطالب السؤول ص١٩٧ وكشف الغمة ج١ ص١٧٩.

ثم استدعى الزبير بن العوام وقال له: «امض مع علي بن أبي طالب في هذا الوجه».

فمضيا، وأخذا على غير الطريق، فأدركا المرأة، فسبق إليها الزبير، فسألها عن الكتاب الذي معها فأنكرت، وحلفت: أنه لا شيء معها، وبكت.

فقال الزبير: ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» نخبره ببراءة ساحتها.

فقال له أمير المؤمنين «عليه السلام»: يخبرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت: إنه لا كتاب معها؟!!

ثم اخترط السيف، وتقدم إليها، فقال: أما والله لئن لم تخرجي الكتاب لأكشفنك، ثم لأضربن عنقك.

فقالت: إذا كان لابد من ذلك فأعرض يا ابن أبي طالب بوجهك عني، فأعرض بوجهه عنها، فكشفت قناعها، وأخرجت الكتاب من عقيصتها، فأخذه أمير المؤمنين «عليه السلام»، وصار به إلى النبي «صلى الله عليه وآله».

فأمر أن ينادى: «الصلاة جامعة»، فنودي في الناس، فاجتمعوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم.

ثم صعد النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المنبر، وأخذ الكتاب بيده وقال: «أيها الناس إني كنت سألت الله عز وجل أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإن رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي».

فلم يقم أحد، فأعاد رسول الله «صلى الله عليه وآله» مقالته ثانية،

وقال: «ليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي».

فقام حاطب بن أبي بلتعة، وهو يرعد كالسعفة في يوم الريح العاصف، فقال: أنا يا رسول الله صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقاً بعد إسلامي، ولا شكاً بعد يقيني.

فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: «فما الذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب»؟

قال: يا رسول الله، إن لي أهلاً بمكة، وليس لي بها عشيرة، فأشفقت أن تكون دائرة لهم علينا، فيكون كتابي هذا كفاً لهم عن أهلي، ويداً لي عندهم، ولم أفعل ذلك للشك في الدين.

فقام عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله مرني بقتله، فإنه منافق.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «إنه من أهل بدر. ولعل الله تعالى اطَّلع عليهم فغفر لهم. أخرجوه من المسجد».

قال: فجعل الناس يدفعون في ظهره حتى أخرجوه، وهو يلتفت إلى النبي «صلى الله عليه وآله» ليرق عليه، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بردِّه، وقال له: «قد عفوت عنك وعن جرمك، فاستغفر ربك، ولا تعد لمثل ما جنيت»[1].

وفي نص آخر: «فخرج علي والزبير، لا يلقيان أحداً حتى وردا ذا الحليفة، وكان النبي «صلى الله عليه وآله» وضع حرساً على المدينة. وكان

---

(١) البحار ج٢١ ص١١٩ ـ ١٢١ وص١٢٥ و ١٢٦ عن الإرشاد للمفيد ج١ ص٥٦ ـ ٥٩ وراجع: إعلام الورى ج١ ص٣٨٤ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٠٨.

على الحرس حارثة بن النعمان، فأتيا الحرس فسألاهم، فقالوا: ما مر بنا أحد.

ثم استقبلا حطَّاباً فسألاه، فقال: رأيت امرأة سوداء انحدرت من الحرة، فأدركاها فأخذ علي منها الكتاب، وردها إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فدعا حاطباً، فقال له: انظر ما صنعت..

قال: أما والله، إني لمؤمن الخ..»[1].

وقال ابن عقبة: أدركاها ببطن ريم، فاستنزلاها فحلفت، فالتمساه في رحلها، فلم يجدا شيئاً، فهموا بالرجوع، فقال لها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله «صلى الله عليه وآله» وما كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك.

وعند القمي: ما كذبنا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا كذب رسول الله «صلى الله عليه وآله» على جبرئيل، ثم ولا كذب جبرئيل عن الله جل ثناؤه، والله لتظهرن الكتاب أو لأوردن رأسك إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخ..»[2]. (زاد في الحلبية: أو أضرب عنقك).

وفي مجمع البيان: وسل سيفه وقال: «أخرجي الكتاب، وإلا والله

---

(١) البحار ج٢١ ص١٢٥ عن إعلام الورى ج١ ص٢١٦.

(٢) البحار ج٢١ ص١١٢ وج٧٢ ص٣٨٨ وتفسير القمي ج٢ ص٣٦١ والتفسير الصافي ج٥ ص١٦١ وج٧ ص١٦٥ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٢٩٩ وتفسير الميزان ج١٩ ص٢٣٤.

لأضربن عنقك»[1].

فلما رأت الجد، قالت: أعرضا. فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه.

فخلوا سبيلها، ولم يتعرضوا لها ولا لما معها، فأتي به رسول الله «صلى الله عليه وآله» فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فدعا حاطباً، فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟

قال: يا رسول الله. إني والله لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت، ولا بدلت، ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان (ط مؤسسة الأعلمي) ج٩ ص٤٤٦ البحار ج٢١ ص٩٤ وج٤١ ص٨ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠١ وتأويل الآيات لشرف الدين الحسيني ج٣ ص٦٨٣ وعين العبرة في غبن العترة لأحمد بن طاووس ص٢٧ ومناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ج١ ص٤٠٥ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ والإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» لأحمد الرحماني الهمداني ص٧٧٧.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١٢ والبحار ج٢١ ص٩٤ و ١١٢ و ١٣٦ و ١٣٧ ومجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ وتفسير فرات ص١٨٣ و ١٨٤ وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٧ و ٧٩٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٨ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٧.

وفي نص آخر: أنها أخرجت الكتاب من حجزتها، والحجزة معقد الإزار والسراويل[١].

وحسب نص أورد في البحار: أن حاطباً قال: والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ صحبتك، ولا أجبتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت (عريراً) عزيزاً فيهم. (العرير: الغريب)، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وإن كتابي لا يغني عنهم شيئاً.

فصدقه رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعذره، فقام عمر بن الخطاب وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

فقال «صلى الله عليه وآله»: وما يدريك يا عمر، لعل الله اطَّلع على أهل

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و (ط دار المعرفة) ص١١ وعمدة القاري ج١٥ ص١٢ وراجع: الخرائج والجرائح ج١ ص٦٠ والبحار ج١٨ ص١١٠ وصحيح البخاري ج٤ ص٣٩ ومجمع الزوائد ج٦ ص١٣٦ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٥ وج١٥ ص١١ وتحفة الأحوذي ج٩ ص١٤١ ومسند بن أبي يعلى ج١ ص٣٢٠ وتخريج الأحاديث ج٣ ص٤٤٩ و ٤٥١ وكنز العمال ج١٠ ص٥٢٣ وجامع البيان ج٢٨ ص٧٦ وأحكام القرآن لابن العربي ج٤ ص٢٢٤ والمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية الأندلسي ج٥ ص٢٩٣ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥١ والتسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي الكلبي ج٤ ص١١٢ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٧٠ وإمتاع الأسماع ج٩ ص١٢٣ وج١٣ ص٣٧٦ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٨٠.

بدر، فغفر لهم، فقال لهم: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم[1].

وفي نص القمي: «ولكن أهلي وعيالي كتبوا إلي بحسن صنيع قريش إليهم، فأحببت أن أجازي قريشاً بحسن معاشرتهم، فأنزل الله الخ..» (٢).

ولفظ أبي رافع، فقال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم بها وأهليهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت إذ فاتني ذلك من بينهم أن أتخذ فيهم يداً أحمي بها قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً بعد إسلام.

---

(١) البحار ج٢١ ص٩٤ و ٩٥ عن مجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ ومسند أبي يعلى ج١ ص٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢١ والدرر لابن عبد البر ص٢١٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٦ وتخريج الأحاديث والآثار ج٣ ص٤٤٨ وجامع البيان للطبري ج٢٨ ص٧٧ وأسباب نزول الآيات ٢٨٣ وتفسير البغوي ج٤ ص٣٢٩ وراجع: تفسير السمرقندي ج٣ ص٤١٣ والمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية الأندلسي ج٥ ص٢٩٣ وزاد المسير ج٨ ص٣ وتفسير الرازي ج٣٢ ص١٥٣ والتسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي الكلبي ج٤ ص١١٢ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٧ والسيرة الحلبي (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٢ وشرح إحقاق الحق ج٣١ ص٧.

(٢) البحار ج٢١ ص١١٢ وج٧٢ ص٣٨٨ والتفسير الأصفى ج٢ ص١٢٩٠ والتفسير الصافي ج٥ ص١٦١ وج٧ ص١٦٦ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠٠ وتفسير الميزان ج١٩ ص٢٣٥ وتفسير القمي ج٢ ص٣٦٢.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «إنه قد صدقكم».

فقال عمر لحاطب: قاتلك الله!! ترى رسول الله «صلى الله عليه وآله» يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم؟! دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «ما يدريك يا عمر أن الله عز وجل اطَّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؟!

فاغرورقت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، حين سمعه يقول في أهل بدر ما قال[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٠ و ٢١١ وتفسير الرازي ج٢٩ ص٢٩٧ وج٣٢ ص١٥٤ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٥ و ٧٦ و (ط دار المعرفة) ص١٢ وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وراجع: كتاب الأم للشافعي ج٤ ص٢٦٤ والمجموع للنووي ج١٩ ص٣٤١ ونيل الأوطار للشوكاني ج٨ ص١٥٤ و ١٥٦ والإيضاح لابن شاذان ص٥٠٧ وشرح الأخبار ج٢ ص٣٠١ والبحار ج٢١ ص٩٥ ومواقف الشيعة ج٢ ص٢٥٥ وكتاب المسند للشافعي ص٣١٦ ومسند أحمد ج١ ص٨٠ وصحيح البخاري ج٤ ص١٩ وج٥ ص٨٩ وج٦ ص٦٠ وصحيح مسلم ج٧ ص١٦٨ وسنن أبي داود ج١ ص٥٩٧ وسنن الترمذي ج٥ ص٨٣ والسنن الكبرى للبيهقي ج٩ ص١٤٦ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٥٤ وج١٧ ص٢٤٧ ومسند الحميدي ج١ ص٢٨ والسنن الكبرى ج٦ ص٤٨٧ ومسند أبي يعلى ج١ ص٣١٦ و ٣٢١ وصحيح ابن حبان ج١٤ ص٤٢٥ ومعرفة السنن والآثار ج٧ ص١٠٢ والدرر لابن عبد البر ص٢١٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٦ وتخريج الأحاديث ج٣ ص٤٤٨ وكنز العمال ج١٠ =

وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ

= ص٥٢٢ وج١٤ ص٦٩ وتفسير مجمع البيان ج٩ ص٤٤٦ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٣٠١ وتفسير الميزان ج١٩ ص٢٣٦ وأحكام القرآن لمحمد بن إدريس الشافعي ج٢ ص٤٨ وجامع البيان ج٢٨ ص٧٥ و ٧٧ وتفسير الثعلبي ج٩ ص٢٩٢ وأسباب نزول الآيات ص٢٨٣ وتفسير البغوي ج٤ ص٣٢٨ و ٣٢٩ وتفسير النسفي ج٤ ص٢٣٦ وأحكام القرآن لابن العربي ج٤ ص٢٢٤ والمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية الأندلسي ج٥ ص٢٩٣ وزاد المسير ج٨ ص٣ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٥٠ والتسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي الكلبي ج٤ ص١١٢ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٦٩ و ٣٧٠ والدر المنثور ج٦ ص٢٠٣ وفتح القدير ج٥ ص٢١١ وتفسير الآلوسي ج٢٨ ص٦٦ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٢ وأسد الغابة ج١ ص٣٦١ ومناقب علي بن أبي طالب «عليه السلام» للأصفهاني ص١٥٤ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٢ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٢٦ و ٥٢٧ والوافي بالوفيات ج١١ ص٢١٠ والبداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٣٩٨ وج٤ ص٣٢٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٨.

كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1]»[2].

ونقول:

إن لنا هنا وقفات:

لعلها عدة رسائل:

قد يقال: إن نصوص الرواية المختلفة تشير إلى أن حاطباً قد كتب لقريش عدة رسائل، ولعل بعضها قد قصد به التعمية على الناس فيما لو انكشف الأمر، حيث يمكن لحامل الرسالة أن يظهر إحدى تلك الرسائل، فينصرف المفتشون عما سواها، وربما تكون رسالة واحدة، ذكر كل راوٍ بعض فقراتها، واقتصر عليه.

ولعله كتب الرسالة على فترات، كما احتمله الحلبي[3].

وإن كنَّا لم نستطع أن نفهم معنى معقولاً لهذا الاحتمال الأخير..

غير أننا رغم معقولية سائر الاحتمالات نقول:

سيأتي: أن الأقرب هو أنه لم يرسل سوى رسالة واحدة، وهي تلك

---

(١) الآيات ١ ـ ٤ من سورة الممتحنة.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ والبحار ج٢١ ص١١٢ عن تفسير القمي ص٦٧٤ و ٦٧٥ و (ط مؤسسة دار الكتاب ـ قم) ج١ ص١١. والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وراجع: أغلب المصادر في الهامش السابق.

(٣) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٥.

التي يعبر فيها حاطب عن عدم معرفته بمقصد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأنه يريد لهم أن يكونوا على حذر. وستأتي مبررات ذلك عن قريب إن شاء الله تعالى.

مقدار الجعل على حمل الرسالة:

ونحن نشك في أن يكون الجُعل الذي أعطاه حاطب لتلك المرأة لكي تحمل الرسالة إلى مكة هو دينار واحد، أو نحو ذلك، فإنها قيمة زهيدة لا يرغب بها راغب، ولاسيما مع هذه الأخطار التي قد تتعرض لها.

إلا إذا فُرض: أن تلك المرأة هي سارة التي قدمت من مكة، وتريد أن ترجع إلى بلدها.. أو أنها امرأة أخرى مضطرة للسفر على كل حال، وقد أرادت أن تسدي هذه الخدمة للمشركين، وتستفيد بعض المال أيضاً عن هذا الطريق.

هل نافق حاطب؟!:

وذكر الحلبي: أن مراد عمر بقوله عن حاطب: قد نافق: أنه خالف الأمر، لا أنه أخفى الكفر، لقوله «صلى الله عليه وآله»: قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيراً. وعليه يشكل قول عمر المذكور، ودعاؤه عليه بقوله: قاتلك الله.

إلا أن يقال: يجوز أن يكون قول عمر له ذلك كان قبل قول رسول الله «صلى الله عليه وآله» ما ذكر[1].

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ و (ط دار المعرفة) ص١٣.

غير أننا نقول:

إن ذلك لا يدفع الإشكال، فإن مخالفته الأمر لا توصف بأنها نفاق، فيبقى السؤال المذكور. إلا إن كان يريد أنه قد فَعَلَ فِعْلَ المنافق، من حيث إنه كان يظهر للمسلمين إخلاصه، ولكنه يفعل في الباطن خلاف ما يظهره..

ولكنه بعد انكشاف أمره قد صدق في كلامه حين أخبرهم بالأسباب التي حملته على هذا الفعل النفاقي..

المخبأ العتيد:

ويلاحظ هنا: أن تلك المرأة قد خبأت الكتاب في شعرها، وفتلت عليه قرونها. أو خبأته في حجزتها، وهو معقد السراويل كما في رواية أخرى.. لأنها كانت تدرك تحرُّج المسلمين من النظر إلى شعور النساء، أو من تجريدهن بحيث يظهر لهم المخبأ في معقد السراويل، لأن ذلك حرام شرعاً، ويفترض بهم أن يلتزموا بأحكام الشرع، وحتى لو كشفوا رأسها، أو انكشف قهراً بسبب حركة عنيفة، أو بريح شديدة، فإن ذلك لا يضر، لأن الكتاب كان في داخل الشعر المفتول.

الفضل لعلي عليه السلام:

وقد كان الفضل لعلي «عليه السلام» في كشف أمر تلك المرأة. أما الذين كانوا معه فقد أقنعهم قولها، وأرادوا تخلية سبيلها. بل إن الزبير حكم ببراءتها من هذا الأمر الذي انتدبهم إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ولم يطالبوها بكشف رأسها، ولا بنقض شعرها المفتول..

وقد اخطأوا في ذلك من جهتين:

أولاهما: أنهم لم يراعوا أوامر رسول الله «صلى الله عليه وآله» المسدد بالوحي الذي يريه الواقع كما هو.

الثانية: أن ظاهر حالها لا بد من أن يشي بلزوم الريبة بها لأن نفس المسالك التي سلكتها لا بد من أن تثير شكوكهم في أمرها.. حتى لو لم يخبرهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» بشيء.

وذلك لأنها تركت الطرقات السهلة، والتي اعتاد الناس سلوكها، واختارت السير في القفار والشعاب فترة طويلة، ثم عادت إلى الطريق في «العقيق»..

فأخذوها هناك، وكشف أمرها علي «عليه السلام»، ولا يسلك هذه المسالك إلا هارب أو خائف، أو من يخفي شيئاً خطيراً يريد ان ينفذه إلى بلاد أخرى.

الحرس على الطريق وشى بالخائن:

إن حاطب بن أبي بلتعة يوصي حاملة رسالته بأن لا تمر على الطريق، فإن عليه حرساً، فتركت الطريق وسارت في القفار والفجاج مقداراً طويلاً، ثم عادت لتسلك الطريق في منطقة «العقيق».

ومن البديهي: أنه لا يمكنها الوصول إلى مكة بسلوك متاهات الصحاري والقفار، وترك الجادة، لأن ذلك يعرضها لكثير من المفاجآت والأخطار، بل هو يؤدي بها إلى الهلاك والبوار.

ولأجل ذلك أخذ رسول الله «صلى الله عليه وآله» المسالك على كل

سالك ووضع الحرس عليها، لأنه «صلى الله عليه وآله» يعلم: كل من تنكّب الطريق لا بد من أن يعود إليها ولو بعد حين.

رسالة تهديد أم تحذير؟!:

وقد ذكروا بعض النصوص لرسالة حاطب التي قد يقال: إنها أشبه بالتهديد منها بالإخبار لهم مما يراد بهم. ففيها: «أقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده الله فيكم، فإن الله ناصره ووليه».

ثم يقال: لو صح أن هذا هو النص الذي كتبه إليهم حاطب لاستحق عليه المدح والثناء، والتقدير، لا الملامة والتوبيخ.. ولكان ينبغي إنفاذ الرسالة إليهم، وعدم مصادرتها.

غير أننا نقول:

إن هذه الكلمات لا تكفي لإعطاء هذا الانطباع، لأنها قد تكون لأجل التغطية على الخبر الأهم الذي أتحفهم به، أو يكون قد ساق هذه العبارات ليتذرع بها ـ لو انكشف الأمر ـ ويدَّعي: أنه لا يقصد إلا بث الرعب واليأس في قلوب الأعداء، علماً بأن ذلك لن يجديه نفعاً بعدما صرح لهم في رسالته بما كان الرسول «صلى الله عليه وآله» قد حذَّر الناس من إخبارهم به، وجعل الأرصاد على الطرقات، من أجل تلافي حصوله.. وبذلك يكون حاطب قد عرَّض نفسه للإدانة على كل حال.. وجعلها في موضع الخذلان والخسران، ولا ينفعه المراء والجدل.

دقة معلومات حاطب:

ونحن لا نستطيع أن نتقبل ما ورد في بعض المصادر من أن حاطباً قد كتب لقريش: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» خارج إليكم يوم كذا وكذا..[1].

ولا أن نقبل الرواية التي تقول: إنه كتب إليهم: إن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم[2].

وذلك لسببين:

أحدهما: أن أحداً لم يستطع أن يعرف وجهة سير رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حتى سار بجيشه مسافات طويلة كما ظهر في جزء سابق حين الكلام حول سرية أبي قتادة إلى بطن إضم.

الثاني: أنه حتى لو علم حاطب بأن المقصود هو غزو مكة، ولكن من أين يستطيع تحديد يوم خروج رسول الله «صلى الله عليه وآله» بذلك الجيش، وأنه يوم كذا؟ فإن ذلك لا يتلاءم مع هذه السرِّية الفائقة التي كان «صلى الله عليه وآله» يعتمدها.

وقد ظهرت الكثير من الدلائل والشواهد على دقته البالغة في مراعاتها والحفاظ عليها، بحيث لا يستطيع حاطب وسواه أن يعلم بهذا التاريخ الدقيق.

---

(١) إعلام الورى (ط مؤسسة آل البيت) ج١ ص٢١٦ والبحار ج٢١ ص١٢٥ عنه.

(٢) البحار ج٢١ ص٩٤ عن مجمع البيان ج٩ ص٢٦٩ و ٢٧٠ والمغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ ومصادر كثيرة تقدمت.

والصحيح في الأمر هو أنه كتب إليهم يقول: إنه «صلى الله عليه وآله» قد آذن بالغزو، إما إليكم أو إلى غيركم.

وقد أحب أن يخبرهم بذلك ليكونوا على حذر، لاحتمال أن يكون قصده إليهم.

خبر السماء:

ويأتي التأييد بالوحي الإلهي في خصوص موضوع سرية التحرك وهدفه الأقصى ليبعث اليأس في نفوس المنافقين، والمتزلفين، والخانعين، والمتآمرين، وليقول لهم: إنكم غير قادرين على اختراق حاجز الرقابة هذا، فإن المؤمنين حتى لو استنفدوا قدراتهم، فسيأتيهم المدد والتسديد والتأييد الإلهي، ليسد مواضع الخلل، ويحفظ المسيرة من دون أن يباشر أي تصرف قاهر لإرادات المعاندين والمتآمرين..

وهذا ما حصل فعلاً في قضية حاطب بن أبي بلتعة، حيث لم يتدخل الله تعالى لمنع حاطب من التفكير في مراسلة قريش، ولا من التخطيط، ثم التنفيذ، كما انه لم يتصرف في إرادة المرأة حاملة الرسالة، ولا أعجزها عن التصرف، ولا قهرها على التزام طريق بعينها، بل هي اختارت طريقاً وسلكته، وخططت لأمر، ونفذت خطتها..

ولكنه أخبر نبيه بما جرى.. فتصرف «صلى الله عليه وآله» بطريقة من شأنها أن تؤدي إلى كشف المستور، وجنَّب بذلك اهل الإيمان من الوقوع في المحذور.

كما أن شعور أهل الإيمان بالتسديد والتأييد الإلهي لا بد من أن يقوي

من عزيمتهم، ويشد من أزرهم، ويرسخ من يقينهم.

ألا يكفي علي عليه السلام وحده؟!:

وقد يدور بخلد أحدهم سؤال يقول: ألم يكن يكفي أن يرسل علياً وحده لأخذ الكتاب من تلك المرأة، فلماذا أرسل معه آخرين، مثل الزبير، وسواه حتى إن الأسماء قد تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة؟! مع أن حاملة الرسالة مجرد امرأة، لا حول لها ولا قوة ولا تحتاج إلى كل هذا العدد.

ألا يدلنا ذلك: على أن ثمة تصرفاً في الروايات بالتضخيم، والتهويل، لحاجة في نفس الرواة قضيت؟!

إلا أن يقال: إنه «صلى الله عليه وآله» أرسلهم فرقاً في مسالك مختلفة حتى لا تفوتهم تلك المرأة.

ونجيب:

بأنه لا شك في أن ثمة أهدافاً أخرى تتجاوز موضع مصادرة الرسالة، ومنع وصولها إلى قريش، ونستطيع أن نذكر من هذه الأهداف ما يلي:

أولاً: إن الأمر لا ينحصر بمنع وصول هذه الرسالة إلى قريش، بل هو يتجاوز ذلك إلى إثارة جو من الرهبة يمنع أياً كان من الناس بالتفكير في تسريب أية معلومة عن تحركات النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين إلى أي كان من الناس..

فكان أن اختار «صلى الله عليه وآله» عدة أشخاص لهم خصوصيات وتوجهات، وارتباطات، واهواء مختلفة، ومتشعبة، ليروا جميعاً بأم أعينهم صدق الوحي الإلهي، وليأخذوا العبرة، وينقلوها إلى الفبائل والأفراد

الذين يعيشون في أجوائهم، ولهم صلة بهم بنحو أو بآخر..

ثانياً: إنه لو أرسل «صلى الله عليه وآله» أي واحد منهم سوى علي «عليه السلام»، فسيرجع بخفي حنين، كما اظهرته الوقائع، حيث صدقوا تلك المرأة وهموا بالرجوع، وستتمكن تلك المرأة من الإفلات، وربما لم يمكن اللحاق بها، أو ربما يصعب العثور عليها إذا سلكت مسالك معينة.. وفي ذلك تفريط ظاهر لا مجال للقبول به، ولا لتحمله..

ثالثاً: إنه لا بد من أن يعرف الناس جميعاً مدى التفاوت فيما بين تلك الجماعة التي خدعت ببكاء تلك المرأة، وصدقتها في إنكارها، حتى هموا بالرجوع عنها وبين علي «عليه السلام»، وفي معرفته، ووعيه، وصحة تدبيره، وإيمانه ويقينه بما جاء به رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكيفية نظرته إلى الوحي الإلهي، وإلى النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، وطبيعة تعامله معه، ومع أوامره، وأقواله، وإخباراته..

وبذلك يظهر زيف ما يدَّعيه الناس لغيره «عليه السلام» من مناوئيه، ومخالفيه، وحاسديه، أو ما يدَّعيه هؤلاء لأنفسهم من مقامات وبطولات، ومن خصائص وميزات، ومن جهاد وتضحيات، وذلك لأنهم خالفوا صريح أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين قال لهم: خذوه منها، وخلوا سبيلها، فإن أبت فاضربوا عنقها.

خذوه منها، فإن أبت فاضربوا عنقها:

وهذا الأمر الذي صدر من رسول الله «صلى الله عليه وآله» لهم حول كيفية التعامل مع حاملة الرسالة لا يترك لهم أي مجال لتصديقها، أو توهم

براءتها مما نسب إليها، فضلاً عن أن يهموا بالرجوع، لأن ذلك يتضمن تكذيب الوحي الإلهي، والطعن بعصمة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والتخطئة له..

وإن الأمر بضرب عنقها لو أبت أن تعطيهم الكتاب يدل على أن حكم من يفشي سر المسلمين، ويصرّ على التآمر على رسول رب العالمين، هو القتل كائناً من كان، حتى لو كان امرأة..

كما أن الأمر بتخلية سبيلها بعد اخذ الكتاب منها يتضمن إرفاقاً بها، وعفواً عن جرمها، خصوصاً مع محاولتها إنكار الرسالة، حتى إنها لم تعطهم إياها إلا بعد تهديد علي «عليه السلام» لها..

والقول بأنها إذا كانت لا تعلم بمضمون الرسالة فإنها تكون غير مشاركة في الخيانة، غير مقبول، فإنها ـ على أقل تقدير ـ تحمل رسالة تتضمن أسراراً يراد إيصالها سراً للمشركين، وتعلم أن ظهور هذه الأسرار سيكون مضراً للمسلمين، حتى لو لم تعلم بتفاصيل مضمون الرسالة، وهذا يكفي لإدانتها.

الصلاة جامعة لماذا؟!:

وقد صرحت رواية المفيد: بأن النبي «صلى الله عليه وآله» أمر أن ينادى في الناس: «الصلاة جامعة»، (وهو تعبير عن دعوة عامة لأمر مهم طارئ) فلما اجتمعوا في المسجد حتى امتلأ بهم صعد النبي «صلى الله عليه وآله» المنبر، وأخذ الكتاب بيده، وطلب من صاحبه أن يعلن عن نفسه، وإلا فضحه الوحي..

والسؤال هو: لماذا هذا الإعلان بالأمر؟ وبهذه الطريقة القوية والواسعة؟

ألم يكن الأجدر أن يعالج الأمر بهدوء يحافظ به على ماء وجه حاطب؟!

ونقول في الجواب:

إن الإعلان عن الموضوع بهذا النحو القوي كان ضرورياً، وله أسباب وفوائد عديدة، نذكر منها ما يلي:

١ ـ إن هذه الطريقة من شأنها أن تعرِّف الناس بهذا الأمر الخطير على أوسع نطاق، وقد كان هذا هو مطلوب له «صلى الله عليه وآله» لأسباب، ربما يتضح بعضها عن قريب..

٢ ـ إن ذلك يبقي هذا الخبر على درجة من السلامة والصحة، والوضوح في أذهان الناس، ويمنع من تلاعب المتلاعبين فيه بالزيادة فيه تارة، والنقيصة أخرى، حسب الأهواء، ورياح السياسة، والمصلحة، فإن تناقل أمثال هذه الأخبار بصورة فردية أو جماعية بلا رقيب ولا عتيد سوف يمكِّن أصحاب الأهواء من التحريف فيه، بما يخدم أهواءهم ومصالحهم وخططهم!!

٣ ـ إن هذا الإعلان الواضح والصريح قد وضع حداً أمام التكهنات والتساؤلات عن طبيعة الموقف الذي سيتخذه النبي «صلى الله عليه وآله» ممن أقدم على هذا العمل الخطير، كما أنه قد رسم للناس طريقة التعاطي معه، ومنع من الإفراط والتفريط الذي قد تنشأ عنه إثارات غير مسؤولة، قد تضر في مسار الأمور كما يرضاه الله ورسوله..

٤ ـ إن ذلك يبين لمن تسوّل له نفسه القيام بأمثال هذه التصرفات حجم الفضيحة التي ستواجهه، وسيكون ذلك مؤثراً في الردع عن أي تصرف من هذا القبيل..

٥ ـ إن هذا التهديد بفضيحة الوحي لمن فعل ذلك، ولا يرضى بالإقرار والاعتراف العلني لا بد من أن يزيد من شعور الناس بالرقابة، وعدم القدرة على إخفاء أمرهم لو سولت لهم أنفسهم الدخول في مغامرة كهذه..

٦ ـ إن الأمر لم يقتصر على مجرد توجيه اتهام قولي للفاعل، بل تعداه إلى تقديم الدليل الحسي على هذا الأمر، وهو الكتاب الذي أخذه رسول الله «صلى الله عليه وآله» بيده وهو على المنبر، بحيث يراه كل أحد، فلا تكهنات ولا اجتهادات ولا ظنون، ولا حدسيات، ولا مجال للوسوسات الشيطانية في هذا الأمر..

٧ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» لم يكتف بإظهار الكتاب ثم تحديد الفاعل، بل هو قد حمل الفاعل على أن يقر بنفسه بما فعل.. بصورة طوعية وهو يرتعد.. وذلك بعد أن ظهر تردده في البداية.

٨ ـ إن نفس دفاع حاطب بن أبي بلتعة عن نفسه، قد أثبت الجريمة عليه، ولم تعد هناك أي فرصة للتأويل والاحتمال والاجتهاد، واستغلال الحدث في اتجاه انحرافي يسيء إلى القضية بنحو أو بآخر..

٩ ـ إن اعتراف حاطب بما فعل، إنما جاء تحت وطأة الكشف الرباني لما حصل، حتى لقد حُددت المرأة، وحُدد موقعها، وأرسل الرجال في طلبها، ولم يعد يمكن إخفاء أي شيء.. وذلك لا يدل على عمق إيمان حاطب، بل هو يدل على هزيمته بعد أن أسقط في يده..

حاطب ينفي الشك والنفاق:

وقد رأينا: أن أول ما دفعه حاطب عن نفسه هو تهمة النفاق والشك في الدين، وتأكيد التزامه بإسلامه، ويقينه به..

ولم يناقشه النبي «صلى الله عليه وآله» فيما ادَّعاه من ذلك. بل هو قد سمع منه، ثم ساق الحديث معه في اتجاه آخر..

ومن الواضح: أن النفاق هو التهمة الأقسى، والأشرّ والأضرّ بالنسبة لحاطب، لأنه كفر قوي وفاعل، يريد أن يلحق الضرر بالإيمان وبأهله، إما بأن يسقط دعوتهم بأساليب من الختل والغدر والتخريب، أو يريد سلب المسلمين قدراتهم، والاستئثار بها لنفسه..

وهذا يمثل خطورة مباشرة وعملية ومؤثرة، لأنه كفر مهاجم يعمل بهدوء وأناة وطمأنينة بعد ان هيأ لنفسه موجبات ذلك، حين أظهر الإسلام وأبطن الكفر..

وأما مجرد الشك في الدين، فهو وإن كان كفراً أيضاً، لكنه كفر مهزوم وراكد وضعيف، يصارع الحقيقة في داخل نفسه، ولا يقدر على تجاهلها والتخلص منها..

وقد نفى حاطب عن نفسه الشك، كما نفى عنها النفاق أيضاً..

ولم يرد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يقف معه عند هذه النقطة ولا أن يناقشه فيها.. لأنه يريد أن يبقيه في دائرة السيطرة، ويعطيه فرصة، ويفسح له المجال لإعادة ترتيب أوضاعه، فإن هذا المقدار من القبول مطلوب له «صلى الله عليه وآله» ولا يريد التفريط فيه.. ولذلك وجَّه «صلى الله عليه وآله» الأنظار إلى تلمّس عذر حاطب فيما أقدم عليه. وسنرى أنه

عذره أيضاً..

تهديد المتهم:

وعن تهديد علي «عليه السلام» لتلك المرأة حاملة الرسالة، قد يقال: كيف جاز لعلي «عليه السلام» أن يهدد إنساناً متهماً لم تثبت إدانته بعد؟!

ويجاب: بأن إدانة تلك المرأة قد ثبتت بالوحي. ومن أصدق من الله قيلاً؟ وهو علام الغيوب؟! والعالم بما في القلوب؟

ونحن نشك في أنها لو استمرت على إنكارها فقد كان يجب على علي «عليه السلام» أن يقتلها لسببين:

أحدهما: أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي أمره بقتلها إن أبت تسليم الكتاب، لأن القتل هو حكم الله في المحارب لله ورسوله، ومن يصر على إطفاء نور الله تبارك وتعالى..

الثاني: إن تركها سوف يؤدي إلى تمكينها من إيصال الرسالة للأعداء، ليتمكنوا من ثم من إفشال خطة رسول الله «صلى الله عليه وآله» أو من إيجاد متاعب ومصاعب كان المسلمون في غنى عنها. وقد تنشأ عن ذلك خسائر كبرى في أهل الإيمان، وربما يؤدي ذلك إلى إطالة أمد هيمنة حالة البغي والاستكبار، والظلم والتعدي على المستضعفين من النساء والرجال، والصبيان بصورة عامة.

وقد يعترض على ذلك: بأنه قد كان بإمكانهم أن يفتشوها تفتيشاً دقيقاً، ويأخذوا منها الكتاب، ولا تصل النوبة إلى القتل..

ولكننا قلنا: إن الإصرار على حرب الله ورسوله، وإطفاء نور الله هو

الذي جعلها تستحق القتل..

وأما الكتاب فإن التفتيش عنه لا يكفي لحسم مادة الخطر فيه، إلا إذا كان العثور عليه حتمياً، وليس الأمر كذلك إذ هي قد تتمكن من إخفائه تحت حجر، أو مدر، أو بين أغصان الشجر، أو نحو ذلك.. ثم إنها بعد إطلاق سراحها تعود إليه، او تدل عليه من يأخذه ويوصله إلى من يتلهف عليه، ويتشوق إليه.

ولسنا بحاجة إلى التذكر: بأن هذه الإحتياطات من رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا تعني أن جهة مسيره قد عرفت، بل هي تعني: أنه «صلى الله عليه وآله» لا يرضى بتعريف قريش وغيرها من أعدائه بأصل خروجه من المدينة على هيئة الحرب، فإن ذلك يجعل الأعداء يحذرون لاحتمال أن يكونوا هم الذين يقصدهم.

كما أن نفس وجود أناس يوصلون للمشركين أخبار المسلمين مرفوض، حتى لو كانت تلك الخبار غير دقيقة أو خاطئة من أساسها.

ردها إلى رسول الله ﷺ:

ثم إن ما ورد في بعض النصوص: من أنه «عليه السلام» قد رد حاملة الكتاب إلى رسول الله، لا يتلاءم مع أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بأخذ الكتاب منها، ثم إطلاق سراحها.

إلا أن يقال: إنه قد يكون هناك خطأ في الكتابة، فأراد الكاتب أن يكتب (ردَّه) (أي الكتاب) إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فكتب ردها.

غير أننا نقول:

إنه يحتمل أن يكون «عليه السلام» قد ردها، لكي يمنعها من الوصول إلى مكة قبل حركة الجيش إليها، لكي لا تخبر أهل مكة شفاهاً بما رأته من اعداد واستعداد، كانت تحتمل أو تظن أنه لغزوهم.

فيكون المراد بإطلاق سراحها عدم المبادرة إلى قتلها، أو ضربها، أو سجنها، لأن المطلوب هو مجرد تعطيل حركتها إلى مكة برهة يسيرة، يزول فيها الداعي إلى هذا التعطيل.

حاطب يلتفت إلى النبي ﷺ ليرقّ له:

وقد صرحت الرواية عن الشيخ المفيد، وغيره: بأن حاطباً صار يلتفت إلى النبي «صلى الله عليه وآله» ليرق له.. وذلك حين كانوا يدفعون في ظهره حتى أخرجوه من المسجد..

فحاطب إذن لم يكن لديه أي أمل بغير رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو حتى حين ظهرت خيانته لرسول الله «صلى الله عليه وآله» نفسه، لم يكن يتوقع النصر من قريب رحيم، ولا من صديق حميم، ولا من حليف جديد ولا قديم.

وهذا يؤكد على: أن ثمة صورة جليلة وجميلة قد انطبعت للنبي «صلى الله عليه وآله» في نفسه وفي نفس كل من عرف رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن قرب، واستقرت في عمق وجدانه، وهي صورة قد ظهرت معالمها في آيات قرآنية كريمة، في أكثر من مناسبة، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم**

بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وهذا من أروع الأمثلة على طبيعة العلاقة بين القائد ورعيته، حيث يبلغ الأمر في صفائها ونقائها، وسلامتها وصدقها حداً تكون وسيلة المجرم والمسيء، وشافعه إليه، هو نفس ذلك الذي كانت الإساءة إليه، ووقعت الجريمة عليه..

قيمة العفو.. والاستغفار:

وتتجلى له قيمة الإستغفار، وينعم بالعفو الرحيم من النبي الكريم «صلى الله عليه وآله»، ويأتيه ما أمَّل، ويهب النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» لحاطب بن أبي بلتعة جرمه، رغم خطورته، ويجعل قيمة هذا العفو: أن يستغفر حاطب ربه، وأن لا يعود لمثل ما فعل.

أي أنه «صلى الله عليه وآله» لم يفرض عليه غرامة، ولا مارس في حقه تعزيراً، ولا وجه إليه أية كلمة إهانة، ولا أمر بالتضييق عليه في سجن، ولا في غيره، كما أنه لم يفرض عليه الإقامة في بلد بعينه، ولا حد من حرية حركته، ولا منع الآخرين من التعاطي معه، ولا.. ولا..

بل أراد أن لا تزيد عقوبته على إخراجه من المسجد وهي عقوبة تكاد تكون رمزية، من حيث إنها تعبر عن إبعاد محدود عن ساحة الرضا، ما دام أن ما فعله حاطب كان سيؤدي إلى الإضرار بأهل الإيمان. وهو قد ميَّز نفسه عنهم، وأراد أن يكون هو في معزل عن أجوائهم، ولا يريد أن يناله ما

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

ينالهم. لقد أرادها رسول الله «صلى الله عليه وآله» عقوبة إصلاحية تربوية، مضمونها ترميم علاقته بالله، بالتوبة والاستغفار، باعتبار أن الجرأة إنما كانت عليه تبارك وتعالى..

فإذا استطاع أن يصلح سريرته، وأن يرضي ربه، فإنه يكون قد بلغ الغاية التي يريد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يبلغه إياها.

عذر حاطب:

وعن اعتذار حاطب عما صدر منه نقول: إنه أراد أن يتخذ بما صنعه يداً لدى أهل مكة ليحفظ بذلك أهله، إذ ليس له عشيرة تمنعه..

ولم يناقشه النبي «صلى الله عليه وآله»، ولا اعترض عليه أحد من المسلمين في ذلك.. لكن هذا الانصراف عن المناقشة لا يعني أنه منطق سليم ومقبول.. بل هو انصراف إرفاقي بالدرجة الأولى، فلاحظ ما يلي:

١ ـ إن وجود أهله في مكة لا يحتم عليه القيام بعمل خياني، يلحق الضرر بالكيان الإسلامي كله، ويوجب إفساد التدبير النبوي، وإضعاف هيبته «صلى الله عليه وآله» لدى الأعداء، وفتح أبواب التجريح والتشكيك لأهل النفاق، ولا يجوز لأحد في أي ظرف كان أن يمكنهم من إثارة الشكوك بسلامة المسيرة، وفي حسن السياسة، وصواب الرأي النبوي الشريف.

٢ ـ إن الضرر إذا توجه لإنسان مّا، فإن بإمكانه أن يدفعه عن نفسه، ولكن ليس له أن يقذف به على غيره، فلو أراد أسد أن يدخل بيتاً ويفترس شخصاً، فإن بإمكانه أن يتحرز منه بالطريقة التي تدفعه عنه. وليس له أن يدخله بيت جاره، ليكون جاره هو الضحية..

٣ ـ لقد كان هناك الكثيرون من الضعفاء الذين لم يكن لهم عشائر تمنعهم، وقد تعرضوا للعذاب على يد فراعنة قريش حتى قتل بعضهم، ومنهم آل ياسر، ولم يجوِّز لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» ولا خطر في بالهم أن يحملوا جلاديهم على التوجه بالعذاب إلى غيرهم من المؤمنين..

٤ ـ مَن الذي قال: إن قريشاً كانت تنوي إلحاق الأذى بأهل حاطب فإن ذلك مجرد وهم وقع فيه حاطب، رغم أنه وهم علِّق حصوله على أمر تقديري افتراضي، وهو أن تكون لقريش الدائرة على المسلمين، وليس ثمة ما يشير إلى حصول أمر من هذا القبيل، بل الدلائل تشير إلى عكس ذلك تماماً.

وحتى لو حصل ذلك، فإن حاطباً لا يستطيع أن يجزم بتعرض أحد من أهله لأي سوء.

٥ ـ ألم يفكر حاطب في أن ما فعله سوف يؤدي إلى زيادة القتل في صفوف أهل الإيمان؟ فكيف فرط بالنبي «صلى الله عليه وآله»، وبكل أهل الإيمان من أجل حفظ بعض أهله ممن هم على الشرك بحسب الظاهر؟!

وحتى لو كانوا مسلمين، فإن إلحاق الأذى بهم يبقى في دائرة الاحتمال، بينما هو يقدم لقريش معلومات من شأنها أن تمكنها من أن تلحق الخسائر بالمسلمين بصورة قطعية ويقينية.

للنبي ﷺ أن يعفو عن حاطب:

إننا لسنا بحاجة إلى الاستدلال على مشروعية العفو عن حاطب بأي دليل، بل نحن نستدل على ذلك بنفس العفو الذي صدر عن النبي «صلى

الله عليه وآله» في حق هذا الرجل.. فمنه «صلى الله عليه وآله» التشريع، وإليه يرجع في معرفة الأحكام، وقوله وفعله وتقريره «صلى الله عليه وآله» حجة ودليل ما بعده دليل..

غير أن البعض قد يتساءل عن إمكان العفو عن حاطب في حين أن جرمه يرتبط بأشخاص آخرين وهم المسلمون، وأهل الإيمان..

والجواب:

أولاً: إن جرم حاطب يرتبط أولاً وبالذات بالسياسة النبوية العامة، وبقرار الحرب والسلم، ولا يرتبط بحق شخصي لأحد من الناس..

ثانياً: لو فرضنا: أن جرمه يرتبط بحق شخصي لبعض الأفراد، فإن الله تعالى قد جعل الولاية لرسول الله «صلى الله عليه وآله» على الناس كلهم، فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ..﴾[1].

عمر: مرني بقتله:

قد ذكرت في العديد من الموارد في تاريخ الإسلام، وفيها هذا المورد بالذات: أنه قد كان من عادة عمر بن الخطاب أن يصدر حكمه على الأشخاص، ثم يطلب من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يأمره بتنفيذه..

فكم من مرة ينبري فيها ليقول لرسول الله «صلى الله عليه وآله»: دعني أقتله يا رسول الله..

واللافت هنا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يستجب له ولو لمرة واحدة في كل تلك المناسبات الكثيرة.. الأمر الذي يعني كثرة خطأ هذا

---

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

الرجل في معرفة الحكم الشرعي، أو في معرفة المصلحة في الشأن العام، في حين أن هذه الأمور تمس حياة الناس ومصيرهم.

وهذا يجعلنا نتساءل عن حاله بعد توليه الخلافة لأكثر من عقد من الزمن: كم أخطأ في أحكامه التي كان يصدرها، ولم يصب الحكم الشرعي فيها، أو أنه لم يصب وجه المصلحة في الشأن العام؟!

لا ندري!!

ولعل الفطن الذكي يدري!!

منقبة عظيمة لحاطب:

قال الحلبي: «.. وفي قوله: عدوي وعدوكم منقبة عظيمة لحاطب.. بأن في ذلك الشهادة له بالإيمان»[1].

غير أننا نقول:

أولاً: إن الله سبحانه قد خاطب من أظهر الإسلام في زمن الرسول «صلى الله عليه وآله» بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِالله وَرَسُولِهِ..﴾**[2].

ثانياً: إنه لا مانع من أن يعود الذي آمن إلى الكفر، كما هو الحال في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطليحة بن خويلد، وغيرهما..

وقد صرح القرآن الكريم بذلك أيضاً، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾**[3].

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ و (ط دار المعرفة) ص١٣.

(٢) الآية ١٣٦ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٣٧ من سورة النساء.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1].

ثالثاً: قد صرح القرآن الكريم بأن من يتولى اليهود والنصارى فهو منهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[2].

وهذا تقريباً هو نفس حال حاطب، وهو نفس ما اعتذر به، فراجع الكلمات المنقولة عنه فيما تقدم..

رابعاً: إن نفس الآية أو الآيات في سورة الممتحنة، والتي ذكروا أنها نزلت في حاطب، قد صرحت: بأن من يفعل فعل حاطب فقد ضل سواء السبيل.. ثم تواصل الآيات الشريفة بياناتها، وتضرب الأمثال المبينة لكيفيات التعامل مع الكفار، لتختم بالقول: ﴿..وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

خامساً: إن مما يدل على أن حاطباً قد ارتكب جرماً: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أمر بإخراجه، ولم يمنع الناس من التعامل معه بخشونة، حيث صاروا يدفعونه في ظهره حتى أخرجوه، وهو يلتفت إلى النبي «صلى

---

(١) الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) الآيتان ٥١ و ٥٢ من سورة المائدة.

(٣) الآية ٩ من سورة الممتحنة.

الله عليه وآله» ليرق له..

ثم إنه «صلى الله عليه وآله» قد صرح بسوء فعل حاطب، وبجرمه، حين قال له: «قد عفوت عنك، وعن جرمك، فاستغفر ربك، ولا تعد لمثل ما جنيت..».

فلماذا يحرص الحلبي على اعتبار هذا الجرم فضيلة لحاطب لمجرد كون الخطاب في الآية الكريمة قد وجه إلى المؤمنين؟!

سادساً: إن الآية إنما جاءت على سبيل الإرشاد للمسلمين إلى سوء هذا الفعل، وتحذيرهم من الوقوع فيه.. مع غض النظر عن الأحكام التي تنشأ عنه، فلو أن أحداً تعمد الوقوع فيه، فالآيات لم تبين حال هذا الشخص، وأنه هل يبقى على حال الإيمان، أو أنه يكفر بذلك.

لعل الله اطلع على أهل بدر!!:

وأما قول النبي «صلى الله عليه وآله» لعمر: لعل الله اطلع على أهل بدر، فقد جاء رداً على عمر بن الخطاب، وردعاً له عن أن يقول شيئاً بغير علم. أي أن مضمون هذه الكلمة صحيح في نفسه، إذ لم يكن يحق لعمر أن يخبر عما في الضمائر، وما تكنُّه السرائر.

ولكن ذلك لا يعني أن ذلك قد حصل فعلاً، فإن صدق الشرطية لا يلزم منه صدق وقوع طرفيها..

ولكن أهل الحقد والشنآن قد حاولوا أن يستفيدوا من هذه الكلمة في اتجاهين:

أحدهما: ادِّعاء تحقق المغفرة لأهل بدر فعلاً، وأن كل ما صدر ويصدر

منهم مغفور لهم، مع أن هذه الكلمة لا تفيد ذلك.. وذلك للأمرين التاليين:

أولاً: لما ذكرناه آنفاً من أن المقصود: هو نفي أن يكون عمر قد اطَّلع على الغيب، وعلم بما أجراه الله لأهل بدر، ومارسه في حقهم. فلعله قد غفر لهم صغائر ذنوبهم، مكافأة لهم على جهادهم وتضحياتهم..

ولعل هذا الذنب من حاطب لم يكن من الكبائر، بسبب قصوره عن فهم حقيقة الأمور، وتوهمه أن ذلك لا يخل بإيمانه، ولا يضر بالمسلمين. ولذلك صدقه رسول الله «صلى الله عليه وآله» وقال: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً».

ولكن صدقه هذا لا يعني أنه لم يكن مستحقاً للعقوبة بسبب إقدامه على أمر معلوم السوء لدى كل أحد.

ثانياً: إن المراد بهذه الكلمة: هو أن يستأنفوا عمل الخير، وأن يزدادوا منه، فإن سيآتهم السابقة قد محيت.. وأصبح مصيرهم مرهوناً بما يكون منهم في المستقبل..

ثانيهما: إن أولئك الحاقدين قد اتخذوا ذلك ذريعة للطعن في أمير المؤمنين «عليه السلام»، فقد روى البخاري في صحيحه، قال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة عن حصين، عن فلان، قال: تنازع أبو عبد الرحمن وحبان بن عطية، فقال أبو عبد الرحمن لحبان: لقد علمت الذي جرأ صاحبك على الدماء، يعني علياً.

قال: ما هو؟ لا أبا لك.

قال: شيء سمعته يقوله.

قال: ما هو؟

قال: بعثني رسول الله «صلى الله عليه وآله» والزبير، وأبا مرثد، وكلنا فارس.

قال: انطلقوا حتى تأتوا روضة حاج. قال أبو سلمة: هكذا قال أبو عوانة: حاج. فإن فيها امرأة معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأتوني بها.

فانطلقنا على أفراسنا حتى أدركناها حيث قال لنا رسول الله «صلى الله عليه وآله» تسير على بعير لها، وكان كتب إلى أهل مكة بمسير رسول الله «صلى الله عليه وآله» إليهم. فقلنا: أين الكتاب الذي معك؟

قالت: ما معي كتاب.

فأنخنا بها بعيرها، فابتغينا في رحلها، فما وجدنا شيئاً، فقال صاحبي: ما نرى معها كتاباً.

فقلت: لقد علمنا ما كذب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ثم حلف علي: والذي يحلف به، لتخرجن الكتاب أو لأجردنك.

فأهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء، فأخرجت الصحيفة، فأتوا بها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله، ورسوله، والمؤمنين، دعني فأضرب عنقه.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟

قال: يا رسول الله، ما لي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله، ولكني أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع بها عن أهلي ومالي. وليس من أصحابك

أحد إلا له هنالك من قومه من يدفع الله به عن أهله وماله.

قال: صدق. لا تقولوا إلا خيراً.

قال: فعاد عمر، فقال: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، دعني فلأضرب عنقه.

قال: أوليس من أهل بدر؟ وما يدريك لعل الله اطَّلع عليهم، فقال: اعملوا ما شئتم فقد أوجبت لكم الجنة.

فاغرورقت عيناه، فقال: الله ورسوله أعلم

قال أبو عبد الله: «خاخ» أصح، ولكن كذلك قال أبو عوانة: حاج. وحاج تصحيف. وهو موضع. وهشيم يقول: خاخ.

ونقول:

إن لنا هنا وقفات هي التالية:

إصرار عمر لماذا؟!:

إن أول ما يستأثر بنظر القارئ الكريم في رواية البخاري المتقدمة، مبادرة عمر بن الخطاب إلى الحكم على حاطب باستحقاق القتل، والطلب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أن يدعه يضرب عنقه، على اعتبار أنه قد خان الله ورسوله.

ولكن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يبال بكلام عمر، ووجه كلامه إلى حاطب، يسأله عن سبب إقدامه على ما أقدم عليه، فأجابه حاطب بما تقدم.

فقال «صلى الله عليه وآله»: صدق، لا تقولوا إلا خيراً..

ولكن عمر بن الخطاب رغم أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يجبه في المرة الأولى. ورغم أنه «صلى الله عليه وآله» قد حكم بصدق حاطب. ورغم أنه «صلى الله عليه وآله» أمرهم أن لا يقولوا إلا خيراً.

نعم، رغم ذلك كله يعود عمر فيقول: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله، والمؤمنين، دعني فلأضرب عنقه..

فجاءه الجواب الصريح والواضح من رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليخطِّئه في تصرفه هذا، وقد شرحنا هذا الجواب فيما سبق.

الجرأة على الدماء:

وأما بالنسبة لما زعموه: من أن ما جرى في قصة حاطب هو الذي جرأ علياً «عليه السلام» على الدماء، فهو كلام باطل، من غرٍ حاقد جاهل، إذ قد تناسى هؤلاء الحقائق التالية:

أولاً: إن علياً «عليه السلام» لم يكن هو المبادر إلى الحرب، لا في حرب الجمل، ولا في صفين، ولا في النهروان، بل الناكثون هم المبادرون لشن حرب الجمل، بقيادة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، ومعها طلحة والزبير.

ثم شنها القاسطون بقيادة معاوية في حرب صفين..

ثم كان خروج المارقين عليه في النهروان.

فهي حروب مفروضة وباغية على الخليفة الشرعي. وقد حاول «عليه السلام» إقناعهم بالعودة إلى الشرعية، ولزوم الطاعة، ولكن لا حياة لمن تنادي، ﴿فقد **زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا**

﴿يَهْتَدُونَ﴾[1].

وصدق الله ورسوله حين أخبر النبي «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» بأنه يقاتل بعده الناكثين، والقاسطين، والمارقين[2].

---

(١) الآية ٢٤ من سورة النمل.

(٢) راجع على سبيل المثال المصادر التالية: مجمع الزوائد ج٦ ص٢٣٥ وج٧ ص٢٣٨ وج٥ ص١٨٦ وج٩ ص١١١ ومستدرك الحاكم ج٣ ص١٣٩، وتلخيص الذهبي بهامشه، وأنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص٢٩٧ وترجمة الإمام علي «عليه السلام» من تاريخ دمشق (بتحقيق المحمودي) ج٣ ص١٧٢ و ١٧٠ و ١٦٩ و ١٦٥ و ١٦٣ و ١٦٢ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٥٨ و ١٥٩ واللآلي المصنوعة ج١ ص٢١٣ و ٢١٤ وتاريخ بغداد ج١٣ ص١٨٦ وج٨ ص ٣٤٠ و ٣٤١ وكنز العمال ج١١ ص٢٧٨ وراجع ص٢٨٧ و ٣١٨ و ٣٤٣ و ٣٤٤ وج١٥ ص٩٦ وشرح النهج للمعتزلي ج٣ ص٢٠٧ و ٣٤٥ وج٤ ص٢٢١ و ٤٦٢ وج١٨ ص٢٧ وج٦ ص١٣٠ وج١٣ ص١٨٣ و ١٨٥ وج١ ص٢٠١ والمناقب للخوارزمي ص١٢٥ و ١٠٦ و ٢٨٢ والبداية والنهاية ج٧ ص٢٠٦ و ٢٠٧ و ٣٠٥ و ٣٠٤ وج٦ ص٢١٧ وفرائد السمطين ج١ ص٣٣٢ و ٢٨٥ و ٢٨٣ و ٢٨٢ و ٢٨١ و ٢٨٠ و ٢٧٩ و ١٥٠ ومروج الذهب ج٢ ص٤٠٤ والمحاسن والمساوئ ج١ ص٦٨ والغدير وج٣ ص١٩٢ و ١٩٤ وج١ ص٣٣٧ وذخائر العقبى ص١١٠ عن الحاكمي والرياض النضرة ج٣ ص٢٢٦ وكفاية الطالب ص١٦٨ و ١٦٩ ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ج٥ ص٤٥١ و ٤٣٥ و ٤٣٧ وج٤ ص٢٤٤ ولسان الميزان ج٢ ص٤٤٦ وج٦ ص٢٠٦ وميزان الاعتدال ج١ ص١٢٦ و ١٧٤ وينابيع المودة ص١٠٤ و ١٢٨ و ٨١ والنهاية في اللغة ج٤ ص١٨٥ ولسان العرب ج٢ ص١٩٦ وج٧ ص٣٧٨ وتاج العروس ج١ ص٦٥١ وج٥ ص٢٠٦ ونظم درر السمطين ص١٣٠ =

ثانياً: إن أبا بكر قد قاتل الذين لم يعترفوا بخلافته، ولم يعطوه زكاة أموالهم، وقالوا: إنهم سوف يعطونها لفقرائهم[1].

وقد قتلهم رغم معارضة الصحابة له، بما فيهم عمر بن الخطاب[2].

وهو القائل: لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم أو لجاهدتهم على منعه[3].

= وأسد الغابة ج٤ ص٣٣ والجمل ص٣٥ والإفصاح في إمامة علي بن أبي طالب ص٨٢ وإحقاق الحق ج٦ ص٣٧ و ٥٩ و ٧٩ وج٥ ص٧١ عن مصادر كثيرة تقدمت، وعن: تنزيه الشريعة المرفوعة ج١ ص٣٨٧ ومفتاح النجا ص٦٨ مخطوط وأرجح المطالب ص٦٠٢ و ٦٠٣ و ٦٢٤ وموضح أوهام الجمع والتفريق ج١ ص٣٨٦ وشرح المقاصد للتفتازاني ج٢ ص٢١٧ ومجمع بحار الأنوار ج٣ ص١٤٣ و ١٩٥ وشرح ديوان أمير المؤمنين للمبيدي ص٢٠٩ مخطوط والروض الأزهر ص٣٨٩.

(١) راجع: المصنف للصنعاني ج٤ ص٤٣ وكنز العمال ج٦ ص٥٣٨.

(٢) مسند أحمد ج١ ص٣٥ والمصنف للصنعاني ج٤ ص٤٣ وج٦ ص٦٧ وج١٠ ص١٧٢ وتاريخ مدينة دمشق ج١٦ ص٧٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٥٨٦ وأعيان الشيعة ج٦ ص٢٩٢ والأحكام لابن العربي ج١ ص٥٧٥ وج٢ ص٤١٦.

(٣) بدائع الصنائع لأبي بكر الكاشاني ج٢ ص٣٥ وصحيح مسلم باب ٨ ج١ ص٥١ و (ط دار الفكر) ج١ ص٣٨ والنص والإجتهاد ص١٠٩ عنه وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص١٥٣ و ٢٠٩ والدر المنثور ج٢ ص٢٩٢ وج٣ ص٢٤١ وتاريخ خليفة بن خياط ص٦٤ ورياض الصالحين للنووي ص٥٠٢ والمواقف للإيجي ج٣ ص٦٥١ ونصب الراية ج٤ ص٢٢٥ وكنز العمال ج٥ ص٦٦٠ و ٦٦٢ و ٧١٩ وج٦ ص٥٢٧ و ٥٣١ وج١٢ ص٤٩٤ وفيض القدير ج٢ ص٢٣٩ وجامع البيان للطبري ج٢٤ ص١١٧ =

وقد جرى على مالك بن نويرة وقومه ما هو معروف، فقد قتلهم خالد بعد الأمان، وزنى بامرأة مالك في نفس ليلة قتله[1].

= وأحكام القرآن للجصاص ج٣ ص٣١ و ١٠٧ وتفسير الثعلبي ج٨ ص٢٨٦ وأحكام القرآن لابن عربي ج٢ ص٤١٦ و ٥٧٥ ومواقف الشيعة ج١ ص٢٤ وكتاب المسند للشافعي ص٢٠٨ وصحيح البخاري ج٨ ص١٤١ وسنن أبي داود ج١ ص٣٤٧ وسنن الترمذي ج٤ ص١١٧ وسنن النسائي ج٥ ص١٥ وج٧ ص٧٧ والسنن الكبرى للبيهقي ج٨ ص١٧٦ وج٩ ص١٨٢ وعمدة القاري ج٢٥ ص٣٠ والمصنف للصنعاني ج٤ ص٤٤ والسنن الكبرى للنسائي ج٢ ص٨ و ٢٨٠ ومسند أبي يعلى ج١ ص٦٩ وصحيح ابن حبان ج١ ص٤٥١ ومعرفة السنن والآثار ج٧ ص١٠٩ والإستذكار لابن عبد البر ج٣ ص٢١٣ والفايق في غريب الحديث ج٢ ص٣٨٨ والمصنف لابن أبي شيبة ج٣ ص١١١ وج٧ ص٥٩٥ و ٥٩٦ وراجع: مقارنة الأديان للدكتور أحمد الشلبي ص٢٦٨ والمغني لابن قدامة ج٢ ص٤٣٤ و ٤٣٧ والشرح الكبير ج٢ ص٤٣٤ و ٦٧١ ونيل الأوطار ج١ ص٣٦٦ وفقه السنة للسيد سابق ج١ ص٣٣٤ والإيضاح لابن شاذان ص١٣٢ وشرح الأخبار ج١ ص٣٦٤ والفصول المختارة للشريف المرتضى ص١٢٠ والطرائف لابن طاووس ص٤٣٦ وذخائر العقبى ص٩٧ والصوارم المهرقة للتستري ص٨٦ و ١٢١ والبحار ج١٠ ص٤٣٦ وج٣٠ ص٣٥١ وخلاصة عبقات الأنوار ج٩ ص٢٩٩ والثقات لابن حبان ج٢ ص١٦٥ وتاريخ مدينة دمشق ج٩ ص١٣٤.

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١١٠ ووفيات الأعيان ج٦ ص١٥ وقاموس الرجال ج٤ ص١٤٦ و ١٤٧ عن تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٢٧٨ و ٢٧٩ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٥٠٤ والغدير ج٧ ص١٥٩ وراجع: شرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٠٤ ـ ٢٠٦ والنص والإجتهاد ص١١٩ و ١٢٣ وعن أسد الغابة ج٤ ص٢٩٥ و ٢٩٦ ومعجم البلدان ج١ ص٤٥٥ وعن البداية والنهاية ج٦ =

وقد أصر عمر على معاقبة خالد، وقال له: لأرجمنك بأحجارك(١).

ولكن أبا بكر رفض ذلك، وأطلق كلمته المعروفة: «تأول فأخطأ»(٢).

= ص٣٥٤ و ٣٥٥ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٧٣ والبحار ج٣٠ ص٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٩١ و ٤٩٣ والثقات ج٢ ص١٦٩ وتاريخ مدينة دمشق ج١٦ ص٢٧٤ وعن الإصابة ج٢ ص٢١٨ وج٥ ص٥٦٠ و ٥٦١ والإستغاثة ج٢ ص٦ والكنى والألقاب ج١ ص٤٢ و ٤٣ وبيت الأحزان ص١٠٤.

(١) النص والإجتهاد ص١٢٥ وفي هامشه عن: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١١٠ وتاريخ أبي الفداء ج١ ص١٥٨ والإصابة ج٣ ص٣٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٢٨٠ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٥٠٤.

وراجع: نسب قريش ص٣٠١ والبحار ج٣٠ ص٤٧٧ و ٤٩٢ والغدير ج٧ ص١٥٩ عن الطبري، وشرح النهج ج١٧ ص٢٠٦ وأسد الغابة ج٤ ص٢٩٥ والكامل في التاريخ ج٢ ص٣٥٨ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٣٦ وراجع: البداية والنهاية ج٦ ص٣٥٥ وإمتاع الأسماع ج١٤ ص٢٤٠ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٣٢ والكنى والألقاب ج١ ص٤٣.

(٢) وفيات الأعيان ج٦ ص١٥ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٥٨ وروضة المناظر لابن الشحنة (مطبوع بهامش الكامل في التاريخ) ج٧ ص١٦٧ والكامل في التاريخ (ط دار صادر) ج٣ ص٤٩ وج٢ ص٣٥٨ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص١٧٩ وتاريخ الأمم والملوك (ط ليدن) ج٤ ص١٤١٠ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٥٠٣ والبداية والنهاية ج٦ ص٣٢٣ والبحار ج٣٠ ص٤٩٢ وأسد الغابة ج٤ ص٢٩٥ وإمتاع الأسماع ج١٤ ص٢٣٩ والكامل في التاريخ ج٢ ص٣٥٩ وراجع: البداية والنهاية ج٦ ص٣٥٥ والغدير ج٧ ص١٦٠ عن تاريخ أبي الفداء ج١ ص١٥٨ وص١٦١ عن تاريخ الخميس ج٢ ص٢٣٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٣٧ وفيات الوفيات ج٢ ص٢٤٣ =

لقد حصل كل هذا، رغم أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم ينص على خلافة أبي بكر، ولكنه نص على إمامة وخلافة أمير المؤمنين «عليه السلام» من بعده، وبايعه الناس بأمره «صلى الله عليه وآله» في يوم الغدير..

كما أن البيعة لأبي بكر قد اكتنفتها عقبات كبيرة، لم يستطع أبو بكر أن يتغلب عليها إلا بالهجوم على بيت فاطمة الزهراء «عليها السلام»، وضربها، وإسقاط جنينها و.. و.. الخ.. ثم استشهدت متأثرة بما جرى عليها «صلوات الله وسلامه عليها»[1]. وذلك بعد استقدام عدة ألوف من حملة السلاح إلى المدينة، ليقاتلوا من يرفض البيعة لأبي بكر، وليستخرجوا الناس من بيوتهم لحملهم على هذه البيعة جبراً وقهراً[2].

فما الذي جرأ أبا بكر على الدماء يا ترى؟! ولماذا لا يسجلون هذه الملاحظة عليه، فإنه أولى بها من علي «عليه السلام»؟!

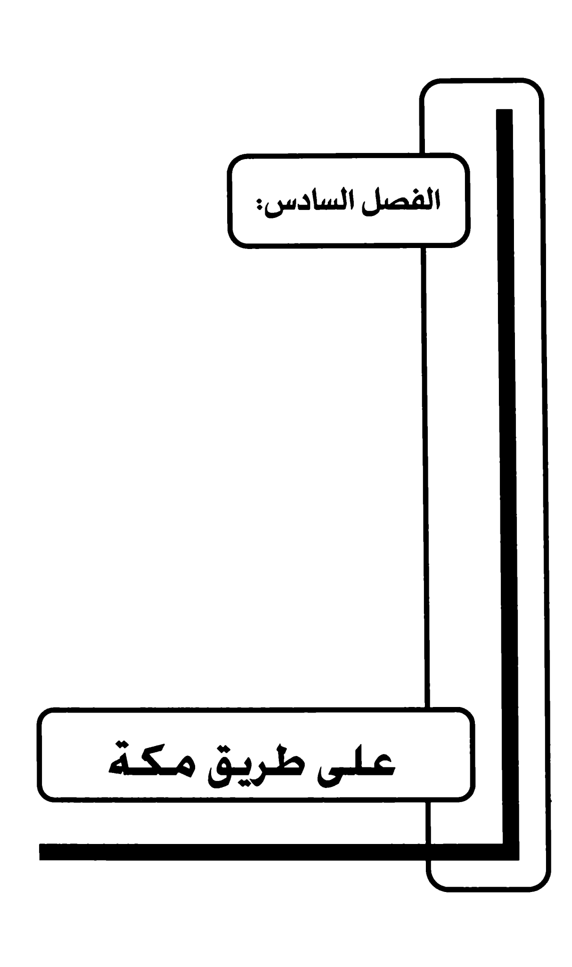
ثالثاً: إن كان تهديد علي «عليه السلام» لحاملة الرسالة بالقتل إن لم تظهر الرسالة جرأة على الدماء، كما يدَّعيه هؤلاء السحرة، فإن المتجرئ على الدماء في الحقيقة ـ حسب منطقهم ـ هو رسول الله «صلى الله عليه وآله» نفسه، لأنه هو الذي أمرهم بقتلها إن لم تعطهم الرسالة..

= وإمتاع الأسماع ج١٤ ص٢٣٩ ومكاتيب الرسول ج١ ص٦٦٥ وكنز العمال ج٥ ص٦١٩ وتاريخ خليفة بن خياط ص٦٨ وتاريخ مدينة دمشق ج١٦ ص٢٥٦ والإصابة ج٥ ص٥٦١.

(١) راجع كتابنا: مأساة الزهراء «عليها السلام» بمجلديه الأول والثاني.

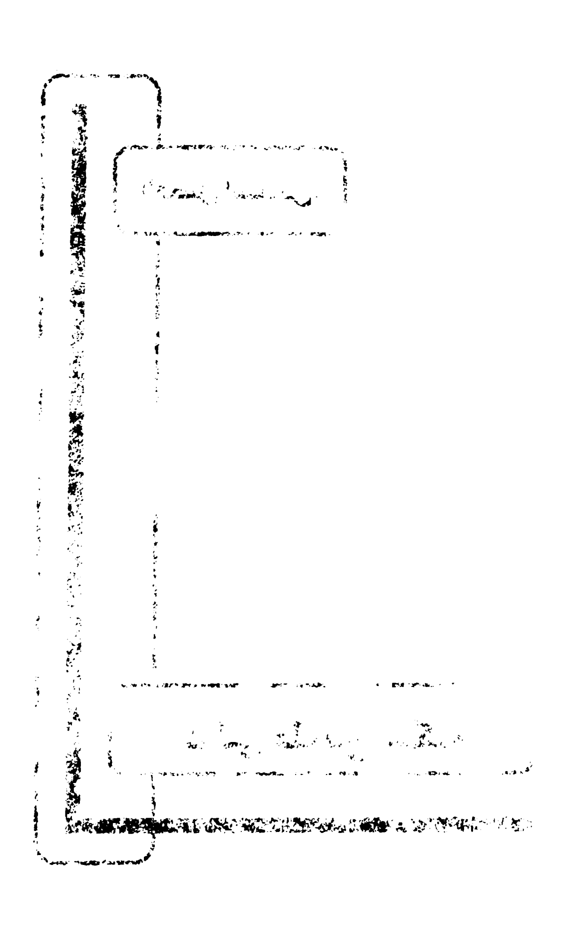
(٢) راجع كتابنا: مختصر مفيد ج٥ ص٦٢ ـ ٦٧ تحت عنوان: «السقيفة إنقلاب مسلح».

رابعاً: لماذا لا يكون المتجرئ على الدماء هو عمر بن الخطاب نفسه، فإنه هو الذي قال للنبي «صلى الله عليه وآله»: مرني بقتله، فإنه قد نافق. وقد طلب من النبي «صلى الله عليه وآله» مثل هذا الطلب في العديد من المناسبات، وبالنسبة للعديد من الناس، كما أشرنا إليه فيما سبق.



الفصل السادس:

على طريق مكة



إستخلف على المدينة وخرج!!:

قيل: إنه «صلى الله عليه وآله» استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر[1].

وقيل: استخلف رسول الله «صلى الله عليه وآله» على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري[2].

---

(١) البحار ج٢١ ص١٢٧ عن إعلام الورى (ط مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث) ج١ ص٢١٨ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ عن أحمد والطبراني، عن ابن عباس. والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ ومجمع الزوائد ج٦ ص١٦٤ وصححه، والبحار ج٢١ ص١٠٢ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ والمعجم الكبير للطبراني ج٨ ص٩ وج١٩ ص١٨٢ والدرر لابن عبد البر ص٢١٤ وتفسير البغوي ج٤ص٥٣٨ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والتنبيه والإشراف للمسعودي ص٢٣١ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٥ و ٣٢٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٩ و ٥٤٠ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٥ ومسند أحمد ج١ ص٢٢٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٩.

ويقال: ابن أم مكتوم. وبه جزم الدمياطي[1].

وخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم الأربعاء بعد العصر، لعشر خلون من شهر رمضان، ونادى مناديه: «من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر». وصام رسول الله «صلى الله عليه وآله»[2]. فما حل عقدة حتى انتهى إلى الصلصل.

وخرج في المهاجرين والأنصار، وطوائف من العرب، وقادوا الخيل، وامتطوا الإبل، وقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمامه الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين[3].

ولما بلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» البيداء قال، فيما رواه محمد بن عمر عن أبي سعيد الخدري: «إني لأرى السحاب يستهل بنصر بني

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ عن ابن سعد والبلاذري، وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٥ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٥ والمسترشد للطبري ص١٢٨ والطرائف لابن طاووس ص٢٣٣ والبحار ج٢٨ ص١٦٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠١ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٥ وج١٣ ص٣٧٤ والمصنف للصنعاني ج٢ ص٥٦٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٥.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠١ وتاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٧ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٤.

كعب»[1].

وقدم «صلى الله عليه وآله» بمائة جريدة من خيل، تكون أمام المسلمين. فلما كانوا بين العرج والطلوب أتوا بعين من هوازن، فاستخبره رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأخبره أن هوازن تجمع له (وقد أجابتهم ثقيف، وقد بعثوا إلى الجرش ـ وهو مكان في اليمن ـ فعملوا الدبابات والمنجنيق) فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» خالد بن الوليد أن يحبسه، لئلا يذهب فيحذر الناس، وقد أسلم حين فتح مكة، ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن، فقتل في أوطاس.

ولما بلغ «صلى الله عليه وآله» قديداً[2] لقيته سُليم هناك، فعقد الألوية والرايات، ودفعها إلى القبائل[3].

ونقول:

إن لنا بعض الملاحظات حول ما تقدم، نجملها فيما يلي:

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠١ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٧ وإمتاع الأسماع ج١٣ ص٣٧٤.

(٢) قديد: موضع قرب مكة. مراصد الإطلاع ج٣ ص١٠٧٠.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٤ ـ ٨٠٦ و ٨٠١ الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٥ وإمتاع الأسماع ج٨ ص٣٨٥ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥.

عشرة آلاف مقاتل:

ثم إن هناك من يقول ـ كابن إسحاق ـ: إن من شهد الفتح من المسلمين عشرة آلاف[1]، ونحو من أربع مائة فارس، ولم يتخلف من

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٦٥ و ٢١٤ و ٢٥٦ وقال: رواه البخاري في صحيحه عن عروة، وإسحاق بن راهويه، من طريق آخر بسند صحيح عن ابن عباس. والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ والبحار ج٢١ ص١٠٢ و ١١٨ و ١٢٧ و ١٢٨ عن الخرايج والجرايح، وإعلام الورى، والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠١ و ٨١٥ و ٨٢٢ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ و ٨٩. وراجع: الطبقات الكبرى ج٢ ص١٣٩ والتنبيه والإشراف للمسعودي ص٢٣١ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٣٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٥ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٧٨٧ وج٤ ص٨٥٩ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥ والعبر وتاريخ المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ والكامل لابن عدي ج١ ص٢٧٢ ولسان الميزان ج١ ص١١٥ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٣٢٤ و ٥٣٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والخرائج والجرائح ج١ ص١٦٢ والبحار ج٢١ ص١٠٢ و ١١٨ والنص والإجتهاد ص١٨٣ ومسند أحمد ج١ ص٢٢٦ والمستدرك للحاكم ج٣ ص٤٣ ومجمع الزوائد ج٦ ص١٦٤ و ١٦٥ وفتح الباري ج٧ ص٣٤٠ وشرح معاني الآثار ج٣ ص٣٢٠ والمعجم الكبير للطبراني ج٨ ص١٠ والدرر لابن عبد البر ص٢١٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٥٩ وفيض القدير ج٣ ص٦٣٢ وتفسير مجمع البيان ج٥ ص٣٤ وج١٠ ص٤٧٠ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٣ وتفسير الميزان ج٩ ص٢٣١ وج١٨ ص٢٥٣ وج٢٠ ص٣٨٠ وتفسير البغوي ج١ ص٢٩٠ والمحرر =

المهاجرين والأنصار عنه أحد[1].

وهناك من يقول: إنهم كانوا اثني عشر ألفاً[2].

وجمع: بأن العشرة آلاف خرج بها من نفس المدينة، ثم تلاحق الألفان[3].

ونقول:

قد يقال: إننا نشك في صحة كلا هذين الرقمين.. فإن المسلمين لم يكونوا قد بلغوا إلى الحد الذي يستطيعون معه ان يجهزوا هذا المقدار من الرجال للحرب، ثم يبقى في بلادهم من يحرسها، من غارة أهل الأطماع.

= الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج٣ ص١٩ وج٥ ص١٣٨ وتفسير القرطبي ج١٦ ص٢٦١ وتفسير البحر المحيط ج٥ ص٢٥ وتفسير الثعالبي ج٣ ص١٧٢ وج٥ ص٢٦٠ وتفسير الآلوسي ج٢٦ ص٨٤

(١) مجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٧٠ والبحار ج٢١ ص١٠٢ و ١٢٧ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٣ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٨٠ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ وعن مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب، وعن إعلام الورى ج١ ص٢١٩ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص١٠٧ وراجع: تفسير البغوي ج٤ ص٥٣٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٦ عن عروة، والزهري، وابن عقبة، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ وتفسير البحر المحيط ج٢ ص٤٣٧ والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٤ ص٨٩١ وج٥ ص١٠٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٦١٥ وعيون الأثر ج٢ ص٢١٥ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٦٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٤٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٦ وتفسير الآلوسي ج٣٠ ص٢٥٦.

ويشير إلى ذلك: أنه «صلى الله عليه وآله» لم يستطع أن يجهز لخيبر أكثر من ألف وخمسمائة مقاتل، ثم جهز لمؤتة ـ كما يقولون ـ ثلاثة آلاف.. مع أن تجهيز العشرة آلاف كان في مؤتة أيسر منه في فتح مكة، إلا إن كان «صلى الله عليه وآله» قد استنفر العرب من البلاد، فنفروا معه مسلمهم وكافرهم، لأنهم أيقنوا: أنه يريد الخير لهم، وأن في الخروج معه منافع تهمهم، خصوصاً بعد أن ظهر ضعف قريش في تصدياتها له..

فإذا نفر الناس من سائر القبائل معه، فإن من بقي منهم في البلاد لا يخشى منه، وقد كان «صلى الله عليه وآله» عارفاً بالمنطقة وبمن يسكنها من القبائل..

ولم يكن ليجرؤ أحد من أي قبيلة على مهاجمة المدينة إذا كان لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله» طائفة من تلك القبيلة تقاتل معه، إذ إن ذلك سوف يسهِّل على النبي «صلى الله عليه وآله» الظفر بمن يقوم بأي تحرك من هذا القبيل ومعاقبته، لأن نفس أهل تلك القبيلة سيكونون أعواناً وأنصاراً له على الخارجين عليه، حتى إذا كانوا من قبائلهم، فكيف إذا كانوا من غيرها.

يضاف إلى هذا كله: أنه لابد أن يبقى في المدينة قوة قادرة على حمايتها من هجوم فئات صغيرة، لو فرض أن أحداً يجرؤ على القيام بشيء من ذلك.

تأويلات وتفاصيل:

وقد ذكروا هنا: بعض التفاصيل التي قد لا تملك من الدقة ما يكفي للاعتماد عليها، فقد قالوا:

أنه «صلى الله عليه وآله» كان في عشرة آلاف. أي باعتبار من لحقه في الطريق من القبائل، كبني أسد، وسليم، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار.

وكان المهاجرون سبع مائة، ومعهم ثلاث مائة فرس.

وكانت الأنصار أربعة آلاف، ومعهم خمس مائة فرس.

وكانت مزينة ألفاً، وفيها مائة فرس ومائة درع.

وكانت أسلم أربع مائة، ومعها ثلاثون فرساً.

وكانت جهينة ثمان مائة، ومعها خمسون فرساً[1].

وعن ابن عباس: من بني سليم سبع مائة، وقيل: ألف. ومن غفار أربع مائة، ومن أسلم أربع مائة ومن مزينة ألف وثلاث مائة، وسائرهم من قريش والأنصار، وحلفائهم، وطوائف من العرب، من بني تميم، وقيس، وأسد[2].

ونقول:

إن هذا يثير لدى الباحث أكثر من سؤال. فمتى صار المهاجرون سبع مائة؟

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٦ و (ط دار المعرفة) ص١٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٠ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٤ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٨٩ عن شفا الغرام، وراجع: تفسير الثعالبي ج١٠ ص٣١٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٤٠ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٥٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٧٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٨٧.

وكيف أصبح الأنصار أربعة آلاف؟ في حين أنه لم يستطع أن يجند منهم ومن المهاجرين وممن حولهم من الأعراب أكثر من ألف وخمس مائة مقاتل إلى ألف وثمان مائة، فراجع: حرب خيبر والحديبية وغيرهما..

إلا إن كان سكان المدينة يتكاثرون كما يتكاثر بعض فصائل الحيوان؟

ولماذا كان من المهاجرين ثلاث مائة فرس، وهم سبع مائة رجل فقط، وكان من الأنصار خمس مائة فرس وهم أربعة آلاف؟

فهل كان المهاجرون أكثر مالاً من الأنصار؟

وكيف حصلوا على هذه الثروات، ولم يحصل الأنصار على مثلها؟! وهم يعيشون في بلد واحد، ويجاهدون عدوهم معهم. مع كون المهاجرين قد قدموا إلى المدينة بدون أموال، حتى تكفل الأنصار بهم، وشاركوهم في أموالهم وبيوتهم؟!

أم أن المهاجرين كانوا مهتمين بأمر الجهاد أكثر من الأنصار؟!

ويلاحظ: أن هذه النسبة من الأفراس مع المهاجرين قد بقيت متفوقة فيهم على جميع الفئات والقبائل الأخرى.. إذ لا مجال للمقايسة بينهم وبين جهينة، التي كانت ثمان مائة، ومعها خمسون فرساً فقط.. وكانت أسلم أربع مائة، ومعها ثلاثون فرساً فقط.. وكانت مزينة ألفاً وفيها مائة فرس فقط..

فما هذا التفاوت بين المهاجرين وكل هذه الفئات؟!

ألا يشير ذلك إلى أن هذه كانت أرقاماً سياسية، وليست واقعية؟!

لا يزال المقصد مجهولاً:

وقالوا: لما نزل رسول الله «صلى الله عليه وآله» العرج، والناس لا

يدرون أين توجه «صلى الله عليه وآله»، إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف. فهم يحبون أن يعلموا.

فجلس في أصحابه بالعرج، وهو يتحدث، فقال: كعب بن مالك: آتي رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأعلم لكم علم وجهه.

فجاء كعب بن مالك فبرك بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وآله» على ركبتيه، ثم قال:

قضينا من تهامة كل ريب — وخيبر ثم أجمينا السيوفا

نسائلها ولو نطقت لقالت — قواضبهن دوسا أو ثقيفا

فلست بحاضر إن لم تروها — بساحة داركم منها ألوفا

فننتزع الخيام ببطن وج — ونترك دوركم منها خلوفا

فتبسم رسول الله «صلى الله عليه وآله» ولم يزد على ذلك.

فجعل الناس يقولون: والله ما بين لك رسول الله «صلى الله عليه وآله» شيئاً، ما ندري بمن يبدأ بقريش، أو ثقيف، أو هوازن؟![1].

وكان عيينة بن حصن في أهله بنجد، فأتاه الخبر: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يريد وجهاً، وقد تجمعت العرب إليه، فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة، فوجد أنه «صلى الله عليه وآله» قد خرج قبله بيومين.. فسلك يسأل عن مسيره، فبلغ إلى العرج، ثم وصل النبي «صلى الله عليه وآله» بعده إلى هناك..

فقال عيينة: يا رسول الله، بلغني خروجك، ومن يجتمع إليك، فأقبلت

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٢ وإمتاع الأسماع ج١٣ ص٣٧٥.

سريعاً ولم أشعر، فأجمع قومي، فيكون لنا جلبة كثيرة. ولست أرى هيأة الحرب، ولا أرى ألوية ولا رايات! فالعمرة تريد؟ فلا أرى هيأة الإحرام! فأين وجهك يا رسول الله؟!

قال: حيث يشاء الله.

وذهب وسار معه. ووجد الأقرع بن حابس بالسقيا في عشرة من قومه. فساروا معه، فلما نزل قديداً عقد الألوية، وجعل الرايات.

فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عض على أنامله، فقال أبو بكر: علام تندم؟

قال: على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد. فأين يريد محمد يا أبا بكر؟

قال: حيث يشاء الله.

فدخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» مكة يومئذٍ بين الأقرع وعيينة[1].

وذكر الواقدي: أنه لما نزل «صلى الله عليه وآله» قديداً لقيته سليم، وهم تسعمائة على الخيول جميعاً، مع كل رجل منهم رمحه وسلاحه.

ويقال: إنهم ألف[2].

فقالت سُليم: يا رسول الله، إنك تقصينا، وتستغشُّنا، ونحن أخوالك ـ أم هاشم بن عبد مناف، عاتكة بنت مرة، بن هلال، بن فالح، بن ذكوان، من بني سليم ـ فقدمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا، فإنّا صُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، فرسان على متون الخيل.

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٣ و ٨٠٤.

(٢) راجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٨.

قال: ومعهم لواءان وخمس رايات، والرايات سود.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: سيروا! فجعلهم في مقدمته.

وكان خالد بن الوليد مقدمة النبي «صلى الله عليه وآله» حين لقيته بنو سليم بقديد، حتى نزلوا مر الظهران وبنو سليم معه.

ويقال: إنهم قد طووا ألويتهم وراياتهم، وليس معهم لواء ولا راية معقودة.

فقالوا: يا رسول الله، اعقد لنا وضع رايتنا حيث رأيت.

فقال: يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها في الجاهلية!

ونادى عيينة بن حصن، فقال: أنا عُيَيْنة، هذه بنو سُلَيْم قد حضرت بما ترى من العدّة والعَدَد والسّلاح، وإنّهم لأحلاس الخيل، ورجال الحرب، ورماة الحدق.

فقال العباس بن مَرْدَاس: أقصر أيها الرجل، فوالله إنك لتعلم أنّا أفرس على متون الخيل، وأطعن بالقنا، وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك، فقال عُيَيْنة : كذبتَ ولؤمتَ، نحن أولى بما ذكر منك، قد عرفته لنا العرب قاطبة.

فأومأ إليهما النبي «صلى الله عليه وآله» بيده حتى سكتا .

ونقول:

إن علينا أن نشير هنا إلى الأمور التالية:

توضيح عن المقدمة:

قد يُتَوَهَّم: أن النص المتقدم قد ذكر أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد

جعل بني سُليم في مقدمته، مع أنهم يقولون: إن الذي كان على المقدمة إلى أن دخل النبي «صلى الله عليه وآله» مكة هو خالد بن الوليد، وهذا لا يتلاءم مع ذاك.

ويزول هذا التوهم بالكامل في النص المذكور آنفاً، حيث قال: إنه «صلى الله عليه وآله» قد جعل بني سليم في مقدمته، أي أنه قد ضمهم إلى الرجال الذين كانوا بقيادة خالد، فصار خالد أميراً على المجموع، وبما أنه كان لكل قبيلة حامل لوائها، فقد حمله عيينة بن حصن.

إلى أين يا رسول الله؟!:

إن الإنسان مهما كان دينه، وأيّاً كانت ميوله لَيَقف خاشعاً أمام عظمة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومبهوراً وعاجزاً عن إدراك دقة تدبيره، مذعناً لصوابية كل حركة وكل سكون، وكل لفتة، وإشارة و.. و..

وبديهي: أن الناس إذا أدركوا أن ثمة حرصاً على إخفاء شيء، فإنهم يجهدون لاستكناه حقيقته، والوقوف على واقعه، واستشراف دقائقه وتفاصيله.

فإذا كانت ألوف من الناس تلاحق هذا الأمر، وتبحث عنه، وتريد كشفه، والوقوف على كنهه بكل حرص واندفاع.

وإذا كان هذا الأمر يعنيهم كلهم أفراداً وجماعات.

وإذا كان يفترض فيهم هم أن يشاركوا في صنع نفس هذا الحدث..

وإذا كانت قد بدأت بعض التسريبات تظهر منذ اللحظة الأولى التي تفوَّه الرسول «صلى الله عليه وآله» فيها بأنه يريد سفراً، حيث قال لعائشة: «جهزينا، وأخفي أمرك».

ثم جرى بين عائشة وأبيها، ثم بين أبي بكر ورسول الله «صلى الله عليه وآله» ما قدمناه فيما سبق.

وإذا كانت هذه التسريبات قد دعت النبي بَدْأً إلى التحفظ على مسالك المدينة في سهولها وجبالها، ووضع الحرس عليها، وضبطها.

وإذا كانت الاحتمالات والتكهنات بدأت تؤتي ثمارها على شكل رسائل تحذير لقريش، حيث تجلى ذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة.

وإذا كانت قصة حاطب قد انتهت على ذلك النحو المثير لكل الناس الذين حضروا وشاهدوا أو سمعوا بما جرى، حيث نودي بالناس: «الصلاة جامعة»، فاجتمعوا في المسجد، ثم كان ما كان..

وإذا كان عشرة آلاف مقاتل قد بدأوا يتحركون باتجاه المقصد..

وإذا كانوا قد ساروا أياماً وليالي عديدة نحوه..

فإننا لابد أن نتوقع: أن الأمور قد اتضحت لكل أحد، وأسفر الصبح لذي عينين..

ولكن المفاجأة الهائلة والعظيمة هي: أن تسير هذه الألوف المؤلفة على هيأتها ووفق ما هو مرسوم في تدبير الجيوش، وفي كيفية سيرها نحو العدو، حيث الطلائع تقدم، تبث الأرصاد.. وتؤخذ عيون العدو، ويستفاد من المعلومات التي لديها، ثم يحتفظ بهم للوقت المناسب..

إن المفاجأة هي: أن هذا الجيش يسير باتجاه مقصده، ويصل إلى قديد (وهي قرية جامعة قريب مكة)(1)، ولا يزال يجهل الجهة التي يقصدها،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٨١ ومعجم البلدان ج٤ ص٣١٣ وراجع: عمدة =

والفئة التي سيناجزها القتال.

رغم أن محاولات بذلت في السقيا لاستنطاق رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولكنها تبوء بالفشل..

فهل يمكن أن نضع هذا الإنجاز في مجال الاستطلاع والحفاظ على السرية إلا في عداد المعجزات، وخوارق العادات، التي لا يقدر عليها إلا نبي، أو وصي نبي؟!

لا بد من جواب:

ويبقى أن نشير إلى أن كل هذا الذي ذكرناه لا يعفينا من الإجابة على سؤال: كيف لنا أن نتصور جمعاً يزيد على عشرة آلاف مقاتل، يجتمعون من مختلف البلاد والقبائل، ويسيرون أياماً وليالي إلى أن يصلوا إلى قديد، ثم لا يعرفون مقصدهم، ويستمر جهلهم بوجهة سيرهم، وبحقيقة العدو الذي يقصدونه..

ويمكن أن نجيب على ذلك: بأن بعض النصوص المتقدمة قد صرحت: بأن الناس كانوا متحيرين بين ثلاثة احتمالات، هي: مكة، وثقيف، وهوازن.

وهذه الخيارات كلها تحتاج لمثل هذا الجمع العظيم من المقاتلين. كما أنها كلها تقع في منطقة واحدة، وفي أمكنة متقاربة، والطريق من المدينة إليها هي نفس هذه الطريق التي سلكها «صلى الله عليه وآله» إلى قديد. وإنما

= القاري ج٩ ص٢٨٧ ج١٧ ص٢٧٦ وتحفة الأحوذي ج٨ ص٢٤٢ وعون المعبود ج١٠ ص١٤٤ وتنوير الحوالك ص٣٤٢ وفتح الباري ج٣ ص٣٩٩.

تتميز الطرقات إلى تلك المناطق بدءاً من سرف، التي كانت تبعد عن مكة أميالاً يسيرة[١].

وربما يكون من أسباب تعزيز احتمال أن يكون القصد إلى هوازن، وصرف نظر الناس عن مكة: أنه «صلى الله عليه وآله» قد أخذ عيناً لهوازن، فأقر له أنهم يجمعون الجموع لحربه؛ فيأمر خالداً بحبس ذلك العين، خوفاً من أن يذهب ويحذِّر الناس[٢].

حيث يشاء الله:

وقد أظهرت قضية كعب بن مالك، وتوسله بالشعر في محاولة معرفة الوجه الذي يريده النبي«صلى الله عليه وآله» في سفره ذاك أظهرت مدى اهتمام الناس بمعرفة هذا الأمر.. رغم أن كعباً لم يفلح في استخراج السر من النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله».

والذي زاد في حيرتهم: أنه «صلى الله عليه وآله» لم يخرج بهذه الألوف على هيئة الحرب، فهو لم يعقد ألوية، ولا رفع رايات، ولا رتب هذا الجيش العرمرم ترتيباً قتالياً..

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٥ ومجمع البحرين ج٢ ص٣٦٥ ومعجم ما استعجم ج٣ ص٩٥٧ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٩١ وشرح إحقاق الحق ج٣٢ ص٤٤١ ومستدرك سفينة البحار ج٧ ص٥٥٨ وسبل الهدى والرشاد ج٨ ص٤٩٢ والنهاية في غريب الحديث ج٢ ص٣٦٢ ولسان العرب ج٩ ص١٥٠.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٥ وإمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص٣٥٦ وج٩ ص٢٣٤.

ولكنه كان يرسل الطلائع.. ويأخذ رصد هوازن الذي وجده في طريقه، ويستجوبه، ثم يأمر بحبسه، ولا يتركه يرجع إلى من وراءه لينذرهم به..

ومن جهة ثانية: فإنه «صلى الله عليه وآله» لم يخرج على هيئة من يريد العمرة، فلم يحرم ولم يسق البدن كما فعل في الحديبية، وعمرة القضاء..

وهذا معناه: أنه لا يقصد مكة في مسيره ذاك..

ويسأله عيينة بن حصن عن مقصده في مسيره، ويصرح له بحيرته في الأمر، فيجيبه «صلى الله عليه وآله» بقوله: حيث يشاء الله.

بل إنه «صلى الله عليه وآله» حتى حين بلغ قديداً، وعقد الرايات والألوية، وعرف عيينة وغيره أن المهمة قتالية، وليست شيئاً آخر.. قد أبقاه في حيرة من أمره، فسأل أبا بكر: فأين يريد محمد يا أبا بكر؟!.

قال: حيث يشاء الله[1].

وهي إجابة واقعية، إذ لم يكن المسؤول بأعلم من السائل، فإن أبا بكر أيضاً لم يكن يعلم بمقصد رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ولعل الناس قد بقوا على ترددهم حتى وصلوا إلى مر الظهران، وأخذوا أبا سفيان ومن معه.

إستنفار العرب:

قد ذكرنا فيما سبق: أن الظاهر هو: أنه «صلى الله عليه وآله» قد استنفر العرب إلى مكة، مسلمهم وكافرهم..

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص ٨٠٤.

وقد يمكن الإستشهاد على ذلك بالنص المتقدم الذي يقول: إن عيينة بن حصن قد سمع ـ وهو بنجد ـ : أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يريد وجهاً، وقد تجمعت العرب إليه..

فعبارة تجمعت العرب إليه، يشير إلى أن هذا التجمع قد شمل المسلم وغيره.

ولعل استنفار النبي «صلى الله عليه وآله» للعرب قد أفهمهم: أن ثمة أمراً خطيراً لابد لهم من مواجهته، كذلك الذي جرى في غزوة مؤتة..

وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

وربما يكون مجيء عيينة بن حصن بمجرد سماعه بالأمر شاهداً آخر على ذلك..

سُليم تريد الحظوة عند النبي ﷺ:

وقد ظهر من كلام بني سليم: أنهم كانوا يسعون لتكون لهم الحظوة عند النبي «صلى الله عليه وآله»، ويريدون الفوز بثقته من خلال أفعالهم ومواقفهم المؤثرة التي تشهد لهم بصحة ما يدَّعونه.

وقد صرحوا في كلامهم: بأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يستغشهم ويقصيهم، رغم أنهم أخواله، بسبب عاتكة بنت مرة، فإنها أم هاشم بن عبد مناف..

ولا يمكن الأخذ بظاهر كلامهم هذا إلا بتقدير: أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد رأى في تصرفات بني سُليم غشاً يوجب الإقصاء والحذر، فإن هذا هو مقتضى الحزم.

كما أنه لا بد من ملاحظة: أن هذا الإقصاء لم يتخذ أسلوب التنفير، المؤسس للكره، وللعقدة، بل كان إقصاءً يدعوهم إلى مراجعة حساباتهم، ويزيد من رغبتهم في إصلاح أمرهم معه «صلى الله عليه وآله». حتى إنهم لينفرون إليه حين يستنفر العرب، وهم مصممون على أن يزيلوا هذه الصبغة عن أنفسهم، بأفعالهم قبل أقوالهم..

وقد أفسح لهم النبي «صلى الله عليه وآله» المجال للوفاء بتعهداتهم، حيث جعلهم مقدمة له.. كما صرحت به الرواية.

وقد أظهروا بعضاً من الأدب مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين طووا ألويتهم، وطلبوا منه «صلى الله عليه وآله» أن يعقدها لهم، وأن يضعها حيث يشاء..

فجعل عليهم عيينة بن حصن كما تقدم..

نخوة الجاهلية:

ولكن نخوة الجاهلية قد تحركت لدى عيينة والعباس بن مرداس حيث افتخر عيينة ببني سُليم الذين فاز عيينة بتأمير رسول الله «صلى الله عليه وآله» له عليهم، فلم يرق ذلك لعباس بن مرداس، فافتخر بقومه، وفضَّلهم على بني سليم..

فقال له عيينة: كذبت ولؤمت.

إلى أن تقول الرواية: فأومأ لهما النبي«صلى الله عليه وآله» حتى سكتا..

فهذا الحدث يدل على أن هؤلاء الناس رغم أنهم قادة ورؤساء في قومهم، لم يكونوا يملكون الشيء الكثير من أدب الخطاب، أو من تقدير

الأمور، فهم لم يراعوا الأدب في محضر رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حتى بلغ الأمر بهم إلى التفوه بالشتائم.. دون أي مبرر معقول أو مقبول لكل ما جرى.

فلم يكن هناك مبرر لتفضيل عباس بن مرداس قومه على بني سليم، ، فإن عيينة وإن كان قد مدح قومه، ولكنه لم يفضلهم على أحد..

كما أنه لم يكن يجوز لعيينة أن يشتم عباساً بحضرة رسول الله، تأدباً مع الرسول «صلى الله عليه وآله»، وتسليماً لأمره..

ولعل هذه الهفوات الصادرة من كلا الرجلين، كانت كافية لأمرهما بالسكوت، دون توجيه اللوم إلى أحد بعينه، فإن الخطأ قد صدر منهما معاً، وعليهما معاً أن يراجعا حساباتهما، ليجدا أنهما على غير سبيل هدى.

بيض النساء وأُدُم الإبل في بني مدلج:

وروى محمد بن عمر، عن يزيد بن أسلم، وأبي الحويرث: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما انتهى إلى قديد، قيل له: يا رسول الله، هل لك في بيض النساء، وأدم الإبل، بني مدلج؟!

فقال «صلى الله عليه وآله»: «إن الله عز وجل حرَّمهن علي بصلة الرحم».

وفي لفظ: «ببر الوالد، ووكزهم في لبات الإبل»[1].

ونقول:

إن هذا الذي أشار إليه النص آنفاً، لهو أمر في غاية الأهمية فيما يرتبط

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٣ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٥ وج١٣ ص٣٧٥.

بسياسة الإسلام ومفاهيمه، فقد عُرِضَ عليه «صلى الله عليه وآله» أن يهاجم بني مدلج، تحت وطأة إغراء قوي في اتجاهين:

أحدهما: إغراء الجنس، ففي بني مدلج بيض النساء.

والآخر: إغراء المال، لأن لدى بني مدلج أُدُم الإبل.

ولكن رسول الله «صلى الله عليه وآله» رفض ذلك، ولم يكن رفضاً مبهماً، ومن دون توضيح، بل هو رفض معلل، يعطي قاعدة هامة فيما يرتبط بسياسة الإسلام تجاه الآخرين.

حيث قرر أن التشريع الإسلامي لا يبيح مهاجمة الآخرين بصورة عشوائية، وبلا ضابطة. بل ذلك له منطلقات وضوابط أحكامية لا تجوز مخالفتها، ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للعقوبة الإلهية.

وهذه القاعدة هي: أن لأعمال العباد تأثيراً في اتخاذ أي موقف منهم.. فلا تجوز مهاجمة بني مدلج، حتى لو كانوا على الشرك، وفي حالة عداء للمسلمين، لأن فيهم خصالاً تمنع من ذلك، ذكرت الروايات منها:

أولاً: أنهم يصلون رحمهم ويبرون آباءهم..

الثاني: أنهم لا يقتلون الإبل كيفما اتفق، من أجل الاستفادة من لحمها، وإنما ينحرونها بالطريقة الصحيحة، وفق أحكام الشرائع التي بلغتهم، أي بالوكز في لباتها..

وبعدما تقدم نقول:

١ ـ إنك تجد لمحة من الرقة، والرفق، والرحمة، والشعور الإنساني ظاهرة في كلا هذين الأمرين.. وقد جاء الحكم الناشئ عن ذلك بعدم جواز مهاجمة هذا النوع من الناس منسجماً مع خصوصية الرحمة والرقة

والرفق.. ومع ضرورة حفظ الإنسانية، وتنميتها، وإفساح المجال لها لتؤثر في مسار الحياة..

٢ ـ ونحن في غنى عن التذكير: بأن للعمل الصالح والملائم لمرتكزات الخلق والتكوين آثاراً وضعية، وأخرى أحكامية في هذه الدنيا كما أظهرته هذه القضية نفسها، بل ربما تؤسس هذه الأعمال لحدوث تغيرات جذرية في حالات النفس، وفي إدراكاتها، وتعطيها جرعة من الواقعية، تتمكن من خلالها من بلوغ الحق، ومن الانصياع والبخوع له، الأمر الذي لا يتوفر للنفوس الأخرى، التي عزفت عن السير في هذا الاتجاه، ولم تتقبل هذه التوفيقات، وانتهى الأمر بها إلى أن تسير في طريق الجحود والإنكار، عن سابق علم وتصميم وإصرار.

٣ ـ وفي سياق آخر: لا بد لنا من التوقف قليلاً عند هذا التوجيه التربوي النبوي لأهل الإيمان، الهادف إلى دفعهم نحو الالتزام بمبدأ الرحمة والرقة والرأفة، وصلة الرحم، والبر بالوالدين، والالتزام بأحكام الشرائع، ليكون ذلك أساساً أخلاقياً وعملياً لنظرتهم للآخر، وللتعامل معه..

٤ ـ يضاف إلى ذلك: أن من الطبيعي أن تنتاب أولئك الذين عرضوا على النبي «صلى الله عليه وآله» الفوز ببيض النساء، وأدم الإبل، صحوة تجعلهم يقارنون بين ما عرضوه عليه «صلى الله عليه وآله»، وبين ما أجابهم به، لكي يكتشفوا ما يصح أن يكون معياراً للحرب والسلم، والإقدام، والإحجام تجاه الذين يدينون بغير دين الإسلام، ويضعون أنفسهم في مواضع المناوئ له..

٥ ـ وقد أظهرت هذه الحادثة: أن ثمة أموراً يحسبها الإنسان ثانوية،

وغير ذات قيمة، في حين أنها قد تصبح الأساس الذي يرتكز عليه أخطر قرار، وأهم موقف يرتبط بالمصير، وبالحياة كلها..

وقد تجلى ذلك في التزام بني مدلج الوكز في لبات الإبل، وفقاً لما قررته الشرائع في كيفية نحرها.

الرفق بالحيوان.. مسؤولية شرعية:

ولما سار رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن العرج ـ وكان فيما بين العرج والطلوب ـ نظر إلى كلبة تهر عن أولادها، وهن حولها يرضعنها، فأمر جميل (والصحيح: جعيل)[1] بن سراقة: أن يقوم حذاءها، لا يعرض لها أحد من الجيش، ولا لأولادها[2].

ونقول:

قد تحدثنا في جزء سابق من هذا الكتاب عن بعض ما يتصل بموضوع الرفق بالحيوان، وصدر لنا كتاب بعنوان: «حقوق الحيوان في الإسلام» ويمكننا أن نكتفي بما ذكرناه هناك عن إعادة الكلام عن ذلك هنا..

غير أننا نود أن نذكر القارئ الكريم بما يلي:

١ ـ إن علينا أن نرصد مشاعر هذا الجيش العرمرم، الذي اختلطت فيه الفئات، والثقافات، والقبائل. وفيهم الحاضر والبادي، والجاهل والعالم،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٧ ص٢٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٦ وج٢ ص٢٢٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ وج٧ ص٢٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٦ وج٢ ص٢٢٥.

والكبير والصغير، والغني والفقير، والرئيس والمرؤوس و.. و.. الخ.. وقد عاش هؤلاء ولا يزال كثير منهم يعيش حياة جاهلية بكل مفاهيمها، وحالاتها، وعاداتها، وبكل ما فيها من مآسٍ، وكوارث، وقد تربوا على استحلال السلب والنهب، والغارة، وقتل الرجال، وسحق الضعفاء من الرجال، والنساء، والأطفال.

وها هم، وهم الجناة الجفاة القساة، يواجهون قراراً حاسماً وحازماً لا بالتجاوز وإطلاق سراح البشر، بل بمراعاة حال البهائم، وحراستها من أن ينالها أي سوء أو أذى، أو حتى مجرد تكدير لصفاء أجوائها.

٢ ـ إن هذا الذي جرى لا بد من أن يفهمهم أيضاً: أن ثمة أموراً يحسبها الإنسان صغيرة في حين أنها قد تكون على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة..

٣ ـ إن هذا الذي يرونه يتجاوز موضوع الرحمة، والرفق بالحيوان، ليكون دليلاً على ثبوت حق، وأن ثمة مسؤولية تجاه هذه المخلوقات.. وفقاً للحديث الشريف الذي يقول: «إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»[1].

٤ ـ إن على هؤلاء الناس الذين رأوا هذا الموقف أن يعودوا إلى أنفسهم، ليقارنوا بين قسوتهم على البشر، حتى الضعفاء، وبين الرحمة

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٢ ص٨٠ والبحار ج٢٢ ص٩ و ٤١ وج٦٥ ص٢٩٠ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٩٤ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٤٦ وشرح النهج للمعتزلي ج٩ ص٢٨٨ وتفسير نور الثقلين ج٤ ص٤٠٢ وتفسير الميزان ج١٧ ص١٤٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٤٥٧ والبداية والنهاية ج٧ ص٢٥٤.

والرقة والمسؤولية التي أظهرها رسول الله «صلى الله عليه وآله» على الحيوان، لتكون الرحمة هي الأساس الذي لا بد من أن يبنوا عليه علاقاتهم بالحيوان..

وإذا كانت علاقاتهم بالحيوان لا بد من أن تصل إلى هذا الحد، فما بالك بعلاقاتهم ببني الإنسان.

٥ ـ لقد كان بإمكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يوقف الجيش، ثم يطلب إقصاء تلك الكلبة عن ذلك المكان، ليمر الجيش وتكون هي وأولادها منه في مأمن وسلام..

ولكنه لم يفعل ذلك، لأن الذين سوف يعرفون سبب إيقاف الجيش، ويعاينون مبرراته عن قرب سيكونون قلة قليلة من الناس، وهو يريد إشاعة هذه السياسة، وتعريف أكبر قدر ممكن من الناس بها، فكان أن وضع لها حارساً يرشد الجيش إلى لزوم الابتعاد عنها، ولو باختيار مسار آخر.. ربما لأن إبعادها عن الطريق ليس بأولى من الابتعاد عن طريقها، وكلا الأمرين يرجعان إلى اختيار السالكين، ولا تكون حقوقها مرهونة بإرادات الناس، بل لا بد لإراداتهم من أن تنطلق وتتبلور على أساس المفروغية عن ثبوت تلك الحقوق ومراعاتها..

٦ ـ لا بد لذلك الجيش من أن يدرك أن انشغال القائد بالقضايا الكبرى لا يبرر له تضييع ما عداها، ما لم يضر الاهتمام بها بالقضية الكبرى، إذ إن الأمر الصغير كبير في حد ذاته وفي موقعه، ولا يغني عنه سواه، ولا يصح التخلي عنه إلا إذا تصادم مع ما هو أكبر وأخطر، بحيث يشكل خطورة عليه، كما هو ظاهر.

صيام النبي ﷺ في السفر:

وروي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: «رأيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالعرج يصب الماء على رأسه من الحر وهو صائم»[1].

وعن جابر، عن ابن عباس: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» خرج من المدينة في غزوة الفتح في شهر رمضان يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد[2]، بين عسفان وقديد[3].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٢ عن مالك والواقدي، وعن الحاكم في الإكليل وج٨ ص٤٢٣ عن أحمد وأبي داود، وص ٤٢٦ عن مالك والشافعي وأحمد، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠١ و ٨٠٢ ونيل الأوطار للشوكاني ج٤ ص٢٨٧ ومسند أحمد ج٤ ص٦٣ وج٥ ص٣٧٦ وراجع: كتاب الموطأ ج١ ص٢٩٤ والمغني لابن قدامة ج٣ ص٤٥ وفتح الباري ج٤ ص١٣٣ والإستذكار لابن عبد البر ج٣ ص٢٩٨ وإمتاع الأسماع ج١٣ ص٣٧٤ والتمهيد لابن عبد البر ج٢٢ ص٤٧ والمصنف للصنعاني ج٤ ص٢٠٧ والشرح الكبير لابن قدامة ج٣ ص٤٥ ولسان الميزان لابن حجر ج١ ص٣٧٧ .

(٢) (الكديد): قيل: بالفتح، وبالكسر، وآخره دال أخرى: موضع بالحجاز على اثنين وأربعين ميلاً من مكة، بين عسفان وأمج. مراصد الإطلاع ج٣ ص١١٥٢ ومعجم البلدان ج٤ ص٤٤٢ وتاج العروس ج٥ ص٢١٩ وراجع: فتح الباري (المقدمة) ص١٧٤ .

(٣) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ وتنوير الحوالك للسيوطي ص٢٨١ وتلخيص الحبير ج٦ ص٤٢٧ ونيل الأوطار ج٤ ص٣٠٤ والطرائف لابن طاووس ص٥٢٨ وتلخيص الحبير ج٦ ص٤٢٧ وتنوير الحوالك ص٢٨١ وعوالي اللآلي ج١ ص٢٠٣ ومسند أحمد ج١ ص٣٣٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٤=

(وفي رواية: بين عسفان وأمج[1]. وفي حديث جابر: كراع الغميم[2])،

= وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٣٧ والتنبيه والإشراف ص٢٣٠ وتذكرة الحفاظ ج٤ ص١٢١٤ وتفسير القرطبي ج٢ ص٢٩٩ ومنتخب مسند عبد بن حميد ص٢١٦ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٧٣ والسنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص٢٤١ وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج٢ ص٢٣٨ وج٥ ص٩٠ وعمدة القاري ج١١ ص٤٦ وج١٧ ص٢٧٦ وفي القاموس: الكديد ما بين الحرمين.

(١) تاريخ الخميس ج٢ ص٧٩ ومسند أحمد ج١ ص٢٦٦ ومجمع الزوائد ج٦ ص١٦٥ وعمدة القاري ج٩ ص٢٣٤ والمعجم الكبير ج٨ ص١٠ والدرر لابن عبد البر ص٢١٤ وجامع البيان للطبري ج٢ ص٢٠٢ وتفسير البغوي ج٤ ص٥٣٨ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٣ ومعجم البلدان ج٤ ص٤٤٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٥ و ٣٢٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٣٩ و ٥٤٠ والنهاية في غريب الحديث ج١ ص٦٥ ولسان العرب لابن منظور ج٢ ص٢٠٨ وتاج العروس ج٣ ص٢٨٨. و(أمج) بفتحتين، والجيم: بلد من أعراض المدينة. مراصد الإطلاع ج١ ص١١٥.

(٢) البحار ج٢١ ص١٢٧ عن إعلام الورى والمجموع للنووي ج٦ ص٢٦٤ والمغني لابن قدامة ج٣ ص٣٤ والشرح الكبير ج٣ ص١٩ والمحلى ج٦ ص٢٥٣ وبداية المجتهد ج١ ص٢٣٨ ونيل الأوطار ج٤ ص٣٠٦ و ٣٠٨ والطرائف ص٥٢٩ واختلاف الحديث للشافعي ص٤٩٣ وصحيح مسلم ج٣ ص١٤١ وسنن الترمذي ج٢ ص١٠٦ وسنن النسائي ج٤ ص١٧٧ والسنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص٢٤١ و ٢٤٦ وعمدة القاري ج١١ ص٤٧ ومسند أبي داود ص٢٣٢ والسنن الكبرى للنسائي ج٢ ص١٠١ ومسند ابي يعلى ج٣ ص٤٠٠ وج٤ =

بلغه أن الناس شق عليهم الصيام، وقيل له: إنما ينظرون فيما فعلت.

فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من لبن، أو ماء، وجزم جابر بأنه ماء، وكذا ابن عباس[1].

وفي رواية: فوضعه على راحلته ليراه الناس، فشرب فأفطر، فناوله

= ص٩٨ وصحيح ابن خزيمة ج٣ ص٢٥٥ وشرح معاني الآثار ج٢ ص٦٥ وصحيح ابن حبان ج٦ ص٤٢٣ وج٨ ص٣١٨ و ٣١٩ ومعرفة السنن والآثار ج٣ ص٣٩٠ والإستذكار لابن عبد البر ج٣ ص٣٠١ والتمهيد لابن عبد البر ج٩ ص٦٨ وج٢٢ ص٥٢ وتفسير الثعلبي ج٢ ص٧٣ وتفسير السمعاني ج١ ص١٨٤ وتفسير البغوي ج١ ص١٥٣ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٧ و ٥٤٢ وسبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ وج٨ ص٤٢٦ ونهج الحق للعلامة الحلي ص٤٤٢ وإحقاق الحق (الأصل) ص٣٨٣.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ وج٨ ص٤٢٨ وإحقاق الحق (الأصل) ص٣٨٣ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ وراجع: صحيح البخاري (ط دار الفكر) ج٥ ص٩٠ وفتح الباري ج٤ ص١٥٨ وصحيح مسلم ج٣ ص١٤١ وصحيح ابن خزيمة ج٣ ص٢٥٥ وصحيح ابن حبان ج٨ ص٣١٨ و ٣١٩ ونصب الراية ج٣ ص٢٧ والعهود المحمدية ص٧١٦ ونيل الأوطار ج٤ ص٣٠٩ و ٣١٠ والطرائف لابن طاووس ص٥٢٩ وعمدة القاري ج١٧ ص٢٧٦ والمعجم الكبير ج١١ ص٢٧٤ وراجع: الكافي ج٤ ص١٢٧ ومن لا يحضره الفقيه ج٢ ص١٤١ والوسائل (ط مؤسسة آل البيت) ج١٠ ص١٧٦ و (ط دار الإسلامية) ج٧ ص١٢٥ والفصول المهمة ج١ ص٦٩١ وجامع أحاديث الشيعة ج٩ ص٢٩٣ ومنتقى الجمان ج٢ ص٥٢٧ ونهج الحق وكشف الصدق ص٤٤٢.

رجلاً إلى جنبه، فشرب فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام، فقال: «أولئك العصاة ، أولئك العصاة»، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: سافرنا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» ونحن صيام، فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم».

وكانت رخصة، فمنا من صام، ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر، فقال: «إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا».

فكانت عزيمة، فأفطرنا[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٨ ص٤٢٦ وج٥ ص٢١٣ وفي هامشه عن: مسلم من حديث ابن عباس ٢/ ٧٨٤ (٨٨/ ١١١٣) ومن حديث جابر أخرجه مسلم في الصيام ٢/ ٧٨٥ (٩٠/ ١١١٤) والبخاري (٤٢٧٥)، والترمذي (٧١٠) والنسائي في الصيام باب (٤٧) والطيالسي كما في المنحة (٩١٢) والطحاوي في معاني الآثار ٢/ ٦٥ والشافعي في المسند (١٥٨) والبيهقي في الدلائل ٥/ ٢٥ وفي السنن ٤/ ٢٤١، وانظر التلخيص ٢/ ٢٠٣ وراجع: السيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٢ وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد الحفيد ج١ ص٢٣٨ وعوالي اللآلي ج١ ص٢٠٤ وراجع: شرح معاني الآثار ج٢ ص٦٤ ونيل الأوطار ج٤ ص٣٠٩ و ٣١٢ والطرائف ص٥٢٨ ونهج الحق ص٤٤٢ وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج٥ ص٩٠ وعمدة القاري ج١٧ ص٢٧٥ ونصب الراية ج٣ ص٢٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ وفي هامشه عن: مسلم ٢/ ٧٨٩ (١٠٢/ ١١٢٠) والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٥ وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٨٠٢ وتلخيص الحبير ج٦ ص٤٣١ وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج٣ ص١٤٤ والسنن الكبرى ج٤ ص٢٤٢ وفتح الباري ج٤ ص١٦٠ وتحفة =

أين أفطر رسول الله صلى الله عليه وآله ؟!:

وقد اختلفوا في الموضع الذي أفطر فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» هل هو قديد؟ أو كديد؟ أو كراع الغميم؟ أو عسفان؟[1].

قال الصالحي الشامي وغيره: «يجوز أن يكون قد وقع منه «صلى الله عليه وآله» الفعل في المواضع الأربعة، والفطر في موضع منها، لكن لم يره جميع الناس فيه لكثرتهم، وكرره ليتساوى الناس في رؤية الفعل الخ..»[2].

وقال الحلبي: «لا منافاة لتقارب الأمكنة»[3].

ونقول:

إن تقارب الأمكنة لا يجدي شيئاً، فإنه إذا كان الفعل قد وقع منه «صلى الله عليه وآله» في كراع الغميم، فلماذا عدل الناقل عنها إلى عسفان، أو قديد، أو كديد؟

وإذا كان قد حصل ذلك في عسفان، فلماذا يذكر الراوي كراع الغميم، أو قديداً؟!

وأما ما ذكروه من احتمال تكرر الفعل منه «صلى الله عليه وآله» ليراه

= الأحوذي ج٣ ص٣٢٨ وج٥ ص٢٧١ والمصنف لابن أبي شيبة ج٧ ص٦٢٧ وصحيح ابن خزيمة ج٣ ص٢٥٧ وشرح معاني الآثار ج٢ ص٦٥ ومسند الشاميين ج٣ ص١٣٠ ونيل الأوطار ج٤ ص٣٠٤ وفقه السنة لسيد سابق ج١ ص٤٤٢ وسنن أبي داود ج١ ص٥٣٨ والسنن الكبرى ج٤ ص٢٤٢.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٤.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢٦٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٤.

(٣) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٤.

الناس، فيحتاج إلى شاهد وقرينة تدل على هذا التعدد.

على أن ظاهر الروايات هو: أنها تتحدث عن فعل واحد صدر منه «صلى الله عليه وآله» بما له من خصوصيات وتفاصيل..

حديث الصيام باطل من أصله:

ونظن أننا لن نفاجىء القارىء الكريم إذا قلنا: إن هذا الذي ذكروه عن أمر الصيام والإفطار باطل من أساسه، فلاحظ ما يلي:

١ ـ إن المسافة التي توجب القصر في مدرسة أهل البيت «عليهم السلام» هي ثمانية فراسخ إمتدادية، أو ملفقة من الذهاب والإياب.

والفرسخ: ثلاثة أميال.

والمسافة بين المدينة والأماكن التي يُدَّعى أنه «صلى الله عليه وآله» قد أفطر فيها، هي أضعاف المقدار الذي يجب فيه القصر، وفق ما عليه أهل البيت «عليهم السلام»، وأهل البيت أدرى بما فيه، وهم سفينة النجاة، والثقل الذي أمر الله تعالى بالتمسك به مع القرآن..

٢ ـ والمسافة الموجبة للقصر عند أهل السنة: المالكية، والحنابلة، والشوافع، هي: مسيرة يوم وليلة، وقدروها بستة عشر فرسخاً، التي هي حوالي اثنين وثمانين كيلو متراً أي ثمانية وأربعون ميلاً.

وعند الحنفية هي: مسيرة ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة بدأً من الصباح إلى الزوال فقط.

وقدرها بعضهم: بأربعة وعشرين فرسخاً[1].

والمسافة بين المدينة والمواضع التي زعموا أن النبي «صلى الله عليه وآله» أفطر فيها : هي أضعاف هذه المسافة..

٣ ـ تقدم أن الحلبي يقول: إن هذه المواضع المذكورة في الروايات متقاربة بحيث يصح ذكر بعضها مكان بعض.

وقد قلنا: إن ذلك لا يصح، إذ لا نجد مبرراً لترك اسم الموضع الأصلي، وذكر اسم الموضع المجاور له.

ولكننا نقول:

إن عسفان تبعد عن مكة ستة وثلاثين ميلاً فقط[2].. فهي على مسافة يومين من مكة[3].

وكديد: تبعد عن مكة اثنين وأربعين ميلاً[4].

---

(١) راجع: الفقه على المذاهب الأربعة ج١ ص٤٧٢ و ٤٧٣ وراجع: تذكرة الفقهاء (ط ج) ج٤ ص٣٧١ و (ط ق) ج١ ص١٨٨ وتفسير مجمع البيان ج٢ ص١٦ وزاد المسير ج١ ص١٦٨ وتفسير الرازي ج٥ ص٨٢.

(٢) مراصد الإطلاع ج٢ ص٩٤٠ وشرح مسلم للنووي ج٧ ص٢٣٠ وعمدة القاري ج٩ ص٢٠٣ والديباج على مسلم ج٣ ص٢١٥ وعون المعبود ج٤ ص٧٤.

(٣) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٦٦ والشرح الكبير لابن قدامة ج٢ ص٩٣ وكشاف القناع ج١ ص٦١٦.

(٤) مراصد الإطلاع ج٣ ص١١٥٢ ومعجم البلدان ج٤ ص٤٤٢ وشرح مسلم للنووي ج٧ ص٢٣٠ وفتح الباري (المقدمة) ص١٧٤ وتارج العروس ج٥ ص٢١٩.

وكراع الغميم: أمام عسفان بثمانية أميال[1].

وقد صرح أبو هريرة: بأنه «صلى الله عليه وآله» كان بالعرج لا يزال صائماً، وهي تبعد عن المدينة ثمانية وسبعين ميلاً[2].

وقديد: موضع قرب مكة[3]، وبينها وبين ضجنان يوم[4].

وضجنان: على بعد خمسة وعشرين ميلاً من مكة[5].

وقيل: على بعد بريد منها[6].

وهذا معناه: أن ثمة مسافات طويلة فيما بين هذه الأمكنة، قد تصل إلى عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً..

علماً بأن هذه الأماكن التي تتحدث الروايات عنها تبعد عن المدينة مئات الكيلومترات، كما يظهر من ملاحظة ما ذكرناه..

---

(١) مراصد الإطلاع ج٣ ص١١٥٣ ومعجم البلدان ج٤ ص٤٤٣ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٧٩ والديباج على مسلم ج٣ ص٢١٦.

(٢) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٦٤ وشرح مسلم للنووي ج١٥ ص١٥ وعمدة القاري ج١٠ ص١٧٧ والديباج على مسلم ج٥ ص٢٧٤ وسبل الهدى والرشاد ج١٢ ص٧٧.

(٣) مراصد الإطلاع ج٣ ص١٠٧٠ ومعجم البلدان ج٤ ص٣١٣.

(٤) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٥٧ وفتح الباري ج٢ ص٩٣ وفي عمدة القاري ج٥ ص١٤٦ ومعجم ما استعجم: ليلة.

(٥) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٥٧ ومراصد الإطلاع ج٢ ص٨٦٥ ومعجم البلدان ج٣ ص٤٥٣.

(٦) مراصد الإطلاع ج٢ ص٨٦٥ ومعجم البلدان ج٣ ص٤٥٣ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج١ ص٤٨٠.

أي أن عسفان تبعد عن المدينة حوالي ثماني مراحل. أي بما يزيد عن ثلاث مائة كيلومتر، وكذلك الحال بالنسبة لكديد، فضلاً عن كراع الغميم، وقديد.

فإذا لاحظنا النصوص في المصادر المختلفة، فسنجد: أن القادم من المدينة إلى مكة يمر بالعرج، ثم بالجحفة، ثم بكديد، ثم بعسفان.

والجحفة أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، فإنها تبعد عن مكة أربع مراحل ونصفاً[1]، وتبعد عن المدينة خمس مراحل وثلثي مرحلة[2].

والمرحلة هي في الحقيقة: مسيرة يوم[3].

وبعد عسفان تأتي كراع الغميم، ثم أمج.. وتأتي أخيراً قديداً، وضجبان.

وذلك كله يوضح لنا: أن كديداً وعسفان، وكراع الغميم، وقديد، تبعد عن المدينة أضعاف المسافة التي توجب الإفطار وقصر الصلاة، وذلك ظاهر لا يخفى.

والأخذ بهذه الروايات يقتضي طرح جميع الروايات الأخرى التي اعتمد عليها فقهاء المذاهب الأربعة فيما يرتبط بتقدير المسافة التي توجب

---

(١) وفاء الوفاء ج٤ ص١١٧٤ وراجع: مراصد الإطلاع ج١ ص٣١٥ ومعجم البلدان ج٣ ص٦٢ و (ط دار إحياء التراث العربي) ج٢ ص١١١.

(٢) وفاء الوفاء ج٤ ص١١٧٤ وراجع: مراصد الإطلاع ج١ ص٣١٥ ومعجم البلدان ج٣ ص٦٢ و (ط دار إحياء التراث العربي) ج٢ ص١١١.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ج١ ص٤٧٣ والحدائق الناضرة ج١٤ ص٣٢٦ عن المصباح للفيومي.

الفطر والقصر، فضلاً عن مخالفتها لما يقوله أهل بيت العصمة والطهارة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين..

حديث شق عليهم الصوم:

وعن الحديث الذي يقول: إنه «صلى الله عليه وآله» إنما أفطر حين بلغه أن الصوم شق على الناس، نقول:

إننا نضيف إلى ما قدمناه ما يلي:

أولاً: إن فطره «صلى الله عليه وآله» لأجل التخفيف على الناس غير مقبول؛ لأن الصوم إن كان مفروضاً وواجباً، فلا يصح إفطار من لا يشق عليه الصوم لإغراء من شق عليه بالإفطار.

بل الواجب هو: إرشادهم إلى أن من بلغ مقدار المشقة عليه حداً يقتضي الإفطار، فعليه أن يفطر، ومن لم تبلغ به المشقة هذا الحد، لم يجز له الإفطار..

وإن كان الصوم ليس واجباً عليهم، فلا معنى لإناطة الإفطار بالمشقة..

والمفروض: أنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن الصوم شاقاً عليه، فكيف جاز له أن يفطر؟!

ثانياً: إن حديث مشقة الصوم لا ينسجم مع الحديث الآخر، الذي تحدث عن الرخصة تارة، والعزيمة أخرى.. لأن هذا الحديث يدل على أن السبب في أمره «صلى الله عليه وآله» لهم بالإفطار هو: أنه يريد أن يجد فيهم المزيد من القوة في مواجهة عدوهم.

إلا أن يقال: إن هذه الرواية لم تصرح بأن ذلك كان في غزوة الفتح.

وليس فيها أيضاً: أن صيامهم كان في شهر رمضان..

فلعلها قصة أخرى، غير هذه..

لا سيما وأنه لم تكن هناك حرب حقيقية في غزوة الفتح.

ثالثاً: إن اعتبار الذين صاموا عصاةً، يتوقف على أن يكون الصوم واجباً عليهم، فوجوب الإفطار يدور بين احتمالات:

الأول: أن تكون المسافة التي قطعت من موجبات الإفطار.

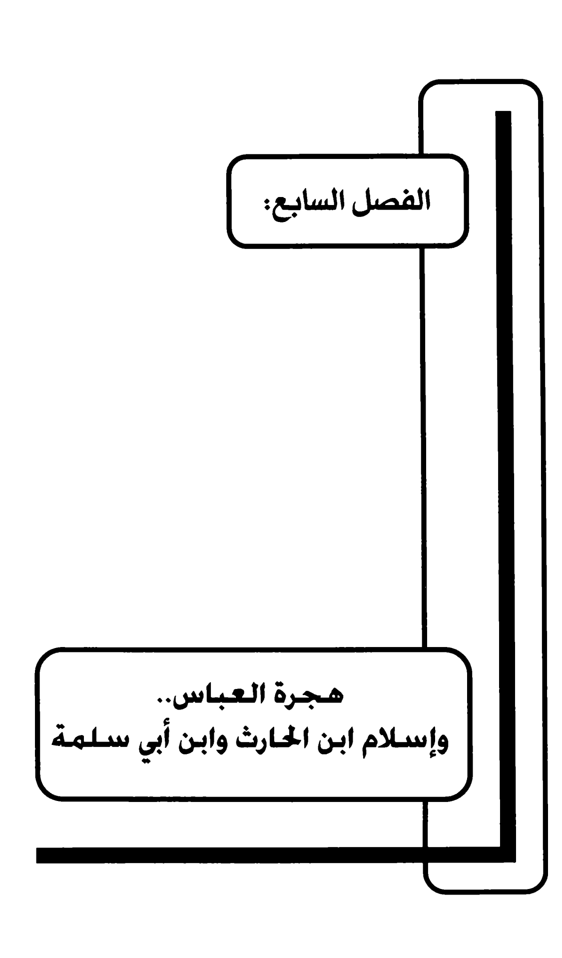
وقد تقدم بطلان هذا الاحتمال.

الثاني: أن يكون الصوم واجباً، لكن المشقة هي التي حتمت إفطارهم.

الثالث: أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» قد حتَّم عليهم الإفطار من موقع كونه أولى بهم من أنفسهم، لكي تظهر قوتهم للأعداء، التي هي بنظره أهم من مصلحة الصوم. فهم قد خالفوا أمره الولائي، ولم يخالفوا أمر الله تعالى لهم في صيام شهر رمضان المبارك.

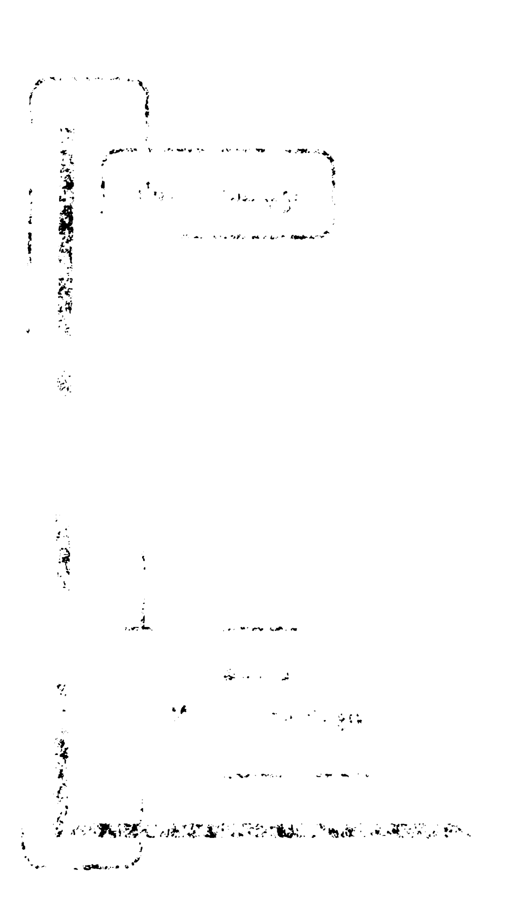
الرابع: أن يكون وجوب الصوم قد كان بنذر ونحوه، وقد حل النبي «صلى الله عليه وآله» نذرهم، من حيث إنه أولى بهم من أنفسهم..

وكل هذا بعيد.. والإعتماد على احتمالات كهذه غير سديد ولا رشيد.



الفصل السابع:

هجرة العباس..
وإسلام ابن الحارث وابن أبي سلمة



إسلام العباس وهجرته:

وقدم العباس على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعياله مسلماً مهاجراً.

قال ابن هشام: لقيه بالجحفة[1].

وقيل: بذي الحليفة، وأرسل أهله وثقله إلى المدينة، ورجع مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى مكة[2].

وعند الواقدي: لقيه بالسقيا هو ومخرمة بن نوفل، فدخل العباس، فلم يخرج حتى رأى رسول الله «صلى الله عليه وآله». وكان ينزل معه في كل منزل حتى دخل مكة[3].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ والبحار ج٢١ ص١١٨ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٧ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٢ والإستذكار ج٥ ص١٥١.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ والبحار ج٢١ ص١١٨ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٧ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٢ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٢.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٣٠ وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٧ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥.

قال البلاذري: وقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» : «هجرتك يا عم آخر هجرة، كما أن نبوتي آخر نبوة»[1].

ولكننا نجد في مقابل ذلك من يقول عن العباس: «الصحيح: أنه منذ يوم بدر كان بالمدينة»[2].

وقالوا: إن العباس خرج يتلقى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومعه أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، وقد تلقاه بثنية العقاب، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» في قبته، وعلى حرسه زياد بن أسيد، فاستقبلهم زياد، فقال: أما أنت يا أبا الفضل فامض إلى القبة، وأما أنتما فارجعا.

فمضى العباس حتى دخل على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فسلم عليه، وقال: بأبي أنت وأمي، هذا ابن عمك قد جاء تائباً، وابن عمتك.

قال: لا حاجة لي فيهما، إن ابن عمي انتهك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي يقول بمكة: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً**﴾[3].

فلما خرج العباس كلمته أم سلمة، وقالت: بأبي أنت وأمي، ابن عمك قد جاء تائباً، لا يكون أشقى الناس بك، وأخي إبن عمتك وصهرك، فلا يكونن شقياً بك.

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ و (ط دار المعرفة) ص١٥ ومواقف الشيعة ج١ ص١٧١ عن عيون الأخبار لابن قتيبة ج١ ص٥.

(٢) الخرايج والجرايح ج١ ص١٦٢ والبحار ج٢١ ص١١٨ عنه.

(٣) الآية ٩٠ من سورة الإسراء.

ونادى أبو سفيان بن الحارث النبي «صلى الله عليه وآله»: كن لنا كما قال العبد الصالح: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ فدعاه وقبل منه، ودعا عبد الله بن أبي أمية، فقبل منه[1].

وساطة أم سلمة:

كان أبو سفيان بن الحارث أخا النبي «صلى الله عليه وآله» من الرضاعة، أرضعته حليمة السعدية أياماً، وكان لا يفارق النبي «صلى الله عليه وآله» قبل النبوة. وكان له ترباً.

وكان عبد الله بن أبي أمية أخاً لأم سلمة، وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وكان هذان الرجلان من أكبر القائمين عليه، ومن أشد الناس إذاية له «صلى الله عليه وآله». فقدما على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بنبق العقاب، أو بالأبواء، فالتمسا الدخول عليه «صلى الله عليه وآله» فأعرض عنهما.

فكلمته أم سلمة فيهما، وقالت له: لا يكون ابن عمك، وابن عمتك أشقى الناس بك.

فقال «صلى الله عليه وآله»: «لا حاجة لي بهما.

أما ابن عمي، فهتك عرضي.

وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال».

(**أي أنه كان قد قال له**: إنه لا يؤمن به إلا إذا عرج بسلم إلى السماء، وهو

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج١ ص١٧٨ وإعلام الورى ج١ ص٢١٩ والبحار ج٢١ ص١٢٧ و ١٢٨ عنه، ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص١٠٨.

ينظر إليه، ثم يأتيه بصك، وأربعة من الملائكة يشهدون له: أن الله أرسله[1]).

فلما خرج الخبر، قال أبو سفيان: ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت جوعاً وعطشاً.

فلما بلغ ذلك رسول الله «صلى الله عليه وآله» رق لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، وأسلما[2].

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٠ و ٨١١ وسيرة ابن إسحاق ج٤ ص١٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٣ وعيون الأثر ج١ ص١٤١ والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٨١ وسبل الهدى والرشاد ج٢ ص٣٤٠ وراجع: الكشاف للزمخشري ج٢ ص٤٦٦ وتفسير القمي ج٢ ص٢٧ والبحار ج٩ ص٢٢٢ وج١٨ ص١٧٩والتفسير الصافي ج٣ ص٢١٧ وتفسير نور الثقلين ج٣ ص٢٢٦ وتفسير الرازي ج٢١ ص٥٨ وتفسير القرطبي ج١٠ ص٣٣٠ وتفسير البحر المحيط ج٦ ص٧٨ والدر المنثور ج٤ ص٢٠٣ وتفسير أبي السعود ج٥ ص١٩٥ وتفسير الآلوسي ج١٥ ص١٧١ والبداية والنهاية ج٣ ص٦٧ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٦ و ٤٠٨ وج١٠ ص٢٧٢ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج١ ص٥٢٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٤ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ والبحار ج٢١ ص١٠٢ و ١٠٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٠ و ٨١١ والمعجم الكبير للطبراني ج٨ ص١٠ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٨٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٩ والكامل في التاريخ ج٢ ص٢٤٣ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٢٨ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٦ و ٤٠٨ وج١٠ ص٢٧٢ والسيرة النبوية ج٤ ص٨٦٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤٤ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ عن ذخائر العقبى، والمواهب اللدنية، وأبي عمر.

وقيل: إن علياً «عليه السلام» قال لأبي سفيان: ائت رسول الله «صلى الله عليه وآله» من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿..تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾؛ فإنه «صلى الله عليه وآله» لا يرضى بأن يكون أحد أحسن قولاً منه، ففعل، فقال «صلى الله عليه وآله»: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

وكان أبو سفيان قد عادى النبي «صلى الله عليه وآله» نحو عشرين سنة، يهجوه، ولم يتخلف عن قتاله[2].

وقال الواقدي: فلما خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى فتح مكة استقبل عبد الله بن أبي أمية، فسلم على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلم يرد عليه السلام، فأعرض عنه ولم يجبه بشيء.

وكانت أخته أم سلمة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخل إليها فقال: يا أختي! إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد قبل إسلام الناس كلهم ورد إسلامي، فليس يقبلني كما قبل غيري.

فلما دخل رسول الله صلى «صلى الله عليه وآله» على أم سلمة قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! سعد بك جميع الناس إلا أخي من بين قريش والعرب، رددت إسلامه، وقبلت إسلام الناس كلهم.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «يا أم سلمة، إن أخاك كذّبني تكذيباً لم يكذبني أحد من الناس، هو الذي قال لي: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ

---

(١) الآيتين ٩١ و ٩٢ من سورة يوسف.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و (ط دار المعرفة) ص١٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٦.

﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾(١).

قالت أم سلمة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ألم تقل: إن الإسلام يجب ما كان قبله؟

قال: نعم.

فقبل رسول الله «صلى الله عليه وآله» إسلامه(٢).

ولم يزل أبو سفيان عشرين سنة عدواً لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، يهجو المسلمين ويهجونه، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ثم إن الله ألقى في قلبه الإسلام.

قال أبو سفيان: فقلت من أصحب؟! ومع من أكون؟! قد ضرب الإسلام بجرانه، فجئت زوجتي وولدي فقلت: تهيأوا للخروج، فقد أظل قدوم محمد.

قالوا: قد آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمداً، وأنت موضع في عداوته، وكنت أولى الناس بنصره.

فقلت لغلامي مذكور: عجل بأبعرة وفرس.

قال: ثم سرنا حتى نزلنا الأبواء، وقد نزلت مقدمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» الأبواء، فتنكرت، وخفت أن أقتل.

وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد نذر دمي، فخرجت على

---

(١) الآيات ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء.

(٢) البحار ج٩ ص٢٢٢ وج٢١ ص١١٤ وتفسير القمي ج٢ ص٢٧ والقواعد الفقهية ج١ ص٤٨ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٥ ومستدرك الوسائل ج٧ ص٤٤٨ وجامع أحاديث الشيعة ج٩ ص٣٢٦ وتفسير نور الثقلين ج٣ ص٢٢٦.

قدمي نحواً من ميل وأقبل الناس رسلاً رسلاً، فتنحيت فرقاً من أصحابه، فلما طلع في موكبه تصديت له تلقاء وجهه، فلما ملأ عينيه مني أعرض عني بوجهه إلى الناحية الأخرى.

فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى، فأعرض عني مراراً، فأخذني ما قرب وما بعد، وقلت: أنا مقتول قبل أن أصل إليه.

وأتذكر بره ورحمه فيمسك ذلك مني. وقد كنت لا أشك أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأصحابه سيفرحون بإسلامي فرحاً شديداً لقرابتي منه.

فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله «صلى الله عليه وآله» عني أعرضوا عني جميعاً، فلقيني ابن أبي قحافة معرضاً عني.

ونظرت إلى عمر يغري بي رجلاً من الأنصار، فقال لي: يا عدو الله، أنت الذي كنت تؤذي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وتؤذي أصحابه، قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها في عداوته.

فرددت بعض الرد عن نفسي، واستطال علي ورفع صوته حتى جعلني في مثل الحرجة من الناس يسرون بما يفعل بي.

قال: فدخلت على عمي العباس، فقلت: يا عم، قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله «صلى الله عليه وآله» بإسلامي لقرابتي وشرفي، وقد كان منه ما رأيت، فكلمه فيَّ ليرضى عني.

قال: لا والله، لا أكلمه كلمةً أبداً بعد الذي رأيت منه.

فقلت: يا عمِّي إلى من تكلني؟

قال: هو ذاك.

قال: فلقيت علياً رحمة الله عليه، فكلمته، فقال لي مثل ذلك.

قال أبو سفيان: فخرجت، فجلست على باب منزل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حتى خرج إلى الجحفة وهو لا يكلمني ولا أحد من المسلمين. وجعلت لا ينزل منزلاً إلا أنا على بابه، ومعي ابني جعفر قائم، فلا يراني إلا أعرض عني.

فخرجت على هذه الحال حتى شهدت معه فتح مكة، وأنا في خيله التي تلازمه حتى هبط من أذاخر، حتى نزل الأبطح، فدنوت من باب قبته فنظر إلي نظراً هو ألين من ذلك النظر الأول، قد رجوت أن يبتسم، ودخل عليه نساء بني عبد المطلب، ودخلت معهن زوجتي فرقّقته عليّ.

وخرج إلى المسجد وأنا بين يديه لا أفارقه على حال، حتى خرج إلى هوازن، فخرجت معه وقد جمعت العرب جمعاً لم تجمع مثله قط.

وخرجوا بالنساء والذرية والماشية، فلما لقيتهم قلت: اليوم يرى أثري إن شاء الله. فلما لقيناهم حملوا الحملة التي ذكر الله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1].

وثبت رسول الله «صلى الله عليه وآله» على بغلته الشهباء، وجرد سيفه.

فاقتحمت عن فرسي وبيدي السيف صلتاً، قد كسرت جفنه، والله يعلم أني أريد الموت دونه، وهو ينظر إلي، فأخذ العباس بن عبد المطلب بلجام البغلة، فأخذت بالجانب الآخر، فقال: من هذا؟

فقال العباس: أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث! فارض عنه، أي رسول الله!

قال: قد فعلت، فغفر الله كلَّ عداوة عادانيها!

---

(١) الآية ٢٥ من سورة التوبة.

فأُقَبِّلُ رجله في الركاب، ثم التفت إلي، فقال: أخي لعمري! ثم أمر العباس، فقال: ناد يا أصحاب سورة البقرة! يا أصحاب السمرة يوم الحديبية! يا للمهاجرين! يا للأنصار! يا للخزرج!

فأجابوا: لبيك داعي الله!

وكروا كرة رجل واحد، قد حطموا الجفون، وشرَّعوا الرماح، وخفضوا عوالي الأسنة، وأرقلوا إرقال الفحول، فرأيتني وإني لأخاف على رسول الله «صلى الله عليه وآله» شروع رماحهم حتى أحدقوا برسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: تقدم فضارب القوم.

فحملت حملة أزلتهم عن موضعهم، وتبعني رسول الله «صلى الله عليه وآله» قدماً في نحور القوم، ما يألو ما تقدم، فما قامت لهم قائمة حتى طردتهم قدر فرسخ، وتفرقوا في كل وجه.

وبعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» نفراً من أصحابه على الطلب، فبعث خالد بن الوليد على وجهٍ، وبعث عمرو بن العاص في وجه، وبعث أبا عامر الأشعري إلى عسكر بأوطاس، فقُتل، وقُتل أبو موسى قاتله[1].

ونقول:

إن لنا وقفات عديدة مع هذه النصوص كلها، ونجمل ذلك على النحو التالي:

---

(١) قاموس الرجال ج٥ ص٢٣٧ عن أنساب الأشراف للبلاذري، وكتاب التوابين ص١١٣ و ١١٤.

هجرة العباس آخر هجرة:

وقد صرحت الروايات المتقدمة: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد قال للعباس: «هجرتك يا عم آخر هجرة كما أن نبوتي آخر نبوة»(١).

ونقول:

إننا نسجل هنا الملاحظات التالية:

ألف: لماذا اعتبر «صلى الله عليه وآله» هجرة العباس آخر هجرة، ولم يعتبر هجرة عبد الله بن أبي أمية آخر هجرة؟!

أو لماذا لا يعتبر هجرة أبي سفيان بن الحارث آخر هجرة؟!

بل لقد كان الأولى اعتبار هجرة هؤلاء جميعاً آخر هجرة..

وقد يقال في الجواب عن ذلك: إن العباس كان في مكة مسلماً، ولم يهاجر إلا حين الفتح، أما هؤلاء فقد كانوا على الكفر، وإنما جاؤوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» في هذا الوقت لكي يسلموا، وكان بعضهم قد أهدر النبي «صلى الله عليه وآله» دمه. وإنما يصح إطلاق كلمة المهاجر على من أسلم وآمن، ثم هاجر.. لا على من لم يسلم أصلاً، ولكنه يَعِدُ بأن يسلم حين يلقى النبي «صلى الله عليه وآله»..

غير أن صحة هذا الجواب تتوقف على ثبوت إسلام العباس قبل يوم الفتح، ودون ذلك خرط القتاد، لا سيما مع ما سيأتي من وجود رواية صحيحة مصرحة بكونه من الطلقاء.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٣ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ و (ط دار المعرفة) ص١٥ ومواقف الشيعة ج١ ص١٧١ عن عيون الأخبار لابن قتيبة ج١ ص٥.

ب: إننا لم نعرف ماذا كان مصير مخرمة بن نوفل، فإنه لم يدخل على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإن كان قد أسلم فلماذا لم يذكروا لنا ذلك؟!

وإن كان لم يسلم، فهل تركوه؟ أم أسروه؟!

ج: إن حديث هجرة العباس في هذا الوقت موضع شك:

أولاً: لما تقدم من أن ثمة من يقول عن العباس: «الصحيح: أنه منذ يوم بدر كان في المدينة». وإن كانت النصوص والوقائع لا تساعد على قبول هذا القول..

ثانياً: قد عرفت الخلاف في المكان الذي التقى فيه العباس بالنبي «صلى الله عليه وآله»، فهل لقيه بالسقيا وهي تبعد عن المدينة أربعة أيام؟!

أم لقيه بالجحفة، وهي تبعد عن مكة أربع مراحل ونصف مرحلة، كما تقدم؟!

أم لقيه في ثنية العقاب؟!

أم في الجحفة؟!

أم في ذي الحليفة؟!

وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى..

ثالثاً: إن كلام المعتزلي يشير إلى أن آخر من هاجر هو نعيم بن مسعود، وليس العباس.

فقد ذكر: أن العباس شفع في نعيم بن مسعود: أن يستثنيه النبي «صلى الله عليه وآله» من قوله: «لا هجرة بعد الفتح»، فاستثناه، فراجع[1].

رابعاً: ما معنى مقارنة هجرة العباس بالنبوة الخاتمة؟! فإن للنبوة

---

(١) البحار ج٦٦ ص٢٣٠ عن شرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص١٠٣.

الخاتمة فضلها على سائر النبوات، ولم يكن لهجرة العباس أي فضل على غيرها من الهجرات، بل كانت تلك الهجرات أفضل عند الله تعالى، ولا سيما هجرة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهجرة أمير المؤمنين «عليه السلام». وقد كان «عليه السلام» يذكر سبقه إلى الهجرة في جملة فضائله وكراماته التي منَّ الله تعالى عليه بها(١).

خامساً: إنهم يقولون: إن العباس خرج يتلقى النبي «صلى الله عليه وآله»، ومعه عبد الله بن أبي أمية، وأبو سفيان، وقد تلقاه بثنية العقاب حسبما تقدم.

وهذا معناه: أنه لم يخرج مهاجراً، وإنما خرج متلقياً.. وإن كان لنا كلام حتى بالنسبة لهذا المقدار أيضاً، ونظن أنه قد خرج يتنسم الأخبار ففوجئ بجيوش الإسلام فاستسلم كما سنرى.

سادساً: روي عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن علي بن النعمان، عن عبد الله بن مسكان، عن سدير، قال:

«كنا عند أبي جعفر «عليه السلام»، فذكرنا ما أحدث الناس بعد نبيهم

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص١٠٦والوسائل (ط مؤسسة آل البيت) ج١٦ ص٢٢٨ و (ط دار الإسلامية) ج١١ ص٤٧٨ وفرحة الغري لابن طاووس ص٥ والبحار ج٣٨ ص٢٥٥ و ٢٩٢ وج٣٩ ص٣٢٥ وج٧٢ ص٤٢١ وجامع أحاديث الشيعة ج١٤ ص٥٨١ ومستدرك سفينة البحار ج١٠ ص٤٨٦ ودراسات في نهج البلاغة للشيخ محمد مهدي شمس الدين ص١٧٨ وموسوعة أحاديث أهل البيت «عليهم السلام» للشيخ هادي النجفي ج٥ ص٢٧ وشرح النهج للمعتزلي ج٤ ص٥٤ وتفسير ابن عربي ج٢ ص٣٤٥ وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ج١ ص٢٠٥.

«صلى الله عليه وآله»، واستذلالهم أمير المؤمنين «عليه السلام»، فقال رجل من القوم: أصلحك الله، فأين كان عز بني هاشم وما كانوا فيه من العدد؟!

فقال أبو جعفر «عليه السلام»: ومن كان بقي من بني هاشم؟ إنما كان جعفر وحمزة فمضيا، وبقي معه رجلان ضعيفان ذليلان، حديثا عهد بالإسلام: عباس، وعقيل. وكانا من الطلقاء.

أما والله، لو أن حمزة وجعفراً كانا بحضرتهما، ما وصلا إلى ما وصلا إليه، ولو كانا شاهديهما لأتلفا نفسيهما»[1].

وقد وصف السيد الخوئي «رحمه الله» سند هذه الرواية بالصحة[2].

ووصفه العلامة المجلسي بالحسن، ولكنه فسر كلمة: «كانا من الطلقاء» ـ تبعاً للمازندراني ـ بقوله: أي أطلقهما النبي «صلى الله عليه وآله» في غزاة بدر، بعد أسرهما، وأخذ الفداء منهما[3].

وهذا الكلام خلاف الظاهر: فإن كلمة «الطلقاء» اصطلاح خاص، منتزع من كلمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» لأهل مكة يوم الفتح: «اذهبوا فأنتم

---

(١) الكافي (مطبعة النجف سنة ١٣٨٥ هـ) ج٨ ص١٦٥ و (ط دار الكتب الإسلامية) ص١٨٩ الحديث رقم ٢١٦ والبحار ج٢٨ ص٢٥١ ومعجم رجال الحديث ج١٠ ص٢٥٢ ومجمع النورين للمرندي ص٨٩ وبيت الأحزان ص١٢٨ وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» في الكتاب والسنة والتاريخ للريشهري ج٣ ص٦٥ وعقيل بن أبي طالب للأحمدي الميانجي ص٧٨.

(٢) معجم رجال الحديث ج٩ ص٢٣٥.

(٣) مرآة العقول ج٢٦ ص٨٣ و ٨٤ وراجع: شرح الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ج١٢ ص٢٣٦ و (ط دار إحياء التراث العربي) ص٢٤٧.

الطلقاء». وهو مؤيد بشواهد أخرى تدل على أن العباس لم يهاجر.

فإن إسلام العباس وعقيل في بدر فلا مجال لإثباته، فيبقى في دائرة الظنون والحدسيات، فراجع ما ذكرناه في غزوة بدر وغيرها.

الهجرة لم تنقطع:

قد ذكرت الروايات: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: لا هجرة بعد الفتح.

وذكروا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» استثنى نعيم بن مسعود من هذا الإطلاق.

ولكن ذلك غير صحيح: فإن الهجرة باقية إلى يوم القيامة، كما نص عليه أمير المؤمنين «عليه السلام»، فقد روي أنه قال في خطبة له:

«والهجرة قائمة على حدها الأول. ما كان لله في أهل الأرض حاجة من مستسرِّ الأمة ومعلنها، لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها وأقر بها فهو مهاجر

ولا يقع اسم الإستضعاف على من بلغته الحجة، فسمعتها أذنه، ووعاها قلبه، إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا عبد امتحن الله قلبه للإيمان، ولا تعي حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام رزينة..»[1].

فهذا النص يدل على أنه «عليه السلام» يريد أن ينفي ما يزعمونه من

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٢ ص١٢٨ الخطبة رقم ١٨٩ والبحار ج٦٦ ص٢٢٧ والإيجاز والإعجاز للثعالبي ص٣٢ وشرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص١٠١ وينابيع المودة ج٣ ص٤٥٢.

انتفاء الهجرة، وهو الزعم الذي أيدوه بما نسبوه إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لا هجرة بعد الفتح.

وقد قرر «عليه السلام»: أن الهجرة باقية لم تنقطع..

وأما ما ذكره أمير المؤمنين «عليه السلام» لمعاوية: من أن الهجرة قد انقطعت يوم أسر أخوه، فيمكن أن يكون «عليه السلام» قد أورده وفق مزاعم معاوية وأضرابه، من أن الهجرة قد انقطعت بفتح مكة.

هذا، وقد وقع الملتزمون بأنه لا هجرة بعد الفتح في حيص بيص في توجيه كلام علي «عليه السلام» هذا. ويظهر ذلك جلياً مما نقله العلامة المجلسي عن ابن الأثير وابن أبي الحديد المعتزلي وغيرهما، فقد قال في شرحه للكلام السابق ما ملخصه:

أصل الهجرة المأمور بها الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام.

وقال في النهاية فيه: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية.

وفي حديث آخر: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة.

والهجرة هجرتان:

إحداهما: التي وعد الله عليها الجنة في قوله: **﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾**(1)، فكان الرجل يأتي النبي «صلى الله عليه وآله» ويدع أهله وماله لا يرجع في شيء منه، وينقطع بنفسه إلى مهاجره.

وكان النبي «صلى الله عليه وآله» يكره أن يموت الرجل بالأرض التي هاجر منها، فمن ثم قال: «لكن البائس سعد بن خولة»، يرثي له أن مات بمكة.

---

(١) الآية ١١ من سورة التوبة.

وقال حين قدم مكة: «اللهم لا تجعل منايانا بها»، فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة، وانقطعت الهجرة.

والهجرة الثانية: من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين، ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى، فهو مهاجر. وليس بداخل في فضل من هاجر تلك الهجرة، وهو المراد بقوله: **«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة»**.

فهذا وجه الجمع بين الحديثين.

وإذا أُطلق في الحديث ذكر الهجرتين، فإنما يراد بهما: هجرة الحبشة، وهجرة المدينة، انتهى كلام ابن الأثير.

وقال ابن أبي الحديد: هذا كلام من أسرار الوصية يختص به علي «عليه السلام»، لأن الناس يروون أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: «لا هجرة بعد الفتح»، فشفَّع[1] عمه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعي أن يستثنيه، فاستثناه.

وهذه الهجرة التي أشار إليها أمير المؤمنين «عليه السلام» ليست تلك، بل هي الهجرة إلى الإمام.

وقال بعض الأصحاب: تجب المهاجرة عن بلد الشرك على من يضعف عن إظهار شعائر الإسلام مع المكنة. ويستحب للقادر على إظهارها، تحرزاً عن تكثير سواد المشركين.

والمراد بها: الأمور التي تختص بالإسلام، كالأذان والإقامة، وصوم شهر رمضان، وغير ذلك.

---

(١) أي قَبِلَ «صلى الله عليه وآله» شفاعة عمه.

وألحق بعضهم ببلاد الشرك بلاد الخلاف التي لا يتمكن فيها المؤمن من إقامة شعائر الإيمان مع الإمكان.

ولو تعذرت الهجرة لمرض أو عدم نفقة أو غير ذلك فلا حرج، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[1].

إلى أن قال: «لا يقع اسم الهجرة الخ..». أي يشترط في صدق الهجرة معرفة الإمام والإقرار به.

والمراد بقوله: «فمن عرفها الخ.. »، أنه مهاجر بشرط الخروج إلى الإمام، والسفر إليه، أو المراد بالمعرفة: المعرفة المستندة إلى المشاهدة والعيان.

ويحتمل أن يكون المراد: أن مجرد معرفة الإمام والإقرار بوجوب اتباعه كاف في إطلاق اسم الهجرة، كما هو ظاهر الجزء الأخير من الكلام.

ويدل عليه: بعض أخبارنا، فمعرفة الإمام والإقرار به في زمانه قائم مقام الهجرة المطلوبة في زمان الرسول «صلى الله عليه وآله».

وقال بعض الإصحاب: الهجرة في زمان الغيبة سكنى الأمصار، لأنها تقابل البادية مسكن الأعراب، والأمصار أقرب إلى تحصيل الكمالات من القرى والبوادي، فإن الغالب على أهلها الجفاء والغلظة، والبعد عن العلوم والكمالات، كما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله»: «أن الجفاء والقسوة

---

(١) الآيتان ٩٨ و ٩٩ من سورة النساء.

في (الفدادين)[1]»[2].

وقيل: هي الخروج إلى طلب العلوم، فيعم الخروج عن القرى والبوادي، والخروج عن بلد لا يمكن فيه طلب العلم[3].

وفي جميع الأحوال نقول:

إن هذه التأويلات والتقسيمات تبرعية، ليس لها مبرر سوى أنهم يعتقدون بصحة حديث: لا هجرة بعد الفتح.

ولكن ما ورد في خطبة أمير المؤمنين «عليه السلام» يضع علامة استفهام كبيرة حول صحة هذه الكلمة المنسوبة إلى النبي «صلى الله عليه وآله».

مع ملاحظة: أن المطلوب كان هو الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإيمان، حفظاً لإيمان الناس، ولا مبرر للطلب من الناس الهجرة من بلاد الإيمان إلى بلاد أخرى حتى لو كانت من بلاد الإيمان أيضاً..

---

(١) الفدادون: الجمالون، والرعيان، والبقارون، والحمارون، والفلاحون، وأصحاب الوبر، والذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، والمكثرون من الإبل.

(٢) الكافي ج٨ ص٧٠ والبحار ج٢٢ ص١٣٦ وج٥٧ ص٢٣٢ وج٦٦ ص٢٣١ وعمدة القاري ج١٥ ص١٩١ وتخريج الأحاديث الآثار للزيلعي ج٢ ص٩٤ والذكرى للشهيد الأول ج٤ ص٤١٧ وتفسير البحر المحيط ج٥ ص٩٤ وغريب الحديث ج١ ص٢٠٢ وتفسير النسفي ج٢ ص١٠٥ وروض الجنان للشهيد الثاني(ط ق) ص٣١٢ ومسالك الأفهام ج١ ص٣١٦ عن: غريب الحديث للهروي ج١ ص١٢٥ والصحاح ج٢ ص٥١٨ والنهاية في غريب الحديث ج٣ ص٤١٩.

(٣) البحار ج٦٦ ص٢٢٩ ـ ٢٣١.

الطلقاء ليسوا من الصحابة:

وقد يقال: إن حديث: لا هجرة بعد الفتح ثابت بدليل: أنه حلف رجل بخراسان بالطلاق إن كان معاوية من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأفتى الفقهاء بطلاقها.

فسئل الرضا «عليه السلام» عن ذلك، فأفتى: أنها لا تطلق.

فكتب الفقهاء رقعة أنفذوها إليه، يسألونه عن ذلك، فوقع في رقعتهم: قلت: هذا من روايتكم، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال لمسلمة الفتح، وقد كثروا عليه: أنتم خير، وأصحابي خير، ولا هجرة بعد الفتح[1].

فأبطل الهجرة ولم يجعل هؤلاء أصحاباً له، فرجعوا إلى قوله[2].

فحكم الإمام الرضا «عليه السلام» بعدم صحة الطلاق استناداً إلى هذا الحديث، يدل على ثبوته، فلا معنى للتشكيك به أو إنكاره.

غير أننا نقول:

إننا لا نريد أن نتكلم في سند هذا الحديث نقضاً وإبراماً، إذ يكفينا القول: بأن حكم الإمام الرضا «عليه السلام» لا يدل على صحة حديث

---

(١) عيون أخبار الرضا ج١ ص٩٣ والبحار ج١٩ ص٨٩ وج٣٣ ص١٦٧ وج١٠١ ص١٥٨ ومستدرك سفينة البحار ج٦ ص٥٦٩ وإحقاق الحق (الأصل) ص٢٥٦ وراجع: مسند أبي داود الطيالسي ص٨٤ و ١٣٠ و ٢٩٣ وكنز العمال ج٢ ص٥٦٠ والدر المنثور ج٦ ص٤٠٦ والمستدرك للحاكم ج٢ ص٢٥٧.

(٢) البحار ج١٩ ص٩٠ وج٣٣ ص١٦٧ و ١٠١ ص١٥٨ ومستدرك سفينة البحار ج٦ ص٥٦٩ وعيون أخبار الرضا (ط مؤسسة الأعلمي سنة ١٤٠٤ هـ) ج١ ص٩٣ و ٩٤.

انقطاع الهجرة بالفتح، لأنه جارٍ على قاعدة: ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم.

ويشير إلى ذلك قوله «عليه السلام»: «قلت: هذا من روايتكم عن أبي سعيد الخ..»، فإن هذا القول لو كان ثابتاً عنده وعندهم، لكان الأولى أن يقول: «قلت: هذا من الحديث الثابت عن رسول الله».

وأما حكم الإمام «عليه السلام»: بأن معاوية ليس من الصحابة، فيتلخص في أن كلام النبي «صلى الله عليه وآله» قد تضمن جعل مسلمة الفتح في مقابل أصحابه، فدل ذلك على أنهم ليسوا منهم، وقد كان معاوية من مسلمة الفتح، فهو إذن ليس من أصحابه «صلى الله عليه وآله».

العباس يتلقى رسول الله ﷺ:

وبعد.. فإننا كما نشكك بقوة في ان يكون العباس قد خرج مهاجراً، لوجود الرواية الصحيحة سنداً، والمصرحة بكونه من الطلقاء، بالإضافة إلى قرائن أخرى، فإننا نشك أيضاً: في دقة التعبير الذي ورد في نصوص أخرى، من أنه خرج يتلقى رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وسبب شكنا في ذلك هو الأمور التالية:

١ ـ إن العباس لم يكن يعلم بقدوم رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى مكة، بل إن الجيش القادم نفسه لم يكن يعلم بحقيقة مقصد رسول الله «صلى الله عليه وآله». وقد أوضحنا ذلك أكثر من مرة.

٢ ـ إن الاختلاف في المكان الذي التقى فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» يؤكد شكنا في نوايا الرواة لهذا الأمر..

٣ ـ إن تلك الرواية الصحيحة السند التي اعتبرته من الطلقاء، تؤكد

على أنه إنما أسلم تحت وطأة الخوف من هذا الجيش القادم، ولم يسلم طوعاً، ومن يكون من الطلقاء لا يخرج لتلقي رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فالظاهر هو: أنه قد جرى للعباس مثلما جرى لأبي سفيان وبديل بن ورقاء وغيرهما. أي أنه إنما خرج يتنسم الأخبار.. فأبعد عن مكة أكثر من أبي سفيان، فواجه الجيش العظيم القادم، فاضطر إلى الاستسلام، وإظهار الإسلام، ثم عاد مع ذلك الجيش إلى مكة، ولقي أبا سفيان ومن معه في الطريق، وكان ما كان مما سيأتي بيانه إن شاء الله.

أين لقي العباس رسول الله ﷺ؟!:

وقد ذكرت النصوص المتقدمة مواضع مختلفة ادَّعت أن العباس لقي النبي «صلى الله عليه وآله» فيها.

ففي بعضها: أنه لقيه بالأبواء..

وفي بعضها: أنه لقيه بالجحفة.

وقيل: بذي الحليفة.

وقيل: بالسقيا.

وقيل: بثنية العقاب.

والأبواء بالنسبة للآتي من المدينة إلى مكة تقع قبل الجحفة مما يلي الجحفة بثلاثة وعشرين ميلاً[1]. فتكون على بعد خمسة أيام من المدينة.

والجحفة تقع على أربع مراحل ونصف من جهة مكة، وتبعد خمس

---

(١) معجم البلدان ج١ ص٧٩ ووفاء الوفاء ج٤ ص١١١٨ ومراصد الإطلاع ج١ ص١٩ وفتح الباري ج٤ ص٢٨ وعمدة القاري ج١٤ ص٢٦٠.

مراحل وثلثي مرحلة من المدينة (أو ست مراحل)[١].

وذو الحليفة يبعد عن المدينة ستة أميال أو سبعة[٢].

وأما السقيا، فهي على نحو أربعة أيام من المدينة، وهي بالنسبة للآتي من المدينة إلى مكة، قبل الأبواء بأحد عشر ميلاً[٣].

أما ذكر ثنية العقاب فهو غلط، لأن ثنية العقاب قرب غوطة دمشق[٤] وليست بين مكة والمدينة.

وبعدما تقدم نقول:

لا بد من تحديد الموضع الذي التقى فيه النبي «صلى الله عليه وآله» بالعباس، وبأبي سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية إذ لا يمكن أن يلتقي به في جميع هذه المواضع المتباعدة عن بعضها البعض بما قد يصل إلى عشرات الأميال.

---

(١) راجع: معجم البلدان ج٣ ص٦٢ و (ط دار إحياء التراث العربي) ج٢ ص١١١ ووفاء الوفاء ج٤ ص١١٧٤ وراجع: مراصد الإطلاع ج١ ص٣١٥. راجع: مراصد الإطلاع ج١ ص٣١٥.

(٢) معجم البلدان ج٢ ص٢٩٥ و ٣٢٥ وج٥ ص١٥٥ وأعيان الشيعة ج١ ص٤١٦ ووفاء الوفاء ج٤ ص١١٩٣ ومراصد الاطلاع ج١ ص٤٢٠ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج٢ ص١٥٤ والقاموس المحيط ج٣ ص١٢٩ وتاج العروس ج١٢ ص١٤٨.

(٣) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٣٤ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص١٣٥ وفي معجم ما استعجم ج٣ ص٩٥٤ من السقيا إلى الأبواء تسعة عشر ميلاً.

(٤) مراصد الاطلاع ج١ ص٣٠١ وراجع: معجم البلدان ج٢ ص٨٥ وج٣ ص٢١ وج٤ ص١٣٣.

تناقض واختلاف الروايات:

إننا نلمح اختلافاً وتناقضاً في قصة عبد الله بن أبي أمية، وأبي سفيان بن الحارث.

وهذا يشير إلى: أن ثمة تصرفاً، بل تعمداً للكذب في النصوص، باستثناء واحدة من الروايات، قد يمكن للباحث تحديدها، وقد لا يمكن..

وعلى سبيل المثال لا الحصر نقول: هناك رواية تقول: إن العباس قد كلم النبي «صلى الله عليه وآله» بشأن عبد الله بن أمية، وأبي سفيان بن الحارث..

لكن رواية أخرى تصرح: بأن العباس رفض أن يكلم النبي «صلى الله عليه وآله» بشأن ابن أبي أمية، رغم أن ابن أبي أمية قد طلب من العباس ذلك..

وهناك رواية تقول: إنه لما كلمت أم سلمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» قبل منها ورضي عنه، ودعاه وقبل توبته..

لكن رواية أخرى تقول: إنه لم يرض عنه، ولم يقبل منه، رغم ملازمته له، إلى أن جرى ما جرى في حرب حنين.

النبي ﷺ لا يرد السلام ولا يقبل التوبة:

ومن الأمور التي تثير أكثر من سؤال: ما زعمته بعض الروايات المتقدمة، من أن عبد الله بن ابي أمية سلم على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلم يرد عليه السلام، وأعرض عنه، ولم يجبه بشيء..

كما أنها صرحت: بأنهم أخبروه بأنه قد جاء تائباً. ولكنه «صلى الله عليه

وآله» أعرض عنه، وخشي عبد الله أن يقتل، فشكى ذلك إلى أخته أم سلمة..

ونقول:

١ ـ إننا نشك في صحة ذلك، إذ لم نعهد من أخلاق الرسول الكريم «صلى الله عليه وآله» أن يسلِّم عليه أحد، ثم لا يجيبه.

كيف، وقد أنزل الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا..﴾؟![1].

٢ ـ إن نفس مجيء هؤلاء إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» مستسلمين، تائبين ـ كما صرحت به الرواية ـ ملتمسين منه أن يقبلهم يجعلهم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ..﴾[2].

٣ ـ إن المفروض: كما صرح به العباس وأم سلمة لرسول الله «صلى الله عليه وآله»: أن هذا المذنب قد جاء تائباً.. ولا نجد مبرراً لعدم قبول توبته.. وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ..﴾[3].

وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

---

(١) الآية ٨٦ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٥ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٩٤ من سورة النساء.

الله وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً..﴾[1].

وهؤلاء قد ظلموا أنفسهم، وقد جاؤوا النبي «صلى الله عليه وآله» تائبين مستغفرين.. فلماذا يعرض عنهم، ويرفض إجابة طلبهم، وقبول توبتهم؟!

فكيف إذا أخذنا بالرواية التي أكدت على إصرار عبد الله بن أبي أمية على الفوز برضى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، واستمر ملازماً للنبي «صلى الله عليه وآله» ملتمساً رضاه إلى أن صار إلى حنين، وخاض تلك الحرب، وواجه الأهوال فيها[2].

وماذا نصنع بالكثير من الآيات والروايات الشريفة التي تأمر بالعفو، وتبشر الناس بقبول توبة التائبين..

إلا أن يدَّعى: أنه «صلى الله عليه وآله» قد أراد أن يظهر صدق ذلك الرجل فيما يدَّعيه من التوبة، ليقطع دابر الإشاعات المغرضة التي ربما تثار حول سبب العفو، وأنه هو القرابة التي كانت لابن الحارث أو لابن أبي أمية، وأنها إنما قبلت منهما لأنها كانت توبة نصوحاً، لا لأجل القرابة.

ولكن لو صحت هذه الدعوى لكان يجب أن يعامل العباس بنفس هذه المعاملة، ليثبت أن قبوله لا لأجل قرابته من رسول الله «صلى الله عليه وآله».

---

(١) الآية ٦٤ من سورة النساء.

(٢) راجع: الإستيعاب ج٣ ص٨٦٨ والإصابة ج٤ ص١٠ ـ ١٢ ومستدركات علم رجال الحديث ج٤ ص٤٤٦ وعمدة القاري ج١٧ ص١٧ وج٢٠ ص٢١٦ وج٢٢ ص٤٣ والخصائص الفاطمية للكجوري ج٢ ص١٣٤ .

وأما بالنسبة للسؤال عن كيفية وصول الذين أهدر النبي «صلى الله عليه وآله» دمهم إليه، فيجاب: بأن طرق الوقاية من الأذى متيسرة لهم، ويكفي أن يحتمي بأحد المسلمين، ويأتي معه، كما فعل عثمان بالنسبة لعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

تالله لقد آثرك الله علينا:

وحينما كلَّم العباس رسول الله «صلى الله عليه وآله» بشأن أبي سفيان بن الحارث وابن أبي أمية قد ركَّز على أن هذا ابن عم النبي «صلى الله عليه وآله»، وذاك ابن عمته.. ظناً منه أن القربى النسبية وحدها تكفي للتجاوز عن ذنب ذينك الرجلين..

ولكن الحقيقة هي: أن الإساءة تختلف في طبيعتها وفي أحكامها. فإن كانت إساءة للشخص، كان للصفح عنها، ولمراعاة القربى الرحمية فيها مجال، بل لا مجال لسوى ذلك من نبي كريم لم يزل يحث الناس على صلة القربى، والصفح عن المسيئين..

وإن كانت الإساءة منهما للدين، وللأمة ، وتمثل جرأة عظيمة على الله تبارك وتعالى، فلا يحق لرسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يصفح عن مرتكب ذلك، إذا لم يكن الندم والتوبة من نفس هذ الذنب العظيم.. ولم يظهر من أولئك التائبين ولا من الطالبين للصفح عنهم، أن هذا هو ما جاؤوا من أجله.

بل الذي ظهر هو: أنهم يريدون استجلاب رضى شخص رسول الله «صلى الله عليه وآله»، بهدف إصلاح العلاقة معه كشخص، من أجل حفظ

نفوسهم ومصالحهم، وبغض النظر عن أي شيء آخر.

فجاء الرفض النبوي لقبولهما، منسجماً مع طبيعة ذنبهما، وموجهاً لحقيقة ما يطلب منهما، حيث لم يظهر منهما ما يدل على الرغبة في إصلاح علاقتهما بالله سبحانه، والإعتراف بخطأهما في ممارساتهما التي كانت تهدف إلى إضعاف دين الله، وزعزعة يقين الناس بهذا الدين.

وقد أشار النبي «صلى الله عليه وآله» إلى هذه الحقيقة حين أعلن عن سبب موقفه منهما، وهو: أن أحدهما قد هتك عرضه، لأنه كان يهجوه، ويظهر الإستهانة به، ويصغِّر من شأنه كشخص، توصلاً لإسقاط هيبته، وإضعاف دعوته وتكذيب نبوته.

كما أن الآخر قد اقترح عليه اقتراحات تهدف هي الأخرى إلى تكذيبه في نبوته، من حيث إنها تدخل الشبهة على الضعفاء، وتجعلهم يصدقون المقولة الباطلة في لزوم كون النبي «صلى الله عليه وآله» من غير البشر.

أي أنه يريد أن يفهم الناس: أن من يرقى إلى السماء، ويفعل تلك الخوارق لا يمكن أن يكون بشراً..

وعلى هذا الأساس: إن استجاب النبي «صلى الله عليه وآله» لتلك المطالب، فإما أن يكون ليس من جنس البشر، أو يكون ساحراً كذاباً، والعياذ بالله.. وإن لم يستجب لها ظهر أنه ليس صادقاً في ادِّعائه النبوة.

مع أنه لو جاء بكتاب يقرؤونه ونحو ذلك لفتح لهم باب الجدال بالباطل والتكذيب والاتهام على مصراعيه..

وبذلك تكون الشبهة قد دخلت على الناس في جميع الأحوال.. وهذه جريمة كبرى، وجرأة عظيمة على الله سبحانه وتعالى وعلى رسوله، وعلى دينه..

ولذلك جاءه الرد الإلهي، ليؤكد بشرية الرسول «صلى الله عليه وآله»: ﴿..قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾(١).

مع العلم: بأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان قد فعل من المعجزات ما يكفي لإسقاط جميع هذه المطالب، فقد عُرج به إلى السماء، وأثبت لهم صدق ذلك بما أخبرهم به من أمور حصلت لقافلتهم.. وقد نبع لهم الماء من بين أصابعه، كما أنه قد جاءهم بكتاب قد عجزوا عن مجاراته، وعن الإتيان بسورة من مثله، ولو بمقدار سورة الكوثر..

وقد ظهر بذلك كله: أن ذنب عبد الله بن أبي أمية كان عظيماً في حق الدين والرسالة، وكان جرأة على الله تبارك وتعالى، وليس أمراً شخصياً ليصح الصفح عنه لمجرد القرابة والرحم..

ولكن النبي «صلى الله عليه وآله» قد استجاب وأنعم بالرضا حين عملوا بمشورة علي «عليه السلام»، بأن يقولوا للنبي «صلى الله عليه وآله» ما قاله إخوة يوسف «عليه السلام»: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(٢).

وذلك لأن هذه المبادرة تعني أمرين:

أحدهما: الاعتراف بالخطأ في اختيار الخط والنهج الذي كانوا عليه، لا الخطأ في الممارسة الجزئية تجاه شخص بعينه، وقد ظهر هذا من خلال ربط هذا الخطأ ـ على سبيل المقابلة ـ بالفقرة الأولى المتضمنة لبعثة الله تعالى له

---

(١) الآية ٩٣ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٩١ من سورة يوسف.

بالنبوة، والإعتراف بصدقه «صلى الله عليه وآله».

الثاني: الإقرار بنبوته «صلى الله عليه وآله»، وأنه سبحانه هو الذي أرسله، وآثره بهذا الأمر دون سائر البشر..

وهذا هو الذي يصلح ما أفسدوه، ويبطل كيدهم، ويكسر شوكتهم، وتكون كلمة الباطل هي السفلى، وكلمة الله هي العليا..

ومن أحسن قولاً من الله:

وبعد.. فقد قال الله تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ**﴾[2].

فالتوجيه الإلهي للناس كلهم يقضي بإلزامهم باختيار الأحسن من القول والفعل، وهذا يحتم عليهم معرفة الأمور، والتمييز بين حسنها وقبيحها، ثم الوقوف على الحسن والأحسن منها.

والنبي «صلى الله عليه وآله» هو أولى الناس بالالتزام بالتوجيه الإلهي، بحيث لا يرضى إلا أن يختار أحسن القول، وأحسن الفعل؛ ليكون ذلك هو طبيعته وسجيته، وهو الذي يفيد في رسم أجمل صورة للحياة، ويعطيها معناها اللائق بها، الذي أراده الله تعالى لها.

وقد كان علي «عليه السلام» يريد ان يعرِّف الناس على هذه الحقيقة، ولا سيما من كان يجحد ويعاند..

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٧٧ من سورة القصص.

هنات وهنات في رواية الواقدي:

وقد نَلْمَح في رواية الواقدي العديد من القرائن التي تضعف من درجة الإعتماد عليها، فإضافة إلى ما تقدم من شكنا في صحة ما ورد فيها، من عدم جواب النبي «صلى الله عليه وآله» لابن أبي أمية حينما سلم عليه نشير إلى الأمور التالية:

ألف: اعتراض أم سلمة:

إن من دلائل وضع الرواية المشار إليها: أنها تضمنت اعتراض أم سلمة على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بشمول قاعدة: الإسلام يجب ما قبله لهذه الموارد. ثم تسليمه «صلى الله عليه وآله» بصحة اعتراضها.

إذ لا يمكن أن يغفل النبي «صلى الله عليه وآله» عن قرار أو حكم إلهي ثابت، فكيف إذا كان هو الذي جاء بتشريعه، وصدر عنه مباشرة، ثم تذكِّره به امرأة، أو تكون هي المرشدة له في تطبيقه الصحيح!!

ويزيد في بشاعة هذا الأمر أن هذا الحكم أو القرار له ارتباط بنحو أو بآخر بحقوق الناس، وبمصائرهم، أو بكراماتهم ومواقعهم في الدنيا والآخرة.

إذ من البديهي: أن خطأه «صلى الله عليه وآله» أو غفلته، ينافيان عصمته، ويضعفان نبوته وأهليته لها أمام ألف سؤال وسؤال.

ب: أبو سفيان بن الحارث، والإسلام:

ولا نجد حرجاً في تقرير أن لدينا بعض الريب فيما ذكرته الرواية: من

أن الله ألقى الإسلام في قلب أبي سفيان بن الحارث..

فإنه هو نفسه يتابع الحديث ليدلل فيه: على أن خروجه إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يكن رغبة منه بالإسلام، بل كان خوفاً من القتل بعد أن أهدر النبي «صلى الله عليه وآله» دمه، وقد ضاقت عليه الدنيا، ولم يعد يجد أحداً يصحبه، أو يكون معه بعد أن ضرب الإسلام بجرانه.

ج: علم ابن الحارث بقدوم رسول الله ﷺ:

وقد زعمت الرواية المتقدمة: أن ابا سفيان بن الحارث قال لزوجته وولده: تهيأوا للخروج، فقد أظل قدوم محمد عليكم..

ونحن نشك كثيراً في صحة ذلك، فإن أحداً من أهل مكة لم يكن يعلم بقدوم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، بل من أهل المدينة أنفسهم، حتى ذلك الجيش العرمرم الذي كان مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يكن يعرف مقصد النبي «صلى الله عليه وآله»، حتى بلغ مشارف مكة، حسبما أوضحناه فيما سبق، فمن أين علم أبو سفيان بن الحارث بقدومه «صلى الله عليه وآله» ليخبر زوجته وولده بذلك؟!

ولعل الصحيح هو: أن هذا الرجل كان يعيش حالة من الرعب، بسبب هدر دمه من قبل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فكان يتوقع القتل عند رؤية أي إنسان يحتمل أن يكون من المسلمين.

وقد صرحت الرواية: بأنه قد أظهر خوفه من القتل مرات عديدة، فخرج يطلب الأمان لنفسه من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، متوسلاً إليه بقرابته منه، ظناً منه أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتأثر بذلك،

حتى على حساب دينه، وإسلامه، فالتقى برسول الله «صلى الله عليه وآله»، وجرى له معه ما تذكره الروايات التي تقدمت.

د: هل سيفرح المسلمون بإسلام ابن الحارث؟!:

وقد زعمت الرواية: أن أبا سفيان بن الحارث يقول: إنه كان على يقين بأن المسلمين سيفرحون بإسلامه فرحاً شديداً، لقرابته من النبي «صلى الله عليه وآله».. وأنه كان يرجو أن يفرح رسول الله «صلى الله عليه وآله» بإسلامه لقرابته وشرفه..

ونقول:

إنه سواء أكان هذا الكلام صحيحاً، أو كان راويه قد افتراه كله أو بعضه، فإنه يعبر عن طبيعة تفكير قائله، وعن المفاهيم والإنطباعات التي يعيشها في نفسه.. حتى إنه ليظن أن ما يفرح النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين بإسلام أبي سفيان بن الحارث هو مجرد قرابته منه «صلى الله عليه وآله»، وشرفه في قومه، وليس هو نجاة هذا الرجل من غضب الله تعالى، وخروجه من ذل معصيته إلى عز طاعته جل وعلا..

إنه يفكر كما يفكر الجاهلون، وينطلق من معايرهم ومفاهيمهم، مع أن الإسلام لم يقم وزناً لقرابة أبي لهب، ولا لشرفه في قومه، وأنزل فيه سورة قرآنية خالدة تذكر الناس بخزيه إلى يوم القيامة..

ولسنا بحاجة إلى التذكير بما ورد في القرآن عن ابن نوح، وعن زوجتي نوح ولوط..

هـ: بطولات أبي سفيان بن الحارث في حنين:

وأما فيما يرتبط ببطولات أبي سفيان بن الحارث التي يدَّعيها لنفسه في معركة حنين، فسيأتي في حينه أنها لا يمكن أن تصح، وسنرى أن الناس كلهم قد فروا في تلك الغزوة باستثناء علي «عليه السلام»..

فلا حاجة لاستباق الأمور.. لكننا نقول:

إنه يكفي للحكم على هذه الرواية بالكذب والوضع: أنها تدَّعي أن أبا سفيان بن الحارث قد طرد جيش الأعداء في حنين قدر فرسخ، وتفرقوا في كل وجه..

و: يا للأنصار! يا للخزرج!!:

ومن أمارات سوء النوايا في هذه الرواية أيضا: أنها تزعم: أن النبي «صلى الله عليه وآله» أمر العباس بأن ينادي: يا للمهاجرين! يا للأنصار! يا للخزرج! فأجابوا..

فإن الاقتصار على ذكر الخزرج من فئة الأنصار، وعدم نداء الأوس مما لا يمكن قبوله من النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، لأن هذا الأمر من شأنه أن يُحْدِثَ أسوأ الأثر في نفوس وفي مواقف قبيلة الأوس، التي كانت قبل مجيء النبي «صلى الله عليه وآله» تتصاول مع الخزرج تصاول الفحلين، على حد تعبير النصوص التاريخية..

ز: سؤال النبي ﷺ عن أبي سفيان بن الحارث:

وذكرت الرواية المتقدمة أيضاً: أنه «صلى الله عليه وآله» لما رأى أبا سفيان مجرداً سيفه في حنين وقد أخذ بلجام بغلة النبي «صلى الله عليه وآله»

قال لعمه العباس: من هذا؟!

قال أبو سفيان: فذهبت أكشف المغفر.

فقال العباس: أخوك، وابن عمك، أبو سفيان بن الحارث، فارض عنه، أي رسول الله!!

قال: قد فعلت.

فإن من غير المعقول أن لا يعرفه النبي «صلى الله عليه وآله» ويعرفه العباس، مع أنه كان من رفقاء الصبا، كما أنه لم يزل منذ لقي رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الأبواء يتعرض له، يلازمه، ويسعى لاسترضائه، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يعرض عنه كما صرح أبو سفيان نفسه في الرواية المشار إليها..

عمر يغري بأبي سفيان بن الحارث:

وقد ذكرت تلك الرواية: أن عمر بن الخطاب قد أغرى أنصارياً بقتل أبي سفيان بن الحارث..

والسؤال هو: إن هذا الإغراء قد يحصل وفق سياق رواية الواقدي، التي هي موضع البحث، وقد يحصل أيضاً وفق سياق باقي الروايات، وفي جميع الأحوال نقول:

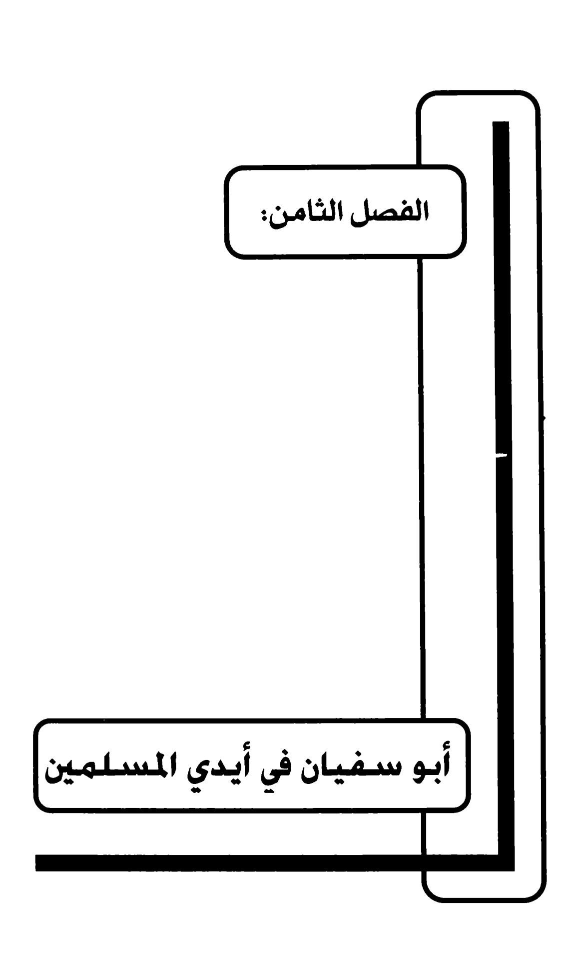
لماذا يغري عمر بخصوص أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي «صلى الله عليه وآله»، ولا يغري بعبد الله بن أبي أمية الذي أهدر النبي «صلى الله عليه وآله» دمه، أو بحكيم بن حزام، أو ببديل بن ورقاء؟ ألم يكن أبو سفيان من أقارب النبي «صلى الله عليه وآله» كما كان العباس من أقاربه؟

وقد صرح عمر: بأن إسلام العباس كان أحب إليه من إسلام الخطاب التماساً لرضا الرسول «صلى الله عليه وآله». بل لماذا يغري الآخرين بقتل ابن الحارث؟ ألم يكن الأجدر به أن يبادر هو إلى فعل ما يغري به غيره؟! فيقوم بقتل أبي سفيان بنفسه، إذا كان يرى صحة قتله بدون مراجعة رسول الله «صلى الله عليه وآله» في ذلك!!

ثم لماذا يغري بقتله رجلاً من الأنصار، ويترك جميع المهاجرين؟!

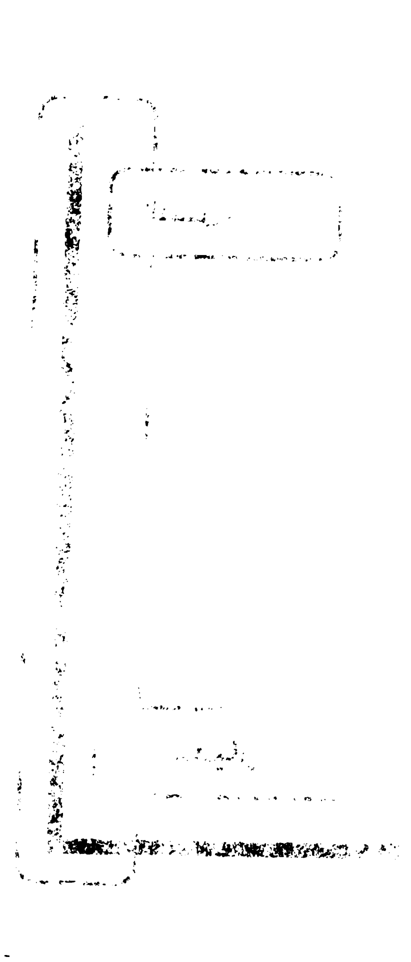
هل يمكن أن يُفْهَم من ذلك: أن عمر يريد إلقاء فتنة بين قريش وبني هاشم، وأهل مكة وبين أهل المدينة؟! وبين العدنانيين والقحطانيين، وبين بني هاشم بالخصوص وبين سائر الناس؟!

ثم ألا يذكرنا إغراؤه الأنصار بقتل رجل من بني هاشم بالسعي الذي كان هو نفسه قد بذله يوم بدر لقتل عقيل والعباس الهاشميين بيد بني هاشم أنفسهم؟! وألا يؤكد ذلك صحة اتهامهم له في نواياه وأنه لو كان الأسير من بني عدي لم يطلب هذا الطلب؟!



الفصل الثامن:

أبو سفيان في أيدي المسلمين



زعماء يربأ بهم النبي ﷺ عن الشرك:

عن عطاء قال: لا أحسبه إلا رفعه إلى ابن عباس قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليلة قربه من مكة في غزوة الفتح: «إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام».

قيل: ومن هم يا رسول الله؟

قال: «عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو»[1].

ونقول:

١ ـ قد ذكر بعضهم: أن جبير بن مطعم أسلم بعد الحديبية، وقبل الفتح. مع أن هذه الرواية تشير إلى أن حاله حال الثلاثة المذكورين معه.

وقالوا: أسلم بين الحديبية والفتح[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٩ عن ابن عساكر، وتاريخ مدينة دمشق ج١٥ ص١٠٦ وتهذيب تاريخ دمشق ج٤ ص٤١٩ وتهذيب الكمال ج٧ ص١٨٢ وتهذيب التهذيب ج٢ ص٣٤٨ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٥٩٥ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ وكنز العمال ج١١ ص٧٥٩ وأسد الغابة ج١ ص٢٧١.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٨ وج٢ ص٦٢.

وقيل: في الفتح[1].

وقيل: عام خيبر[2]. ولا يهمنا تحقيق ذلك.

٢ ـ إن علينا الإشارة هنا إلى أن إطلاق هذا القول من رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيه إغراء لهؤلاء بالتخلي عن العناد والجحود. أو هو على الأقل يضعف عزائمهم في ذلك، ويلوح لهم بأن الجسور مفتوحة، ويمكنهم العبور إلى شاطئ الأمان، في ظل الرعاية الإلهية، ليكون أقل شراسة وحماسة في مقاومة هذا الدين، ويهيئ السبيل بذلك للتخفيف من حدة الضغوط منهم على من يرتبط بهم من أقارب، وحلفاء، وما إلى ذلك..

٣ ـ لكن علينا أن لا ننسى: أن هذا القول يشير إلى رذالة أخلاقية كان هؤلاء الأربعة يمارسونها، فإنهم رغم رجاحة عقولهم، التي تجعل من اعتناقهم للشرك، ومحاربتهم للحق ولأهله طيلة هذه السنين أمراً غير منطقي، ولا مستساغ، خصوصاً مع ما يرونه من التأييدات والألطاف الإلهية والمعجزات، بل إن ذلك يجعل عملهم هذا في غاية القبح، ويشير إلى

---

(١) راجع: الإصابة ج١ ص٢٢٦ والإستيعاب (مطبوع مع الإصابة) ج١ ص٢٣٠ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٢ ص٦٢ وج٣ ص١٨ والمحلى ج١١ ص٦٢ وعمدة القاري ج١٠ ص٣ وج١٤ ص٢٩٥ والتمهيد لابن عبد البر ج٩ ص١٤٧ وخلاصة تهذيب الكمال ص٦٠ وإسعاف المبطأ ص٢٣ والمعارف لابن قتيبة ص٢٨٥ والمنتخب من ذيل المذيل للطبري ص٥٢ والوافي بالوفيات ج١١ ص٤٤ وأعيان الشيعة ج٤ ص٦٧.

(٢) الإستيعاب (مطبوع مع الإصابة) ج١ ص٢٣٠ والتمهيد لابن عبد البر ج٩ ص١٤٧ وأعيان الشيعة ج٤ ص٦٧.

سقوطهم المخزي والمشين في حمأة الشهوات، ويؤكد لجوءهم إلى الجحود عن علم ومعرفة بالحق وبأهله.

منام أبي بكر:

عن ابن شهاب: إن أبا بكر قال: يا رسول الله!! أراني في المنام وأراك دنونا من مكة، فخرجت إلينا كلبة تهرُّ، فلما دنونا منها استلقت على ظهرها، فإذا هي تشخب لبناً.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «ذهب كَلَبُهم، وأقبل دَرُّهم، وهم سائلوكم (بأرحامكم) بأرحامهم، وإنكم لاقون بعضهم، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه»(١).

ولا ندري إن كان هذا القول من رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد أريد به تعبير منام أبي بكر.

أم أنه جاء على سبيل التفاؤل بذهاب الكَلَب، وإقبال الدر؟!

أم أنه «صلى الله عليه وآله» قد أجرى كلامه على هذا النحو ليسجل إخباراً غيبياً صادراً عن مقام النبوة الأقدس، ليكون ذلك من دلائل نبوته؟!

وربما يؤيد هذا المعنى: أنه «صلى الله عليه وآله» قد عقب ذلك بالإخبار

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٤ عن البيهقي، والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٢ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٤٢ ومنتخب الكلام في تفسير الأحلام لابن سيرين ج١ ص٣٨٠ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٨ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٧.

عن وقائع غيبية سوف تحصل، وهو قوله: «وهم سائلوكم بأرحامهم. وإنكم لاقون بعضهم»، مصرحاً باسم أبي سفيان من بين سائرهم، ثم أصدر أوامره المتضمنة لكيفية التعاطي معه.

جيش الإسلام في مر الظهران:

قال عروة: وعميت الأخبار عن قريش، فلم يبلغهم حرف واحد عن مسير رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا يدرون ما هو فاعل. وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب[1].

ورووا عن ابن عباس أنه قال: مضى رسول الله «صلى الله عليه وآله» عام الفتح حتى نزل مر الظهران عشاءً، في عشرة آلاف من المسلمين، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا يدرون ما هو صانع[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٤ عن ابن إسحاق، والواقدي، وبه جزم ابن عائذ، وغيرهم. والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ و ٥٥٦ والبحار ج٢١ ص١٠٣ وراجع ص١٢٧ وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ وعمدة القاري ج١٧ ص٢٧٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٥ وإمتاع الأسماع ج٨ ص٣٨٥ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٥ والمعجم الكبير ج٨ ص١٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٥٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٤ عن إسحاق بن راهويه، والحاكم، والبيهقي، ودلائل النبوة للبيهقي ج٤ ص٢٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٧ و ٧٨ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٥ والبحار ج٢١ ص١٠٣ و ١٢٧ والمغازي للواقدي ج٢ =

وأمر «صلى الله عليه وآله» أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب[(١)].

وعن عروة قال: لما سار رسول الله «صلى الله عليه وآله» عام الفتح، بلغ ذلك قريشاً، فخرج أبو سفيان بن حرب يتحسس الأخبار.

وقالت قريش لأبي سفيان: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً. (زاد الواقدي قوله: «إلا أن ترى رقة من أصحابه، فآذنه بالحرب»)[(٢)].

فخرج هو وحكيم بن حزام، فلقيا بديل بن ورقاء، فاستتبعاه، فخرج معهما يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً، أو يسمعون به.

فلما بلغوا الأراك من مر الظهران، وذلك عشياً، رأوا العسكر، والقباب، والنيران كأنها نيران عرفة، وسمعوا صهيل الخيل، ورغاء الإبل، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً.

= ص٨١٤ وتفسير البغوي ج٤ ص٥٣٨ وشرح معاني الآثار ج٣ ص٣٢٠ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٣ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٢٨ والمستدرك للحاكم ج٣ ص٤٣ والبداية والنهاية ج٤ ص٢٣٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤٦.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٤ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ و (ط دار المعرفة) ص١٥ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٦ والبحار ج٢١ ص١٠٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٤ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٦وفتح الباري ج٨ ص٥ وعمدة القاري ج١٧ ص٢٧٩ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٨ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٨ وج٨ ص٣٨٥ وأعيان الشيعة ج١ ص٢٧٥.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٤.

قال عروة ـ كما في الصحيح ـ: فقال بديل بن ورقاء: هؤلاء بنو كعب ـ وفي رواية بنو عمرو: يعني بها خزاعة ـ حمشتها (حاشتها) الحرب.

فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك(١).

ولكن لعل هذه تميم أو ربيعة(٢).

قالوا: فتنجعت هوازن على أرضنا؟! والله ما نعرف هذا، إن هذا العسكر مثل حاج الناس(٣).

وعن ابن عباس: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما نزل مر الظهران، رقت نفس العباس لأهل مكة، فقال: وا صباح قريش، والله لئن دخلها رسول الله «صلى الله عليه وآله» عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال العباس: فأخذت بغلة رسول الله «صلى الله عليه وآله» الشهباء

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٤ و ٢١٥ وفي هامشه عن البخاري ج٧ ص٥٩٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ وراجع: مجمع البيان ج١٠ ص٥٥٦ والبحار ج٢١ ص١٠٣ و ١٢٨ وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٤ وراجع: كنز العمال ج١٠ ص٥٠٧ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٤٨ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٣٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٥٣ .

(٢) البحار ج٢١ ص١٢٨ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص١٠٨ وإعلام الورى ج١ ص٢٢٠.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٨ وغريب الحديث ج٢ ص٥٢٩.

(البيضاء) ـ وعند الواقدي: أنها الدلدل[1] ـ فركبتها، وقلت: ألتمس حطاباً، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة، فوالله، إني لفي الأراك ألتمس ما خرجت إليه، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً!

فقال بديل بن ورقاء: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب.

فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوت أبي سفيان، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي.

فقال: لبيك يا أبا الفضل، ما لك فداك أبي وأمي!!

فقلت: ويلك!! هذا رسول الله «صلى الله عليه وآله» في عشرة آلاف.

فقال: وا صباح قريش، والله بأبي أنت وأمي، فما تأمرني؟ هل من حيلة؟

قلت: نعم، إركب عجز هذه البغلة، فأذهب بك إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فاستأمنه لك، فإنه والله إن ظُفِرَ بك دون رسول الله «صلى الله عليه وآله» لتقتلن.

قال أبو سفيان: وأنا والله أرى ذلك.

فركب خلفي، ورجع صاحباه ـ كذا في حديث ابن عباس وعند ابن

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٥.

إسحاق ومحمد بن عمر: أنهما رجعا ـ وذكر ابن عقبة ومحمد بن عمر في موضع آخر: أنهما لم يرجعا، وأن العباس قدم بهم إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» انتهى[1].

وعن حكيم بن حزام: أنه خرج هو وأبو سفيان يتنسمان الأخبار، فلقي العباس أبا سفيان، فذهب به إلى النبي «صلى الله عليه وآله».

قال حكيم بن حزام: «فرجعت، ودخلت بيتي، فأغلقته عليَّ، ودخل النبي «صلى الله عليه وآله» مكة، فأمَّن الناس، فجئته، فأسلمت وخرجت معه إلى حنين»[2].

وفي موضع آخر عند الواقدي: قال العباس: هذا رسول الله «صلى الله عليه وآله» في عشرة آلاف من المسلمين، فأسلم، ثكلتك أمك وعشيرتك، ثم أقبل على حكيم وبديل، فقال: أسلما، فإني لكما جار حتى تنتهوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإني أخشى أن تقطعوا دون النبي «صلى الله عليه وآله».

قالوا: فنحن معك.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٥ و ٢١٦ عن إسحاق بن راهويه، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٦ والبحار ج٢١ ص١٠٣ و ١٢٧ و ١٢٨ وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٦ و ٨١٨ و ٨١٩ وراجع ص٨١٥ وشرح النهج للمعتزلي ج١٧ ص٢٦٨ وكنز العمال ج١٠ ص٥٠٦ و ٥٠٧ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٥٠ و ٤٥١.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٩٥.

فجاء بهم إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»[1].

وفي سياق آخر، قال العباس: فجئت بأبي سفيان، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله «صلى الله عليه وآله» على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فلما رآني، قام، فقال: من هذا؟

قلت: العباس، فذهب ينظر، فرأى أبا سفيان خلفي، فقال: أي عدو الله!! الحمد لله الذي أمكن (أمكنني) منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله «صلى الله عليه وآله» وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاجتمعنا على باب قبة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله «صلى الله عليه وآله» ودخل عمر على أثري، فقال عمر: يا رسول الله!! هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.

قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته.

ثم التزمت رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأخذت برأسه، فقلت: والله، لا يناجيه الليلة دوني رجل.

فلما أكثر عمر في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف.

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٥ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨٠ و ٨١ والطبقات الكبرى ج٢ ص١٣٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٨.

فقال: مهلاً يا عباس ـ وفي لفظ: يا أبا الفضل ـ فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من إسلام الخطاب لو أسلم(١).

وقيل: إن العباس قال: فقلت: يا رسول الله!! أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء قد أجرتهم، وهم يدخلون عليك.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «أدخلهم».

فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ودعاهم إلى الاسلام.

فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٦ وفي هامشه: عن ابن أبي شيبة ج١٤ ص٤٧٥، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ و ٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٧ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٦ و (ط مؤسسة الأعلمي) ص٤٧١ والبحار ج٢١ ص١٠٣ و ١٠٤ و ١٢٨ وراجع: شرح معاني الآثار ج٣ ص٣٢٠ و ٣٢١ والدرر لابن عبد البر ص٢١٦ وشرح نهج البلاغة ج١٧ ص٢٦٩ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٦٩٤ وتفسير الميزان ج٢٠ ص٣٨١ وتفسير البغوي ج٤ ص٥٣٨ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٢٢ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٦ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٤٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٣١ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص٥٤٠ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٣١ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٤٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٦٢ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤٨ وشرح إحقاق الحق ج٣٣ ص١٤٧.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «اشهدوا أن لا اله الا الله وأني رسول الله».

فشهد بديل، وحكيم بن حزام.

وقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن في النفس من هذا لشيئاً بعد، فارجئها[1].

وعند أبي شيبة، عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أنه قيل لحكيم بن حزام: بايع.

فقال: أبايعك ولا أخر إلا قائماً.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أما من قبلنا فلن تخر إلا قائماً. انتهى[2].

وقيل لأبي سفيان ذلك، فقال: كيف أصنع باللات والعزى؟

فقال عمر بن الخطاب ـ وهو خارج القبة ـ: إخرأ عليها، أما والله لو كنت خارج القبة ما قلتها.

فقال أبو سفيان: من هذا؟

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٦ عن ابن عقبة والواقدي، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٣٥٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٦ عن ابن أبي شيبة، والفايق في غريب الحديث ج١ ص٣١٢ وكنز العمال ج١٠ ص٥٣٣ وغريب الحديث لابن سلام ج٢ ص١٣٢ والمصنف لابن أبي شيبة ج٨ ص٥٢٨.

قالوا: عمر بن الخطاب[1].

زاد في الحلبية قوله: فقال أبو سفيان: ويحك يا عمر، إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي، فإياه أكلم[2].

وعند المجلسي: قال أبو سفيان: «أف لك ما أفحشك، ما يدخلك يا عمر في كلامي وكلام ابن عمي»[3].

قال العباس: فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به».

قال: فذهبت به إلى رحلي[4].

وقالوا: فلما أذَّن الصبح أذَّن العسكر كلهم: أي أجابوا المؤذن.

ففزع أبو سفيان من أذانهم، فقال: ما يصنع هؤلاء؟

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٦ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ والبحار ج٢١ ص١٢٩ عن إعلام الورى ج١ ص٢٢١ وراجع: فتح الباري ج٨ ص٦ والمصنف لابن أبي شيبة ج٨ ص٥٣٢ وتفسير السمرقندي ج٢ ص٤٣.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٨.

(٣) البحار ج٢١ ص١٢٩ وإعلام الورى ج١ ص٢٢١.

(٤) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٧ والبحار ج٢١ ص١٢٩ عن إعلام الورى ج١ ص٢٢١، والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٥ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨١ وعون المعبود ج٨ ص١٨٠ والثقات لابن حبان ج٢ ص٤٦ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٣١ والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٨٦٢ وعيون الأثر ج٢ ص١٨٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤٩.

قال العباس: فقلت: الصلاة.

قال: كم يصلون؟

قلت: خمس صلوات في اليوم والليلة. (وعند الواقدي: قال: كثير والله).

ثم رآهم يتلقون وضوء رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال: ما رأيت ملكاً قط كاليوم، لا ملك كسرى ولا قيصر.

قال العباس: فلما صلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الصبح غدوت به.

وعند ابن عقبة، ومحمد بن عمر: أن أبا سفيان سأل العباس في دخوله على رسول الله «صلى الله عليه وآله»[1].

وعن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: فلما أصبحوا قام المسلمون إلى طهورهم، فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل!! ما للناس أمروا فيَّ بشيء؟

قال: لا، ولكنهم قاموا إلى الصلاة.

فأمره العباس فتوضأ، وذهب به إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فلما دخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» الصلاة كبّر وكبّر الناس، ثم ركع، فركعوا، ثم رفع، فرفعوا، ثم سجد فسجدوا، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم طاعة، قوم جمعهم من ههنا وههنا، ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له. يا أبا الفضل!! أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٧ عن ابن عقبة، والواقدي، والبحار ج٢١ ص١٢٩ عن إعلام الورى، والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٥ و ٨١٦.

فقال العباس: إنه ليس بملك، ولكنها النبوة.

قال: أوذاك؟!

قال العباس: فلما فرغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: «يا أبا سفيان!! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله»؟!

قال: بأبي أنت وأمي!! ما أحلمك وأكرمك، وأعظم عفوك! إنه لو كان مع الله إله لقد أغنى عني شيئاً (يوم بدر ويوم أُحد) بعد، لقد استنصرت إلهي، واستنصرت إلهك، فوالله ما لقيتك من مرة إلا نصرت عليَّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لقد غلبتك.

فقال «صلى الله عليه وآله»: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»؟

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك، وأعظم عفوك! أما هذه فوالله إن في النفس منها شيئاً حتى الآن.

فقال العباس: ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك.

فشهد شهادة الحق، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. (زاد في نص آخر قوله: تلجلج بها فوه) [1].

وظاهر كلام ابن عقبة، ومحمد بن عمر في مكان آخر: أن أبا سفيان قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله من غير أن يعرض ذلك عليه أحد.

---

(١) البحار ج٢١ ص١٢٩ عن إعلام الورى ج١ ص٢٢١ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص١٠٩.

قال: قال أبو سفيان، وحكيم بن حزام: يا رسول الله جئت بأوباش الناس، من يعرف ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك؟!

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «أنتم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله تعالى وأمنه».

فقال حكيم، وأبو سفيان: صدقت يا رسول الله. ثم قالا: يا رسول الله!! لو كنت جعلت جدك ومكيدتك لهوازن، فهم أبعد رحماً، وأشد عداوة لك؟

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «إني لأرجو من ربي أن يجمع لي ذلك كله. فتح مكة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن، وغنيمة أموالهم وذراريهم، فإني أرغب إلى الله تعالى في ذلك»(١).

وقال في نص آخر: فصار إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»: فقال العباس: هذا أبو سفيان صار معي إليك فتؤمنه بسببي.

فقال «صلى الله عليه وآله»: أسلم تسلم يا أبا سفيان.

فقال: يا أبا القاسم! ما أكرمك وأحلمك؟

قال: أسلم تسلم.

قال: ما أكرمك وأحلمك؟

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٧ و ٢١٨ عن ابن أبي شيبة، وفي هامشه عن: كنز العمال برقم (٣٠١٧٣) والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و ٨٠ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٥٦ والبحار ج٢١ ص ١٠٤ و ١٢٨ و ١٢٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٨١٥ و ٨١٦ و ٨١٧ و ٨١٨ وتاريخ الخميس ج٢ ص٨١.

قال: أسلم تسلم.

فوكزه العباس وقال: ويلك إن قالها الرابعة ولم تسلم قتلك.

فقال «صلى الله عليه وآله»: خذه يا عم إلى خيمتك.

وكانت قريبة، فلما جلس في الخيمة ندم على مجيئه مع العباس، وقال في نفسه: من فعل بنفسه مثل ما فعلت أنا؟ جئت فأعطيت بيدي، ولو كنت انصرفت إلى مكة فجمعت الأحابيش وغيرهم فلعلي كنت أهزمه.

فناداه رسول الله «صلى الله عليه وآله» من خيمته، فقال: «إذاً كان الله يخزيك».

فجاءه العباس، فقال: يريد أبو سفيان أن يجيئك يا رسول الله.

قال: هاته.

فلما دخل قال: ألم يأن أن تسلم؟

فقال له العباس: قل، وإلا فيقتلك.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

فضحك «صلى الله عليه وآله»، فقال: رده إلى عندك.

فقال العباس: إن أبا سفيان يحب الشرف فشرفه.

فقال: من دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن[1].

ونقول:

إن لنا مع هذه النصوص وقفات، هي التالية:

---

(١) البحار ج٢١ ص١١٨ و ١١٩ عن الخرايج والجرايح ج١ ص١٦٣.

إنه ليس بملك:

إنهم قد رووا: أن العباس إنما رفض مقولة أبي سفيان: «أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك»،من حيث إن ذلك يستبطن عدم اعترافه بنبوته «صلى الله عليه وآله».. وإلا فقد قال تعالى عن داود: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾[1].

وقال حكاية عن سليمان: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي..**﴾[2]

من الذي كان مع أبي سفيان؟!:

وقد اختلفت الروايات في الأشخاص الذين كانوا مع أبي سفيان، وفي إسلامهم معه وعدمه، وفي أمور كثيرة أخرى..

فرواية تقول: لم يشعر أهل مكة برسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى نزل العقبة. وكان أبو سفيان وعكرمة بن أبي جهل قد خرجا يتجسسان خبراً، ونظرا إلى النيران، فلم يعلما لمن هي..

ثم لقيهما العباس، فاصطحب أبا سفيان إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ورجع عكرمة إلى مكة[3].

ولكن روايات أخرى ذكرت: بديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام. ولم تذكر عكرمة.

---

(١) الآية ٢٠ من سورة ص.

(٢) الآية ٣٥ من سورة ص.

(٣) البحار ج٢١ ص١١٨ عن الخرايج والجرائح ج١ ص١٦٢.

وبعضها ذكر: أن بديلاً وحكيماً رجعا إلى مكة، ولم يذهبا إلى النبي «صلى الله عليه وآله» مع العباس وأبي سفيان.

وبعضها الآخر يقول: بل ذهبا معهما إليه «صلى الله عليه وآله».

لم يبلغهم حرف واحد:

وفي حين يقول عروة: عُمِّيت الأخبار عن قريش، فلم يبلغهم حرف واحد عن مسير رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا يدرون ما هو فاعل، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم.. يعود عروة هذا ليناقض نفسه، فيقول: لما سار رسول الله «صلى الله عليه وآله» عام الفتح، بلغ ذلك قريشاً.

وقوله الأول هو الصحيح، لأن الرواية عن ابن عباس وغيره تؤيده. بالإضافة إلى نصوص كثيرة أخرى.

ورغم أن الرواية الثانية قد صرحت: بأن قريشاً قالت لأبي سفيان: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً، فإنها أيضاً قد صرحت: بأن أبا سفيان ومن معه لم يخطر في بالهم أن يكون هذا الجيش العظيم الذي يرونه هو للنبي «صلى الله عليه وآله»، بل ذهبت أوهامهم إلى خزاعة تارة، وإلى تميم أخرى، وإلى ربيعة ثالثة، ثم إلى هوازن رابعة..

تزوير الحقائق:

ولكن ما نريد أن نبينه للقارئ الكريم هو أن كتابنا هذا قد حفل بالكثير الكثير مما يشير إلى تزوير عروة وأضرابه للحقائق، واختلاقهم للترهات، رغم شدة تحاشينا في هذا الكتاب عن الإستغراق في مناقشة أقوال هؤلاء الناس، الذين أرادوا أن يستأثروا لأنفسهم بمقام ليسوا من

أهله، ألا وهو مقام حفظ العلم، والشريعة، والتاريخ، وكل الحقائق التي تحتاجها الأمة عبر الأجيال، مع أنهم إنما قدموا لها بحراً زاخراً بالأباطيل والأضاليل، والخزعبلات، والخرافات، حتى إذا ضاقت بهم السبل، واضطروا للاعتراف بشيء من الحقيقة، فإنك تراهم يثيرون حولها أجواء من الريبة والشك والإتهام، ويشبعونها حذلقة، وتمويهاً وتشويهاً.

عشرة آلاف نار لماذا؟!:

ولسنا بحاجة إلى بيان أهدافه «صلى الله عليه وآله» حين أمر أصحابه بإيقاد عشرة آلاف نار.. الأمر الذي بهر عتاة وجبابرة أهل الشرك، وفراعنة قريش.

وقد تقدم: أن أبا سفيان، وحكيم بن حزام، وابن ورقاء فزعوا فزعاً شديداً حين رأوا تلك النيران، كأنها نيران عرفة.

ولولا أنهم رأوا القباب والعسكر الجرار، وسمعوا صهيل الخيل، ورغاء الإبل، لأمكن أن يتسرب إلى أوهامهم احتمال أن تكون فئة صغيرة هي التي أوقدت هذه النيران الكثيرة.

لقد تأكد لديهم:

١ ـ أن من يوقد هذه النيران، يريد أن يُعلم أعداءه بحضوره، غير آبه بهم، ولا خائف منهم.. وأنه لم يأت متسللاً، ولا مغيراً يريد أن يربح المعركة عن طريق المباغتة، لتعوض المباغتة ضعفه، أو لتوهن شيئاً من قدرات عدوه..

٢ ـ إنه يريد بإيقاد هذه النيران الكثيرة أن يظهر حجم قوته،

وحضورها، وسعتها وامتدادها، لتساعد تلك النيران أولئك الناظرين الذين قد يكونون في مرتفع، على رؤية أول وآخر رجل جاء لقتال عتاة الشرك، من دون أن تغرقهم عيونهم في ضباب الإبهام، بسبب الظلمة التي قد تمنع العيون من الإحاطة بها.

وتبين حجم الامتداد والسعة إذا كان ذلك الجيش عشرة آلاف مقاتل، ومعهم الخيول المقاتلة، والإبل الحاملة للأثقال، والمساعدون، وربما الكثير من النساء، والأتباع.. فإن ذلك يحتاج إلى مساحات شاسعة في حركة ذلك الجمع وفي نزوله على حد سواء.

إذن، فقد كان طبيعياً أن يتحير أبو سفيان ومن معه في هوية هذا الجيش الذي أمامهم هل هو خزاعة، أو تميم، أو ربيعة؟!.

إن لقيت محمداً فخذ لنا أماناً:

وأما بالنسبة إلى ما رواه عروة: من أن قريشاً قالت لأبي سفيان: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً، فلا يمكننا تأييده. خصوصاً إذا صدقنا عروة في زعمه: أن قريشاً كانت قد علمت بمسير النبي «صلى الله عليه وآله»..

لأنها إن كانت تعلم بمسير النبي «صلى الله عليه وآله» إليها، أو لو علمت بالمسير دون أن تعلم بالمقصد، فإن المفروض بها: أن تحتاط للأمر، وتتجهز للقائه في ساحات القتال..

إلا إذا كان قد بلغ بها الضعف حداً يدعوها للاستسلام على كل حال.. ففي هذه الحالة لم يكن ثمة داع لاستسرار النبي «صلى الله عليه وآله» بمسيره، وبمقصده؟!

اللهم إلا إذا فرض: أنه «صلى الله عليه وآله» لا يعلم بضعف قريش هذا.. وهو أمر لا مجال لقبوله، فإنه «صلى الله عليه وآله» كان مطلعاً على أحوال مكة، واقفاً على قدراتها، عارفاً بنواياها، وتوجهاتها.

بل إن الأمر قد كان ميسوراً لأي قائد آخر، إذ إن عهد الحديبية قد سهَّل انتقال أخبار مكة وأهلها إليه، خصوصاً من مسلمي مكة الذين كانوا منتشرين في مختلف البيوت، ومن جميع الطبقات والفئات.

العباس الناصح لقريش على بغلة رسول الله ﷺ:

وواضح: أن ركوب العباس على بغلة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبحثه عن رسول يرسله إلى قريش، لا يمكن أن يكون بدون علم النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، بل ذلك ـ فيما يظهر ـ داخل في صلب خطة النبي «صلى الله عليه وآله» لأخذ مكة من أولئك الجبارين والظالمين من دون قتال، وذلك باعتماد طريقة ترسيخ القناعة لدى أقطابها بعجزهم عن مناجزته الحرب، إلا إذا كانوا يريدون أن يلقوا بأيديهم إلى الدمار والبوار.

وقد كان العباس أفضل رسول إلى قريش وزعمائها، فإنهم على قناعة تامة بأنه لا يمكن أن يفرط بهم، كما أثبتته لهم تجربتهم الطويلة معه..

فإذا جاءتهم النصيحة من قبل العباس، فإنهم لا يرفضونها، ولا يستغشونه.

وقد ظهر من تفدية أبي سفيان للعباس بأبيه وأمه، مدى عمق علاقة المودة والصفاء فيما بينهما، حتى إنه يجعل نفسه رهن إشارة العباس..

ثم يظهر العباس هنا بمظهر القوي الحازم، الذي يفرض رأيه وقراره

بدون أي تحفظ، بل هو يقول لأبي سفيان: ثكلتك أمك وعشيرتك.

على أن نفس ركوب العباس بغلة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، من شأنه أن يطمئن أولئك المعاندين والمستكبرين إلى أن مكانة أبي الفضل محفوظة عند رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأن كلمته مؤثرة لديه.

كما أن أحداً من المسلمين لا يجرؤ على إخفار جواره، إذا دخلوا هذا المعسكر العرمرم معه وفي حمايته، فكيف إذا أردف رأس الشرك خلفه، وحمله معه؟

فالعباس بعد كل هذا هو الوسيلة الأكثر أمناً في الطريق، والأكثر فاعلية وتأثيراً لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

وربما يكون هناك اتفاق على طريقة عمل فيما بين العباس وبين هؤلاء، وقد تغاضى النبي «صلى الله عليه وآله» عن التصريح للعباس بمعرفته بها.. واستفاد العباس في الوصول إلى الهدف الكبير والخطير، ألا وهو دخول مكة من دون إراقة دماء.. كما سيتضح في المطالب التالية..

علم العباس بمكان أبي سفيان:

وبعد.. فإننا لا نستطيع أن نصدق ما يذكرونه من أن العباس قد ذهب إلى الأراك يبحث عن حطاب، أو عن صاحب لبن ليرسله إلى قريش ليحذرها من هذا الجيش القادم، ويدعوها إلى المبادرة إلى أخذ الأمان من رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

بل الذي يظهر من مسار الأحداث هو: أن العباس كان عالماً بمكان أبي سفيان، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، وقد قصدهم ليأتي بهم..

الأمر الذي يشير إلى أنه قد يكون هناك اتفاق فيما بينه وبينهم على كل ما يجري، إذا أردنا أن نظن أنه كان معهم من أول الأمر، ثم لما رأوا الجيش أرسلوه إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأسلم، وتوسط لهم لديه، ثم عاد ليأتي بهم. ولعله كان يظن أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يلتفت إلى طبيعة حركة العباس في التمهيد لاستسلام أبي سفيان.

والذي يدعونا إلى اعتماد هذا الاتجاه: أننا لاحظنا فيما سبق أن العباس كان من الطلقاء، وأن الدلائل والشواهد لا تؤيد هجرته ولا حتى ملاقاته للنبي «صلى الله عليه وآله»، لا في ذي الحليفة، ولا الجحفة، ولا السقيا، ولا الأبواء، ولا.. ولا..

وقد لاحظنا هنا أيضاً ما يلي:

١ ـ إنه لا معنى لقولهم: إن العباس قد ذهب يبحث عن حطاب، أو صاحب لبن، ليرسله إلى أهل مكة.. إذ إن الوقت كان ليلاً، ولا يوجد حطاب ولا صاحب لبن في هذا الوقت..

٢ ـ إن الحطاب أو صاحب اللبن إن كان من أهل مكة، فإنه لا يأتي من مكة كل هذه المسافة، بل هو يحتطب ويرعى في محيط مكة نفسها.

وإن كان ممن يسكن الأراك، ومر الظهران، فلماذا يبحث عن حطاب أو صاحب لبن (راع) ويترك سكان البيوت في تلك المنطقة، فليقصدهم، وليكلف واحداً منهم بهذه المهمة..

٣ ـ إن أمراً بهذه الخطورة، وقراراً بهذا الحجم، وهو: أن يستسلموا، ويسلموا مكة لرسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يصدق فيه حطاب، أو صاحب لبن، بل هو يحتاج إلى آراء الرجال التي يُسكن إليها، ويُعتمد

عليها، فكيف إذا كان هذا الرسول ممن يُظن فيه أن يكون العدو قد أرسله إليهم، ليسقط مقاومتهم، ويضعف إرادتهم، ويؤثر على قرارهم عن هذا الطريق، وبهذا الأسلوب..

٤ ـ لماذا خرج العباس بهذه المهمة ليلاً، ولم يخرج لها نهاراً؟!

٥ ـ ما هذه الصدفة التي جعلت العباس يسمع كلمات أبي سفيان ويفهمها، في حين كان أبو سفيان يحتاج إلى أن يتكلم بصوت خفيض لكي لا يشعر ذلك الجيش أو حرَّاسه بوجوده.

كما أن المفروض: أن العباس يركب بغلة لا تراعي في مسيرها عنصر السرية، ولا تسعى لإخفاء أصوات وقع حوافرها، ولعلها أصوات قوية، لما تصادفه في طريقها من الحجارة وغيرها، خصوصاً مع عدم قدرتها على الرؤية التي تمكنها من تجنب بعض الأحجار الكثيرة وسواها بسبب الظلام.

فلماذا لم يسمع أبو سفيان ورفيقاه وقع حوافر بغلة العباس، ليختاروا السكوت حتى يتبين لهم من يقصدهم؟! فلعله من أعدائهم الذين يجب أن يحترزوا منهم؟!

عمر وأبو سفيان:

وقد أكدت النصوص أيضاً هذه النتيجة التي انتهينا إليها، فقد روي عن أبي ليلى، قال: كنا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بمرِّ الظهران، فقال: «إن أبا سفيان بالأراك فخذوه» فدخلنا، فأخذناه[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٤ و ٢١٥ عن الطبراني، ومجمع الزوائد ج٥ ص١٧٢ و (ط دار الكتب العلمية) ج٦ ص١٦٩ والمعجم الكبير ج٧ ص٧٦.

فبينما هم ـ يعني أبا سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء ـ كذلك، لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعثهم عيوناً له، فأخذوا بخطم أبعرتهم.

فقالوا: من أنتم؟

فقالوا: هذا رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأصحابه.

فقال أبو سفيان: هل سمعتم بمثل هذا الجيش، نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم؟[1].

ورووا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال للناس: إنكم لاقون بعضهم، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه[2].

وعن عكرمة: أن أبا سفيان لما أخذه الحرس قال: دلوني على العباس، فأتى العباس فأخبره الخبر، وذهب به إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»[3].

فنستفيد من هذه النصوص، ومن جميع النصوص المتقدمة: أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي أرشدهم إلى وجود أبي سفيان بالقرب منهم، وحدد لهم المكان الذي كان فيه، وأمرهم بأخذه، فأخذوه ومن معه من دون أن يشعروا، ويبدو أن العباس كان مع تلك المجموعة، فطلب أبو سفيان

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٥ عن ابن عقبة، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٧.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ و (ط دار المعرفة) ص١٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٥ عن ابن أبي شيبة، وشرح معاني الآثار ج٣ ص٣١٤ وكنز العمال ج١٠ ص٥٢٦ وتفسير السمرقندي ج٢ ص٤٣ والمصنف لابن أبي شيبة ج٨ ص٥٣٢.

منه أن يتولى حمايته، وإيصاله إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ليأمن على نفسه، فحمله على البغلة التي أذن له النبي «صلى الله عليه وآله» بركوبها، لعلمه بالحاجة إليها خصوصاً في هذا المورد.

ثم لقيهم عمر بن الخطاب في الطريق وعرف أبا سفيان، فحاول أن يستفيد من الفرصة لإظهار حرصه وغيرته على الإسلام، وشدته في مناوأة أعدائه، فطلب من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يأذن له في قتله.

ولعله كان يعلم: أنه «صلى الله عليه وآله» لن يأذن له، وذلك قياساً على الموارد الكثيرة جداً التي لم يستجب النبي «صلى الله عليه وآله» لطلبه فيها ولو مرة واحدة بأن يأذن له بقتل أسرى.

ترهات وأكاذيب:

وبعدما تقدم نقول:

إن أبا سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قالا: أُخذ أبو سفيان وأصحابه وكان حرس رسول الله «صلى الله عليه وآله» نفر من الأنصار، وكان عمر بن الخطاب تلك الليلة على الحرس، فجاؤوا بهم إليه.

فقالوا: جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة.

فقال عمر، وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم.

قالوا: قد والله أتيناك بأبي سفيان.

فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح، فغدا به على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقال ابن عقبة: لما دخل الحرس بأبي سفيان وصاحبيه، لقيهم العباس

بن عبد المطلب، فأجارهم[1].

ونقول:

أولاً: من الواضح: أن النصوص المتقدمة وهي الأكثر عدداً، والأوضح سنداً والمعتمدة لدى المحدثين والمؤرخين، تدحض هذه المزاعم وتسقطها.

ثانياً: بالنسبة لما قيل من أنه لما دخل الحرس بأبي سفيان وصاحبيه لقيهم العباس فأجاره نقول: إنه لا يصح إجارة المحارب بعد أسره.. وذلك واضح.

ثالثاً: لا ندري لماذا جعل النبي «صلى الله عليه وآله» الحرس من خصوص الأنصار، ولم يجعل بينهم أحداً من المهاجرين، ولا من غيرهم من مسلمي سائر البلاد، إلا إذا كان يتهم المهاجرين بمحاباة قومهم، أو بالتواطؤ معهم ضده..

كما إننا لم نفهم لماذا خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن المألوف منه في الموارد المشابهة، وجعل هنا فقط خصوص عمر ـ وهو من المهاجرين ـ على جماعة الأنصار؟!

بديل بن ورقاء خزاعي:

وزعمت بعض النصوص: أن بديل بن ورقاء هو الذي توهم أن ذلك

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٥ ص٢١٥ عن ابن أبي شيبة، والسيرة الحلبية ج٣ ص٧٩ و (ط دار المعرفة) ص١٧ وإمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص٣٥٩ ونيل الأوطار ج٨ ص١٦٩ وفتح الباري ج٨ ص٥ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٤٨ والبداية والنهاية ج٤ ص٣٣١.

الجيش النبوي العظيم الذي رأوا نيرانه هو قبائل خزاعة.

ويرد عليه: أن بديل بن ورقاء كان خزاعياً، وكان يعرف خزاعة وحججها، وهذا يرجح الرواية التي تقول: إن رجلاً آخر قال: هذه خزاعة، فقال له بديل: هؤلاء أكثر من خزاعة[1].

ما هذا التصافي والإنسجام؟!:

ثم إن ما يثير العجب هنا هو هذا التوافق والإنسجام التام بين بديل بن ورقاء، الزعيم الخزاعي، وبين زعماء قريش، التي شاركت في البطش بقومه، وارتكبت مجزرة رهيبة في حقهم، ونقضت العهد مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالتعدي عليهم.. مع كون رسول الله «صلى الله عليه وآله» إنما يقدم مكة بهذا الجيش غضباً لخزاعة، وسعياً لتأديب قريش، والقضاء على بغيها وجبروتها الظالم.

ويؤكد هذا الذي نقوله: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين أجاب حكيم بن حزام بقوله: «أنتم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعقد الحديبية، وتظاهرتم على بني كعب ـ يعني خزاعة ـ بالإثم والعدوان، وفي حرم الله وأمنه». قال بديل بن ورقاء الخزاعي: «صدقت ـ والله ـ يا رسول الله، فقد غدروا بنا. والله لو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدونا ما نالوا منا الذي نالوا»[2].

فإذا كان بديل يرى قريشاً غادرة فاجرة، فما هذا التعاون والانسجام

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص٧٨ و (ط دار المعرفة) ص١٦.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٨٠ و (ط دار المعرفة) ص١٩.

مع زعمائها ضد حليفه الذي جاء لنصره، ورفع الظلم عنه؟!

والأكثر غرابة هنا: أن يكون هذا الود والصفاء بين بديل وبين أبي سفيان بالذات، فإن أبا سفيان هو الذي أرسلته قريش إلى المدينة ليحتال على النبي «صلى الله عليه وآله» وعلى المسلمين، ليضيع دماء أبنائهم، وليساعد الغدرة والظلمة في غدرهم وظلمهم، وفي التغطية عليهم، وإنكار حق خزاعة حتى بديات قتلاهم.

وقد قلنا فيما سبق:

إن فعل أبي سفيان هذا لعله أفحش وأقبح من فعل ناقضي العهد، ومرتكبي الجرائم في حق خزاعة..

حماس عمر لقتل أبي سفيان:

وقد قرأنا في تلك النصوص أيضاً: شدة حماس عمر لقتل أبي سفيان بمجرد أن رآه مع العباس على بغلة رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

ولكن ذلك يثير لدينا ألف سؤال وسؤال عن مدى وعي عمر للأمور، وتقديره لها، وغير ذلك.. وأول سؤال يقفز إلى الذهن هو: هل كان دائماً يتحمس لقتل أبي سفيان بيده حتى في ساحات القتال في المعارك السابقة؟!

وإذا كان كذلك، فهل هو في مستوى حماسه لقتله حين رآه أسيراً في يد أهل الإسلام، لا حول له ولا قوة؟!

أم أنه كان في ساحات القتال في زمرة الضعفاء من المقاتلين، وفي طليعة المنهزمين حين تستعر نار الحرب، ويروج سوق الطعن والضرب؟!

وهل كان في الصفوف الأولى يبارز الفرسان، ويناجز الشجعان؟ أم

كنت تراه في الصفوف الخلفية، يحتمي بغيره، ومشغولاً بحفظ نفسه؟!

تناقضات مواقف عمر وأبي بكر:

وقد كان عمر لم يزل يطلب من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يدعه يضرب عنق هذا الأسير وذاك.. وقد تكرر منه ذلك مرات كثيرة جداً، وكان هو المطالب بقتل أسرى بدر، حتى رووا في ذلك روايات شنيعة المضمون، من حيث إنها تهدف إلى الطعن بالرسول الأكرم نفسه «صلى الله عليه وآله» ـ حسبما تقدم بيانه في غزوة بدر، في فصل الغنائم والأسرى.

وقد كان أبو بكر قرين عمر، وصفيه وحبيبه ونجيَّه، وكانا معاً يداً واحدة في كل ما يجري، فلماذا نجد لأبي بكر مساراً آخر في هذه الأمور بالذات؟ فكيف اتفقا في سائر القضايا واختلفا في خصوص هذا الأمر؟!

بل لم نسمع أن أبا بكر قد أيد عمر في مواقفه هذه إلا مرة واحدة، وانعكست الأمور بينهما في مرة واحدة أيضاً.. أي أن عمر كان هو الميال للقتل والعنف، وكان أبو بكر باستمرار هو الذي يهدئه، ويفثؤه، ويردعه عن مضايقة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويمنعه من مواصلة الإلحاح عليه.. باستثناء مورد واحد، انعكست فيه الأمور، وتبدلت المواقف، فصار عمر هو حمامة السلام، والداعي للصلح والمداراة والوئام.. وأصبح أبو بكر في موقع المصمم على الحرب والقتال مهما كانت النتائج..

ولكن هذا التفاوت قد ظهر حين أصبحت الحرب مع المسلمين الرافضين للإعتراف بشرعية خلافة أبي بكر، وأصروا على عدم إعطائه

الزكاة، ولم يكفروا بعد إسلامهم[1]، فأصر أبو بكر على حربهم.

وأطلق كلمته المشهورة: «لو منعوني عقال بعير لجاهدتهم (أو لقاتلتهم) عليه»[2].

والمورد الواحد الذي اتفق فيه هذان الرجلان هو: مخالفة أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» في قتل أصل الخوارج، فنشأ عن مخالفة رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيه مفسدة عظمى حاقت بالأمة، ولا تزال آثارها تتفاعل فيها إلى يومنا هذا.

فقد رووا: أن أبا بكر قال للنبي «صلى الله عليه وآله»: إني مررت بوادي كذا وكذا، فإذ رجل متخشع، حسن الهيئة، يصلي..

فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: إذهب إليه فاقتله.

فذهب إليه، فلما رآه على تلك الحال كره أن يقتله، فرجع إلى النبي «صلى الله عليه وآله»..

فقال النبي «صلى الله عليه وآله» لعمر: إذهب فاقتله.

فذهب إليه فرآه على تلك الحال فكره أن يقتله.

فقال «صلى الله عليه وآله» لعلي «عليه السلام»: اذهب فاقتله.. فذهب إليه فلم يجده.

فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا

---

(١) راجع: المحلى لابن حزم ج١١ ص١٩٣ وفرق الشيعة ص٧ والمقالات والفرق ص٤ وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٢٥٥ وتاريخ الردة ص١٠ وراجع: مجمع الأمثال ج٢ ص٦٥ والفتوح لابن أعثم ج١ ص٥٨.

(٢) راجع مصادر ذلك تحت عنوان: الجرأة على الدماء.

يجاوز تراقيهم. وذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين، وفي آخره: فاقتلوهم هم شرُّ البرية[1].

وفي نص آخر: فقال علي «عليه السلام»: أفلا أقتله أنا يا رسول الله؟!

قال: بلى أنت تقتله إن وجدته.. فانطلق علي «عليه السلام» فلم يجده.. أو نحو ذلك[2].

ولكن ما يمكن أن نعتبره قاسماً مشتركاً فيما بين جميع هذه الموارد هو: أن هذا المورد الأخير قد جاء موقفهما فيه مخالفاً لأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

---

(١) مسند أحمد ج٣ ص١٥ والمصنف للصنعاني ج١٠ ص١٥٥ و ١٥٦ ومجمع الزوائد ج٦ ص٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ والبداية والنهاية ج٧ ص٢٩٩ وشرح النهج للمعتزلي ج٢ ص٢٦٦ و ٢٦٧ والكامل في الأدب ج٣ ص٢٢٠ و٢٢١ ونيل الأوطار للشوكاني ج٧ ص٣٥١ والمراجعات للسيد شرف الدين ص٣٧٦ و ٣٧٨ والنص والإجتهاد للسيد شرف الدين ص٩٦ والغديرج٧ ص٢١٦ وأهمية الحديث عند الشيعة للشيخ آقا مجتبي العراقى ص٢١٧ وفتح الباري ج١٢ص٢٦٦ والفصول المهمة للسيد شرف الدين ص١٢١.

(٢) كشف الأستار عن مسند البزار ج٢ ص٣٦٠ و ٣٦١ والعقد الفريد ج٢ ص٤٠٤ وراجع المصنف للصنعاني ج١٠ ص١٥٥ و ١٥٦ ومجمع الزوائد ج٦ ص٢٢٦ و ٢٢٧ والمناقب لابن شهراشوب ج٣ ص١٨٧ و ١٨٨ عن مسند أبي يعلى، والإعانة لابن بطة، والعكبري. وزينة أبي حاتم الرازي، وكتاب أبي بكر الشيرازي وغيرهم والطرائف ج٢ ص ٤٢٩ والبداية والنهاية ج٧ ص ٢٩٨ والغدير ج٧ ص٢١٦ وحلية الأولياء ج٢ ص٣١٧ و ج٣ ص ٢٢٧ والإصابة ج١ ص٤٨٤ والنص والإجتهاد ص ٩٣ و ٩٤ عن بعض ما تقدم.

وموقف أبي بكر في قتل مانعي الزكاة هو الآخر مخالف لله ولرسوله.. وقد عاد عمر إلى رأي أبي بكر ووافقه عليه أيضاً..

كما أن طلبات عمر المتكررة بأن يجيز له الرسول قتل هذا وذاك قد جاءت كلها على خلاف ما يريده الله ورسوله أيضاً..

فما هذا التوافق العجيب بين أبي بكر وعمر في هذين الموردين على خلاف رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأن تكون جميع مواقف عمر مخالفة لما يريد الله ورسوله في جميع المواقف المختلفة؟!..

لا مبرر لقتل أبي سفيان:

١ ـ إن عمر كان مهتماً بقتل أبي سفيان، مع أنه يعلم: أن هناك مسلمين كثيرين يعيشون في مكة، وإن قتله قد يؤدي إلى ارتكاب المشركين مجزرة هائلة في حقهم فيما لو حصل هيجان عارم لا يخضع للمنطق، ولا يستجيب لنداء العقل..

٢ ـ المفروض أن أبا سفيان قد أصبح في قبضة أهل الإسلام، ولعل ذلك يفسح المجال لاتفاقات تؤدي إلى حقن الدماء، وانطلاقة الإسلام بقوة في تلك المنطقة، فلماذا لا يترك رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليعالج الأمور بحكمته ورويته؟!..

٣ ـ لماذا لا يسعى عمر لإدخال أبي سفيان في الإسلام؟ ألم يكن إسلام أبي سفيان أحب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من قتله؟!.

مع ملاحظة: أن عمر كان يحب إسلام العباس أكثر من حبه لإسلام أبيه الخطاب لو كان حياً، لعلمه بسرور رسول الله «صلى الله عليه وآله»

بإسلام عمه..

إلا إذا كان عمر يرى: أن النبي «صلى الله عليه وآله» إنما يرغب بإسلام عمه.. لأنه عمه، ولا يرغب بإسلام أبي سفيان تعصباً منه ضد بني عبد شمس، ولأنه عدوه المحارب له. فالعصبية العشائرية هي الحاكمة على مواقفه وتصرفاته «صلى الله عليه وآله»، وهذا المنطق سيء وخطير، لأنه ينتهي إلى الطعن بنبوة النبي «صلى الله عليه وآله» في عصمته وحكمته، ومزاياه. وهو مرفوض جملة وتفصيلاً..

اتهام العباس لعمر بن الخطاب:

إن العباس قد سجل اتهاماً صريحاً لعمر في نواياه، وفي نوازعه العشائرية، وتعصباته القبائلية حين قال له:

«مهلاً يا عمر! فوالله، لو كان من رجال بني عدي ما قلت هذا. ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف».

ولم يستطع عمر أن يدفع عن نفسه هذه التهمة إلا بادعاءٍ آخر، من شأنه أن يزيد من وطأة اتهامه في نواياه، وهو أنه كان يحب إسلام العباس، لأن ذلك يسر النبي «صلى الله عليه وآله»..

مع العلم: بأن إسلام أبي سفيان أيضاً كان يسر النبي «صلى الله عليه وآله»، لأن هداية نسمة خير مما طلعت عليه الشمس، ولأن ذلك قد يوجب تنفيس الإحتقان في المنطقة بأسرها. ولعل إسلام غيره ليس بهذه المثابة..

فلماذا يريد عمر قتل هذا، ولا يهتم بإسلامه، دون ذاك؟!.

ونريد أن لا تفوتنا الإشارة إلى أن هذا الإتهام نفسه قد يوجه إلى عمر

حين طالب بقتل أسرى بدر، حيث لم يكن فيهم أحد من بني عدي أيضاً[1]..

إسلام العباس.. وإسلام الخطاب:

وبعد.. فإننا لم نستطع أن نتبين وجهاً مقبولاً أو معقولاً لقول عمر: إن إسلام العباس كان أحب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من إسلام الخطاب..

وإنه «صلى الله عليه وآله» يريد إسلام كل الناس، ولا يفرحه إسلام هذا أكثر من إسلام ذاك، ولعل إسلام سلمان الفارسي كان أحب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من إسلام العباس، إذ كان إسلام سلمان من موجبات القوة للدين، أو كان أكثر صفاءً، وأعظم رسوخاً، وقوة وعمقاً..

ومن الذي أخبر عمر بواقع إيمان الناس، وبدرجات رسوخ الإيمان في قلوبهم؟!

ومع غض النظر عن ذلك كله، يبقى سؤال نطالب عمر بالإجابة عنه، وهو: إذا كان قد عرف محبة رسول الله «صلى الله عليه وآله» لإسلام العباس، فهل هو أيضاً قد عرف كراهته لإسلام أبي سفيان؟!.

ولماذا كان في أيام خلافته يعظم أبا سفيان والعباس ويقدمهما بصورة لافتة، فقد كان يُفرَش لعمر فراش في بيته في أيام خلافته، فلا يجلس عليه أحد إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب.

---

(١) راجع موقفه هذا في هذا الكتاب في غزوة بدر، فصل: الغنائم والأسرى.

زاد المبرد قوله: هذا عم رسول الله، وهذا شيخ قريش[1].

جوار العباس:

وقد ذكرت الروايات المتقدمة: أن العباس قال لرسول الله «صلى الله عليه وآله» إنه أجار أبا سفيان.

وذكرت أيضاً: أنه أجار بديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام..

ونقول:

إنه جوار لا يصح، بل هو غير جائز، إذا كان يريد بهذا الجوار منع النبي «صلى الله عليه وآله» من التصرف المناسب في حق أبي سفيان، وفي حق بديل، وحكيم..

ويشهد لذلك: أنه لما قدم أبو سفيان المدينة يطلب تجديد عهد الحديبية، والزيادة في المدة، وطلب من رجالات الصحابة أن يجيروا بين الناس، قد واجه رفض ذلك منهم جميعاً، وكانت حجتهم أنه ليس لأحد أن يجير على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ولأجل ذلك نلاحظ: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كما لم يلتفت إلى مطالبات عمر بن الخطاب بقتل أبي سفيان، لم يقم وزناً لجوار العباس لهؤلاء أيضاً، بل بقي مصراً على إجراء حكم الله تعالى فيهم، إن لم ينطقوا بالشهادتين.

وهذا ما يدعونا إلى القول:

إنه إن كان قد أجار أحداً من هؤلاء، حتى على رسول الله «صلى الله

---

(١) العقد الفريد ج٢ ص٢٨٩ والكامل للمبرد ج١ ص٣١٩.

عليه وآله»، فهو مخطئ بلا ريب. وهو لا يلزم لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بشيء من ذلك. وقد ظهر من تعامل رسول الله «صلى الله عليه وآله» معهم: أنه لم يلتفت إلى ما ادَّعاه العباس من جوار..

وإن كان العباس قد أجار هؤلاء الثلاثة: أبا سفيان، وحكيماً وبديلاً من سائر الناس لكي يصلوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» سالمين، ليرى فيهم رأيه، فهو تصرف مقبول، ويكون قول العباس لعمر عن أبي سفيان: إني قد أجرته مجرد محاولة لحمايته من عمر، لكي لا يتسرع في الإقدام على أمر خطير كهذا..

هل مكث أبو سفيان عند النبي ﷺ عامة الليل؟:

وهناك رواية ذكرت: أن العباس حين أدخل أبا سفيان وحكيماً وبديلاً على النبي «صلى الله عليه وآله» مكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم.. وانتهى الأمر بإسلام بديل وحكيم، ولكن أبا سفيان طلب التأجيل.

ونقول:

أولاً: إننا نشك في أن تكون هناك تفاصيل كثيرة ترتبط بشؤون الحرب ويحتاج النبي «صلى الله عليه وآله» إلى الوقوف عليها منهم، ويستغرق الاستخبار عنها هذا الوقت الطويل (عامة الليل). لا سيما وأن هذا الجيش الكبير قد ظهر ببلادهم فجأة، ولم يكن لديهم أية فرصة للإعداد والإستعداد، وجمع الناس من البلاد.

ولو فرض: أنه كان يريد أن يستخرج منهم بعض الأمور، فلماذا لا يوكل أمر سؤالهم عنها إلى غيره؟!

ثانياً: إذا كان العباس قد أسلم، وكان مقيماً بمكة مثلهم، فإنه هو الآخر يستطيع أن يخبر النبي «صلى الله عليه وآله» بما يريد معرفته.

ولو فرضنا: أنه كان قد خرج من مكة قبلهم، وقد استجدت أمور بعده ولم يعلم بها، فإن تلك الأمور لا تحتاج في الاستخبار عنها إلى هذا الوقت الطويل.

ثالثاً: لماذا يشعرهم بأنه محتاج إلى ما عندهم ما دام أنه مسدد بالوحي الصادق؟ في حين أن المصلحة تقضي بأن يظهر لهم التسديد والرعاية الإلهية له ولمسيرته «صلى الله عليه وآله»..

إلا أن يقال: إنه «صلى الله عليه وآله» إنما كان يتعامل مع الأمور وفق مسارها الطبيعي، لا من خلال الوحي، والغيب، إلا في مواقع معينة، ووفق شروط وضوابط لا تكون متوفرة في هذا الموقف..

رابعاً: هل كانوا مأمونين على ما يخبرونه في الأمور التي يسألهم، حتى لو افترضنا حاجته إلى العلم بها؟!

مُلك أم نبوة؟!:

لقد مضى على بعثة رسول الله «صلى الله عليه وآله» أكثر من عشرين سنة، عاش منها ثلاث عشرة سنة في مكة، وأظهر لهم فيها تعاليم الإسلام، وبيَّن للناس تعاليمه وأحكامه، وقرأ عليهم القرآن. وقد رأوا عن كثب معاملته لأصحابه، ونظرة أصحابه إليه، وتعاملهم معه. كما أنهم حتى بعد هجرته إلى المدينة في السنوات الثماني الأخيرة، لم ينقطعوا عن تتبع أخباره ورصد حركته.

ولكنهم بالرغم من ذلك كله، ما زالوا يظهرون في أفعالهم وأقوالهم ما يشير إلى خطأ فاحش في أساس نظرتهم إليه، وإلى تعاليمه. ويتجلى ذلك في حوادث فتح مكة المختلفة، فقد حفلت تصريحات كثيرة لزعمائهم، بأن ما يرونه لدى محمد «صلى الله عليه وآله» هو الملك. رغم أنهم قد شاهدوا الكثير من المعجزات والكرامات الدالة على أنها النبوة، والرعاية والإرادة الإلهية..

ومن المفردات التي تدخل في سياق هذه السياسة من هؤلاء العتاة قول أبي سفيان للعباس أكثر من مرة: «لقد أصبح ابن أخيك ـ والله ـ عظيم الملك». أو «ما رأيت ملكاً قط كاليوم، لا ملك كسرى ولا قيصر» أو نحو ذلك..

ويجيبه العباس بأنها النبوة، وليست الملك..

ومن ذلك أيضاً: أن حكيم بن حزام حين قيل له: بايع.

قال: «أبايعك، ولا أخر إلا قائماً».

فهو يراه ملكاً مثل سائر الملوك، في فارس والروم وغيرها، لا بد من أن يخضع الناس له إلى حد أنهم يخرون سجداً أو ركعاً بمجرد رؤيته تحية له.. وكأن حكيم بن حزام أراد أن يشترط لنفسه أمراً يمتاز به عن غيره من العرب، وهو: أن لا يخر ساجداً أو راكعاً في تحيته له، بل يحييه وهو قائم.

ولكن جواب النبي «صلى الله عليه وآله» لحكيم قد بيَّن: أنه لا توجد مطالب من هذا النوع في قاموس تعامل الناس مع النبي «صلى الله عليه وآله».. فهو يقول: أما من قبلنا فلن تخر إلا قائماً.. أي أنه ليس في شرعنا، ولا في قراراتنا المرتبطة بالتعامل مع الآخرين أي خضوع يصل إلى حد

الركوع والسجود لرسول الله «صلى الله عليه وآله»..

عمر لا يراعي مجالس رسول الله ﷺ:

وإذا صح ما ذكروه عن عمر بن الخطاب، من أنه قال لأبي سفيان الذي كان في محضر النبي «صلى الله عليه وآله»: إخرأ عليها (أي على العزى) فهو غير مقبول منه من جهات:

إحداها: أنه يمثل جرأة على مقام رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وخروجاً عن الحدود، ومخالفة لأبسط اللياقات التي يفترض مراعاتها في مجالس الناس العاديين، فكيف إذا كان ذلك بمحضر رسول الله «صلى الله عليه وآله». سيد رسل الله، وأفضل مخلوقاته تبارك وتعالى؟!

وقد أظهر أبو سفيان تقززه من هذا الفحش، فقال: أف لك ما أفحشك! أو قال: ويحك يا عمر، إنك رجل فاحش. ويمكن أن يكون قد قال الكلمتين معاً أيضاً.

الثانية: إن ما صنعه عمر قد جاء على سبيل استراق السمع المذموم، وبطريقة الفضول والتدخل فيما لا يعنيه، فهو إنما كان في خارج القبة، وقد ألقى كلامه من وراء الحجاب، من دون ان يدعوه أحد إلى ذلك..

ولذلك قال أبو سفيان: «ما يدخلك يا عمر في كلامي، وكلام ابن عمي».

أو قال: «دعني مع ابن عمي، فإياه أكلم». ولعله قال الكلمتين معاً.

الثالثة: إن هذا من الموارد التي ورد النهي عنها في القرآن الكريم بخصوصها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ

﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١). فلماذا يتدخل عمر ويقدم بين يدي الله ورسوله؟!

وعلينا أن لا نغفل الإشارة إلى تعبير أبي سفيان عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بقوله: ابن عمي، معتبراً عمر بن الخطاب رجلاً غريباً عنهما، لكونه من بني عدي. فهو ينطلق من موقعه العشائري ليقطع بذلك الطريق على عمر..

ولعل السر في أننا لم نسمع أي تعليق أو اعتراض من النبي «صلى الله عليه وآله» على هذا المنحى، ولم يقل لأبي سفيان أن المعيار هو الأخوة الإيمانية والقرابة الدينية لا العشائرية.. هو: أن بإمكان أبي سفيان أن يتنصل من هذا الأمر، ويفكر في أن يكون ذلك محط تفكيره ومرمى كلامه.

أبو سفيان يخاف من الأذان والصلاة!!:

وقد زعمت النصوص: أن أبا سفيان قد فوجئ بأذان المسلمين، وقيامهم إلى طهورهم، فسأل العباس، فأجابه بأنها الصلاة.

ونقول:

١ ـ قد يقال: إن أبا سفيان كان قد رأى النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين يصلون في مكة قبل الهجرة طيلة ثلاث عشرة سنة، ورآهم في المدينة قبل مدة يسيرة، حينما ذهب ليطلب من النبي «صلى الله عليه وآله» تجديد العهد، والزيادة في المدة، وسمع فيها الأذان، وبقي أياماً يتصل برجالات المهاجرين والأنصار، يطلب منهم مساعدته فيما جاء له..

---

(١) الآية ١ من سورة الحجرات.

فما معنى: أن يفزع من الأذان في هذه المرة؟!

والحقيقة هي: أن أبا سفيان قد سمع العسكر يجيبون المؤذن بصورة جماعية، فظن أنهم قد اتفقوا على أمر بعينه.

ويدل على ذلك: أن المسلمين حين قاموا إلى طهورهم، قال أبو سفيان للعباس: «ما للناس؟! أمروا فيَّ بشيء»؟!

وهذا على قاعدة: كاد المريب أن يقول: خذوني.

أو كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ..﴾[1].

ونحن وإن كنا لا نستبعد احتمال أن يكون أبو سفيان قد رأى النبي «صلى الله عليه وآله» يصلي في المسلمين جماعة في المدينة..

غير أننا نقول:

إن صلاة عشرة آلاف رجل في جماعة واحدة مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا بد من أن يخيف أبا سفيان، ويحركه إلى الإستفهام..

ونعتقد: أننا لسنا بحاجة إلى بيان: أن الوضوء الذي نسبته بعض الروايات المتقدمة إلى أبي سفيان، وأن العباس أمره فتوضأ، إنما يقصد به مجرد غسل الوجه واليدين.. ولا يراد به الوضوء بمعناه الشرعي عند أهل الإسلام، لأن أبا سفيان لم يكن قد أسلم آنئذٍ.

أسلم تسلم:

لقد حاول أبو سفيان التسويف في الإقرار بالشهادتين، ربما لأنه كان

---

(١) الآية ٤ من سورة المنافقون.

يأمل بتجاوز هذه المرحلة، وهو يريد أن يحتفظ لنفسه بوضع خاص، يحفظ له محوريته بين أهل الشرك، ومرجعيته لهم.

أو على الأقل يريد أن يكون له ملك في مقابل نبوة محمد، التي حاول أن يصر على أنها مظهر من مظاهر الملك أيضاً.. فطلب من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يرجئ طلب الإقرار بالشهادة له بالنبوة.

فأعطاه «صلى الله عليه وآله» فرصة ليتدبر أمره في تلك الليلة. وفي اليوم التالي: عاد ليكرر ذلك الطلب عليه، ويعود أبو سفيان إلى المراوغة مرة بعد أخرى، معتمداً على معسول من الكلام ظناً أنه يبلِّغه إلى ما يريد..

ولكن القضية لم تكن قابلة للإستمرار، لأن أبا سفيان ظل منذ أن بعث الله محمداً «صلى الله عليه وآله» يرتكب أعظم الجرائم والموبقات ويحارب الله ورسوله، ويتسبب بإزهاق الأرواح، وظلم النفوس، والعدوان على الناس في كراماتهم، وفي حرياتهم، وفي جميع الشؤون.. ولا بد من إزالة تبعات ذلك كله، إما بالجزاء العادل، وهو مواجهة القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة، فيما لو أصر على اللجاج والعناد، وعلى إعلان الحرب على الحق وأهله بالسيف، وبالكلمة، وبالموقف. وهذا في حد نفسه جرم عظيم، وظلم جسيم للدين وللمؤمنين.. ولا مجال للتجاوز عنه أو التساهل فيه.. لأنه يقود إلى إضلال الناس، أو إلى استمرار كثير من الضالين على ضلالهم.

وإما أن يتراجع عن شركه، ويعلن إسلامه، وبطلان ما كان عليه، ويقر بخطئه في مواقفه، وفي ممارساته السابقة. وبذلك يستفيد من سماحة الإسلام الذي منحه عفواً في الدنيا عن جرائمه وعفواً في الآخرة إن تاب توبة نصوحاً..

فيكون باختياره للإسلام قد سهل مهمة انتشار دعوة الحق، وازال من أذهان بعض المستضعفين الذين يرتبطون به، بنحو أو بآخر، أية شبهة، ورفع أنواع الضغط النفسي، الذي كان يشعر به هؤلاء أو غيرهم، ويمنعهم من الدخول في هذا الدين..

ولأجل ذلك: كرر عليه النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» قوله: أسلم تسلم. أي أنه يسلم من العقوبة على جرائمه في الدنيا على أقل تقدير، حسبما بيناه..

وبذلك يظهر: أن هذه الكلمة لا تعني أن الإسلام يَقهر على الإيمان، أو أنه انتشر بالسيف..

بل هي تعني: أن الذي يرتكب جريمة محاربة الحق، ويحارب الله ورسوله، ويسعى في قتل أهل الحق لا يسلم من الجزاء العادل على عدوانه هذا إلا إذا أعلن تراجعه عن موقفه هذا.. واعترف بخطئه فيما ارتكبه من جرائم..

وقد تفضل الله تعالى عليه بهذا العفو، لأنه يريد أن يوفر على الأمة خسائر أكبر قد تنشأ من مواصلته مسيرته الإجرامية، حين يرى أنه هالك لا محالة..

المعادلة التي اعتمد عليها أبو سفيان:

وقد استند أبو سفيان في تقرير بطلان الشرك إلى معادلة تقول: إنه لو كان هناك إله آخر لكان أغنى عنه شيئاً في بدر، وفي أُحد، وفي سواهما.

ولكن ليت شعري لماذا لم يأخذ بهذه المعادلة منذ بدر، أو أُحد، أو

الخندق، ليكون قد وفر على الأمة تلك الويلات والمآسي التي أصابتها بسبب بغيه وإصراره على الجحود والعدوان؟

علماً بأن طريقته هذه لا تؤدي إلى التوحيد التام، وإن كان هو قد نوه بذلك، لأن كلامه يدل على أن إله محمد «صلى الله عليه وآله» محق وإله أبي سفيان مبطل، ولكنه لا يدل على عدم صحة دعوى تعدد الآلهة.

لولا المعجزة لم يسلم أبو سفيان:

وتذكر رواية الراوندي: أن ذلك كله لم يقنع أبا سفيان بإعلان إسلامه، رغم تحذير العباس له بأنه إن لم يسلم جوزي بالقتل..

ولكن النبي «صلى الله عليه وآله» عامله أيضاً بالرفق، حيث أمر العباس بأن يأخذه إلى خيمته، وصار أبو سفيان يحدث نفسه: بأنه لو جمع الأحابيش، فلعله كان يهزم هذا الجيش، وإذ برسول الله «صلى الله عليه وآله» يناديه من خيمته، ويقول له: «إذن كان الله يخزيك».

وكان لا بد لأبي سفيان من أن يخضع للأمر الواقع فقد طفح الكيل، وبلغ في لجاجه حداً لم يعد له عذر فيه، فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقرأ نواياه، وأقر أبو سفيان بالشهادتين مرغماً ليحقن بذلك دمه.

فوفر على الناس المزيد من الخسائر، وانسحب من ساحة الصراع المسلح، ليدير صراعاً آخر، وبطريقة أخرى، ليكون صراعاً من الداخل يهدف إلى السعي للحصول هو وحزبه على أكبر قدر من المكاسب، بل على أهم المواقع والمناصب..

وأصبح كما يقول صاحب الإستيعاب وغيره: كهفاً للمنافقين(١).

ولهذا البحث مجال آخر.

العتاب والجواب:

وقد ذكرت النصوص المتقدمة: أن أبا سفيان وحكيم بن حزام قد عاتبا رسول الله «صلى الله عليه وآله» بأسلوب يفتقر إلى أبسط قواعد اللياقة والأدب. حيث وصفا الجيش الذي كان معه بأنهم أوباش الناس، جاء ليحارب بهم أهله وعشيرته..

وقد نسيا:

أولاً: أن أبا سفيان نفسه لم يزل يجمع الأحابيش والأوباش وغيرهم، لمحاربة من هو من أهلهما وعشيرتهما طيلة ما يقرب من عقد من الزمن. بل إن أبا سفيان لم يتلفظ بالشهادتين إلا بعد أن أعلمه النبي «صلى الله عليه وآله»: بأنه يحدِّث نفسه لو أنه جمع الأحابيش لحرب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو من أهله وعشيرته..

ثانياً: إن حرب أبي سفيان للنبي «صلى الله عليه وآله»، الذي هو من أهله وعشيرته، ما هي إلا حرب بغي وظلم، وهتك لحرمات الله تعالى..

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٣٥١ والإستيعاب (ط دار الكتب العلمية) ج٤ ص٥٨ و (ط دار الجيل) ص١٦٧٨ والإكمال في أسماء الرجال للخطيب التبريزي ص١٠٤ والنزاع والتخاصم للمقريزي ص٥٨ وراجع: الغدير ج٣ ص٢٥٣ وج٨ ص٢٧٨ وشيخ المضيرة لأبي رية ص١٦١ والنصائح الكافية لابن عقيل ص١١٠.

ثالثاً: هل الاستعانة بمن يعرف ومن لا يعرف لدفع الظلم وإقامة العدل، قبيحة ومرفوضه!! ولا يكون غدر قريش بخزاعة في حرم الله وأمنه ونقضها لعهد الحديبية، وسعيها في تكريس نتائج الغدر ـ لا يكون ـ قبيحاً ومرفوضاً؟!

إن ذلك كله يبين لنا مدى صدقية قوله «صلى الله عليه وآله» لحكيم بن حزام ولأبي سفيان:

«أنتم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان، في حرم الله تعالى وأمنه».

وأما تحريضهما رسول الله «صلى الله عليه وآله» على هوازن، فلم يكن يهدف إلى إقامة الحق، وإجراء سنة العدل في هوازن على يدي رسول الله «صلى الله عليه وآله».. بل كان من منطلق ظالم، وغير منطقي، لأنهم استندوا في إغرائه بهم إلى أنهم أبعد رحماً، وأشد عداوة له. وليس هذا هو منطق الإسلام ونبي الله تعالى.

وقد جاءت إجابة النبي «صلى الله عليه وآله» لهما شديدة الوقع، بالغة الأثر، حيث قال:

«إني لأرجو من ربي أن يجمع لي ذلك كله: فتح مكة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن، وغنيمة أموالهم، وذراريهم».

وقد تضمنت هذه الكلمات كل ما يغيظ الكفار ويذلهم، ويخزيهم.. لأن جمع ذلك كله له سيكون بالنسبة إلى أبي سفيان وابن حزام من أعظم الكوارث عليهما وعلى أهل الشرك.. بل إن الفوز بأية مفردة من تلك المفردات سيكون فيه أعظم الخزي والذل للشرك وأهله.. والمفردات التي

أشار إليها هي:

١ ـ فتح مكة: التي كانوا يستطيلون بها على العرب، ويمتلكون من خلالها قلوبهم، ويفرضون إرادتهم.. وفي التسلط على مكة، وإبطال نفوذهم أعظم الخزي والذل لهم.

٢ ـ إعزاز الإسلام في نفسه وهذا أيضاً سيكون من أعظم المصائب والملمات على أهل الشرك.. فكيف إذا كان هذا الإعزاز في مكة نفسها؟!

٣ ـ هزيمة هوازن: وهذه أيضاً: فاجعة كبرى لمشركي قريش، لأنهم يرون فيها سنداً قوياً لهم. وسقوطها معناه: أن يفقدوا بها أملاً كان يهبهم بعض السكون والطمأنينة.

٤ ـ غنيمة أموال هوازن: وهذا معناه: أن لا تقوم لها قائمة بعدها، وأن تخرج من معادلة الحرب والصراع بصورة تامة، ونهائية..

٥ ـ إن الأشد إيلاماً لهم: أن النبي الكريم «صلى الله عليه وآله» لا يعتمد في تحقيق ذلك كله على نفسه وعلى هذا الجيش الهائل، بل هو يعتمد على ربه تبارك وتعالى.. الذي لم يكونوا في أي وقت في موقع رضاه، بل كانوا دائماً في موقع سخطه.

تصحيح اشتباه:

كان بديل بن ورقاء الخزاعي يقول: لما كان يوم الفتح أوقفني العباس بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وآله» وقال: يا رسول الله، هذا يوم قد شرفت فيه قوماً، فما بال خالك بديل بن ورقاء، وهو قعيد حيه؟

قال النبي «صلى الله عليه وآله»: «إحسر عن حاجبيك يا بديل».

فحسرت عنهما، وحدرت لثامي، فرأى سواداً بعارضي، فقال: كم سنوك يا بديل؟

فقلت: سبع وتسعون يا رسول الله.

فتبسم النبي «صلى الله عليه وآله» وقال: «زادك الله جمالاً وسواداً، وأمتعك وولدك، لكن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد نيف على الستين، و قد أسرع الشيب فيه، اركب جملك هذا الأورق وناد في الناس: «إنها أيام أكل وشرب».

وكنت جهيراً، فرأيتني بين خيامهم وأنا أقول: أنا رسول رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول لكم: إنها أيام أكل وشرب، وهي لغة خزاعة، يعني الإجتماع»[1].

ونقول:

إننا لا نريد أن نزيد هنا شيئاً على ما قاله المجلسي «رحمه الله»: «والمشهور: أن هذا النداء كان في حجة الوداع، لا عام الفتح»[2].

---

(١) الأمالي لابن الشيخ ص٢٣٩ و (ط دار الطباعة والنشر ـ قم) ص٣٧٦ والبحار ج٢١ ص١١٥ وج٩٦ ص٣٠٨ وراجع: الإصابة ج١ ص١٤١.

(٢) البحار ج٢١ ص١١٦.

[illegible]

[illegible]

[illegible]?

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

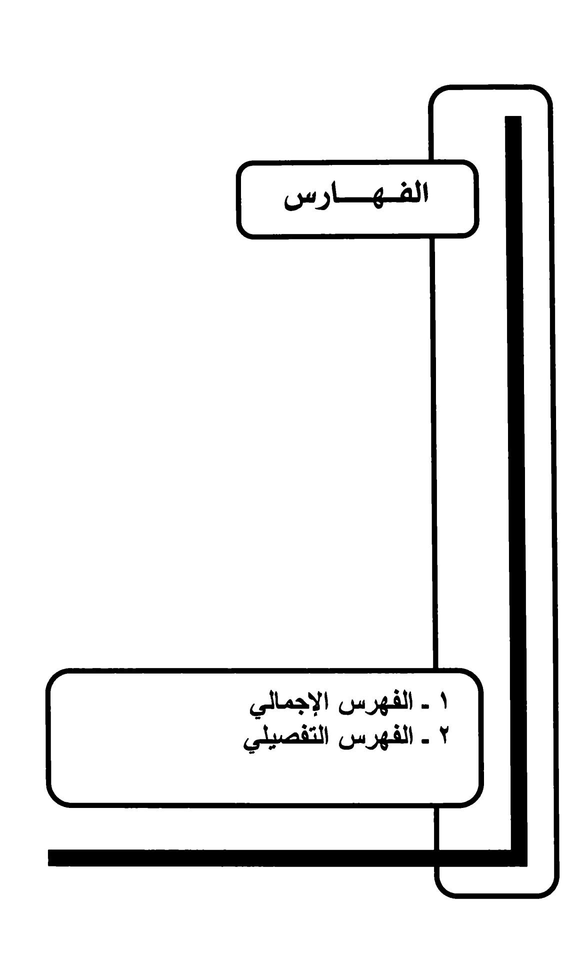
[illegible]

[illegible]

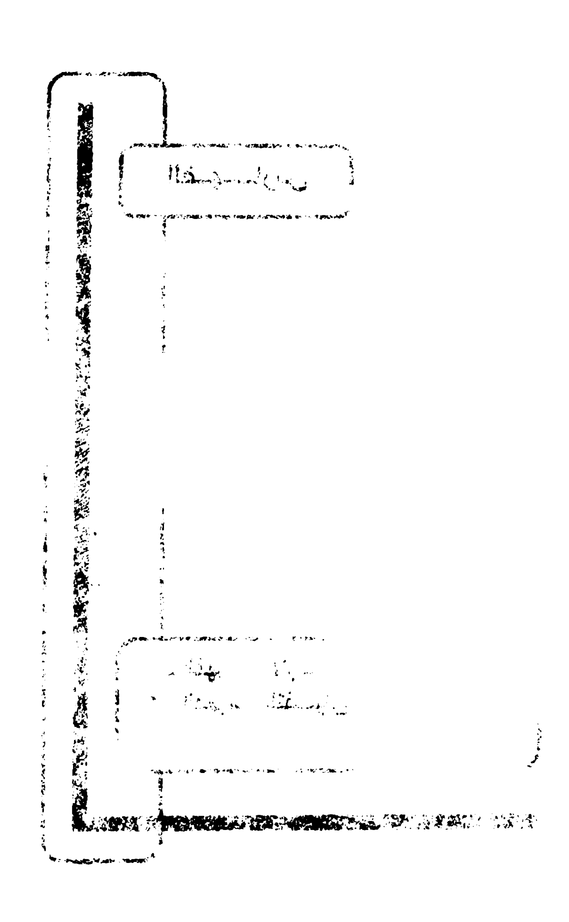
[illegible]

[illegible]

(٢) [illegible]



الفهـــارس



١ ـ الفهرس الإجمالي

القسم التاسع: فتح مكة

الباب الأول: إلى مكة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

٢ ـ الفهرس التفصيلي

القسم التاسع: فتح مكة..

الباب الأول: إلى مكة

الفصل الأول: المجزرة

الفصل الثاني: إلى المدينة: خبر وشكوى

الفصل الثالث: أبو سفيان في المدينة: تدليس وخداع

الفصل الرابع: جيوش تجتمع.. والهدف مجهول

الفصل السادس: على طريق مكة

الفصل السابع: هجرة العباس.. وإسلام ابن الحارث وابن أبي سلمة

الفصل الثامن: أبو سفيان في أيدي المسلمين..

الفهارس: